323.2
L44rAz

صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧

323.2
L44rA

روح الثورات

ممدوح

والثورة الفرنساوية

تأليف

الدكتور غوستاف لوبون

ترجمه من اللغة الفرنساوية

محمد عادل زعيتر

متخرج من معهد الحقوق في جامعة باريس

59011

عني بنشره

عبيد اخوان

أصحاب المكتبة العربية في دمشق

مطبعة الشرق بدمشق

١٣٤٢ هـ

١٩٢٤ غ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله صاحب العزم المتين وعلى آله وصحبه الاتقياء الطاهرين.

اما بعد فان علم الاجتماع هو احد العلوم التي عني بها العلماء في الوقت الحاضر وسعوا في استجلاء ما غمض من قواعدها. ونعد من اكابر هؤلاء العلماء الدكتور غوستاف لوبون مؤلف « حضارة العرب ».

وضع هذا العلامة اثناء سياحاته العلمية الكثيرة في اقطار الارض كتباً قيمة في مدنيات بعض الامم ثم استخرج منها العبر فوضع ثلاثة كتب شرح فيها ما ظهر له من سنن الاجتماع وهي: « سر تطور الامم » و « روح الجماعات » و « الآراء والمعتقدات ». ثم طبق ما جاء في هذه الكتب من الآراء في مؤلفات اخرى اهمها « روح الاشتراكية » و « الثورة الفرنساوية وروح الثورات » وقد عربت هذين المؤلفين فقدمت طبع الثاني لصغر حجمه وسأطبع الاول بعده ان شاء الله تعالى.

ترجم المرحوم فتحي باشا زغلول كتاب « سر تطور الامم » وكتاب « روح الجماعات » وسوف لا يمضي زمن قصير حتى اعرض على القراء ترجمةً لكتاب « الآراء والمعتقدات » فتكون قد اجتمعت عندهم كتب غوستاف لوبون الثلاثة الاساسية وكتابان من كتبه التطبيقية.

وليس من الضروري ان اشير الى ما في مؤلفات الكاتب المشار اليه ولا سيما « الثورة الفرنساوية وروح الثورات » من الفوائد العلمية والحقائق التاريخية لان الامر اصبح مشهورا لا يحتاج الى بيان وانما اكتفي على سبيل التذكرة بنقل العبارات الآتية:

كتب النقادة الشهير [إميل فاكيه] احد اعضاء المجمع العلمي الفرنساوي:

« قد اثرت افكار غوستاف لوبون السياسية في نفسي تأثيراً عجيباً في الوقت الحاضر ان ارجع اليها مستحسناً اياها. فالفصل الذي بحث فيه عن اوهام رجال الثورة الفرنساوية حسن من جميع الوجوه وهذه الاوهام هي الاعتقاد بطيبة الانسان وبأن من الممكنات فصل الامم عن ماضيها وتحويل المجتمع بوضع القوانين. والكل يعلم بما أدت اليه هذه الاغلاط الكبيرة من النتائج.

انني اشارك غوستاف لوبون فيما ذكره عن عامل نجاح نابليون بونابارت فلم يكن النصر وحده هو الذي جعله عام ١٧٩٩ معبود فرنسا — إذ النصر لم يفعل سوى الدلالة عليه — وانما الذي سهل أمر نجاحه هو نفور الناس من الظلم والاضطهاد والارتباك المالي وحبهم للاملاك الوطنية وخوفهم من استردادها.

اعجب بغوستاف لوبون كخصم « للقدر التاريخي » الذي شب على الاعتقاد

به ابناء حيلي لان هذا القدر هو من شبه الحقائق الحافلة بالاغلاط »

وجاء في مجلة العالمين :

« ان ما أتى به غوستاف لوبون منذ اعوام كثيرة من البحث العميق في مؤلفاته الفلسفية والحياتية والتاريخية قد اوصله الى ايضاح بعض الحوادث العظيمة التي ظل امرها غامضاً حتى الان . وقد استطاع ان يبين اوصاف الحركات الثورية في كتاب مبتكر جديد بحث فيه عن الثورة الفرنساوية وروح الثورات . »

بين في هذا الكتاب وجه الشبه بين السنن النفسية السائدة على ما يحول مصير الامم من الحوادث الكبيرة كثورة الاصلاح الديني والثورة الفرنساوية ما انه اوضح شأن الامم الضعيف في الحركات الثورية ومناقضة عزائم اعضاء المجالس وهم منفردون لعزائمهم وهم مجتمعون وتأثير العناصر العاطفية والدينية العظيم في سير ابطال الثورة الفرنساوية . »

محمد عادل زعيتر

باريس في ٦ كانون الثاني سنة ١٩٢٤

مقدمة الطبعة الاخيرة للمؤلف

— فيما يدور حول الثورة الفرنساوية من الآراء في الوقت الحاضر —

لم اضع هذا الكتاب الذى أعيد طبعه الآن لأمدح الثورة الفرنساوية اولأذمها بل لاقررها بما ذكرته من السنن النفسية في كتاب آخر سميته « الآراء والمعتقدات »

ومع ان الغاية التي توخيتها تجعلني ان لاأبالى بالآراء التي قيلت في الماضي فأنني رأيت ان الاطلاع عليها مفيد . ولذلك خصصت فصلاً لبيان ماأتى به المؤرخون من الافكار المتباينة في الثورة المذكورة

لاتعبر الكتب الا عن آراء اصبحت قديمة، وهى وان أمكن ان تهيأ الافكار المستقبلة فانها قلما تعرب عن الافكار الحاضرة . والمجلات والجرائد وحدها هي التي تعبر عن مشاعر الوقت الحاضر تعبيراً صادقاً . ولهذا فان مايجيء فيها من الانتقاد مفيد جداً

يمكن ان نستخرج من المقالات التي كتبت لتحليل هذا المصنف ثلاثة آراء دالة دلالة تامة على ما يدور الآن حول الثورة الفرنساوية من الافكار .

هو

فالرأي الأول يعد الثورة المذكورة كعقيدة يجب قبولها او رفضها برمتها ، والرأي الثاني يعتبرها كحادث حافل بالاسرار لايزال مستغلقاً ، والرأي الثالث يعدها كحادثة لايجوز الحكم فيها قبل نشر كثير من الوثائق الرسمية التي لم تطبع بعد . ولا يخلو البحث بايجاز عن قيمة هذه الآراء الثلاثة من فائدة .

تنظر الاكثرية في فرنسا الى الثورة الفرنساوية بعين المنتقد ولذلك فانها تترا آى لها هذه الاكثرية كحادث ميمون قد اخرجها من طور الهمجية وحررها من ظلم الاشراف . ولايزال يعتقد كثير من رجال السياسة بأنه لولا نشوب الثورة الفرنساوية لكانوا الآن أجراء عند الامراء الاقطاعيين

وقد ظهرت هذه الحالة الروحية في بحث هام خصصه السياسي الشهير الموسيو [إميل اوليفيه] لمناهضة ماجاء في كتابي. فبعد ان ذكر هذا العضو الفاضل في المجمع العلمي النظرية التي تعد الثورة الفرنساوية حادثة غير نافعة قال:

«تناول غوستاف لوبون هذا الموضوع فجاء في كتاب حديث بحث فيه عن روح الثورة الفرنساوية وتجلت فيه قوة تأليفه وبيانه «ان النتيجة التي اقتطفت بعد القيام بكثير من اعمال التخريب لابد من نيلها في نهاية الامر مع سير الحضارة بلا عناء»

لم يرض الموسيو اوليفيه بهذا الرأي فالثورة الفرنساوية عنده أمر ضروري وقد ختم كلامه بالكلمات الآتية :

«هل يأسف لوقوع الثورة الفرنساوية من يريد ان لايكون مسخراً لصيد الضفادع في الغدران كي لاتقلق الامير الاقطاعي في نومه، وهل ينوح لحدوثها من يريد ان لا يرى كلاب شاب عات تخرب حقله، وهل يحزن لنشوبها من يريد ان لا يسجن في البستيل لولوع رجل من بطانة الملك بزوجته او لتفوهه بكلمة ضد رجل نافذ او لغير ذلك، وهل يغتم لاشتعالها من يريد ان لايبغي عليه وزير او موظف او وكيل وان لا يكون تحت رحمة احد من الناس وان لا يؤخذ منه اكثر مما يفرض عليه وان لا يهينه ويشتمه من يدعي بانه فاتح؟ ولذلك فاني بصفتي من الطبقة المتوسطة اشكر اولئك الذين انقذوني بعد عناء شديد من هذه الانيار التي لولاهم لبقيت رازحاً تحت أثقالها، وابارك لهم رغم زلاتهم»

ان المعتقد الذى تجلى في مثل هذه السطور ساعد مع قصة نابليون على جعل الثورة الفرنساوية أمراً مرضياً في فرنسا، ومصدر هذا الوهم الشائع — حتى بين كثير من اقطاب السياسة — هو المبدأ القائل بان طرق الحياة عند الامة تلون بحسب نظاماتها، والواقع ان الطرق المذكورة تابعة للمبتكرات العلمية والاقتصاديه فتأثير القاطرة في التسوية بين الناس خلاف تأثير المقصلة، ولا ريب في نيلنا منذ زمن طويل مابلغنا اليه وما بلغت اليه أمم كثيرة قبل الثورة الفرنساوية من المساواة والحرية سواء أشتعلت هذه الثورة ام لم تشتعل.

ويؤدي الرأي الثاني القائل بان الثورة الفرنساوية سر مستغلق الى محافظة هذه الثورة على نفوذها ايضاً. واليك ماجاء في مقالة

خصصها الموسيو (دورمون) مدير احدى الجرائد الكبيرة في باريس لفحص كتابي :

« لاتزال الحوادث المدهشة التي زعزعت اركان العالم القديم لغزاً من الالغاز ولم تكتشف ابحاث علم النفس سر تلك الازمة العجيبة التي ستبقى معدودة من حوادث التاريخ الخارقة للعادة »

وينشأ عن تلقي الثورة الفرنساوية على مثل هذه الصورة ظن الناس بانها سلسلة وقائع غامضة احدثتها صدفة سرية . وتدل الكلمات التي اوردناها على درجة الشكوك والريب التي تزيد البحث عن الثورة المذكورة إبهاماً وتبرر حكمة العلماء الذين يقتصرون على نشر الوثائق فقط .

إذاً فالمنصف الذي يود ان يكون ذا رأي صائب في الثورة الفرنساوية يرى نفسه الآن إما إزاء عقائد عمياء اومزاعم يصرح بها ان هذا الحادث العظيم يتعذر ايضاحه بالوثائق الحاضرة .

وقد وقع هذا العجز في نفسي عند ماشرعت في درس الثورة الفرنساوية لاطبق عليها طريقتي في علم النفس فلاح لي ان شكوك المؤرخين في هذه الازمة الكبيرة ناشيء عن شرحهم بالمعقول ماصدر عن روح التدين والعاطفة والجماعات من الحوادث

يوجد في كل صحيفة من صحائف الثورة برهان على ذلك . فمنطق الجماعات — لا المنطق العقلي — هو الذي يكشف لنا سبب

تصويت المجالس الثورية دائماً الى تدابير مخالفة لرأي كل عضو من اعضائها ، ولا يوضح لنا العقل لماذا تنزل نواب الاشراف في ليلة شهيرة عن امتيازات كانوا شديدي التمسك بها مع انهم لو اقلعوا عنها في وقت مناسب لاجتنبت الثورة الفرنساوية على مايحتمل وكيف يمكننا ان ندرك علة كون الاذكياء المسالمين من ابناء الطبقة الوسطى الذين كانوا وهم في بعض اللجن يضعون المقياس المتري ويأمرون بانشاء المدارس الكبيرة قد صوتوا في مكان آخر الى افعال وحشية كاعدام (لافوازية) واعدام الشاعر (شينيه) وهدم قبور (سان ديني) الفخيمة اذا لم نكن عالمين بتقلبات الذات حسب اختلاف الظروف ؟ ثم كيف يمكننا ادراك السبب في انتشار الحركات الثورية اذا لم نكن عارفين بسنن الاقناع الحقيقية التي تختلف عما تدل عليه الكتب من الطرق اختلافاً تاماً ؟

تأصلت المباديء العقلية في فرنسا تأصلاً جعل الناس لايتصورون ان حوادث التاريخ قد تقع بعيدة عن العقل او ضد العقل ، ومع ذلك فيجب علينا لتفهم مايعجز العقل عن ايضاحه من الحوادث ان نغير مانوضح به وقائع التاريخ من الطريق .

أرى ان الافكار التي بينتها في هذا المؤلف ستشيع سريعاً وما نشر من المقالات الكثيرة يثبت لنا انها أثرت في كثير من

العلماء المدققين ، وأني اكتفي على سبيل المثال باقتطاف العبارة الآتية من جريدة التايمس التي هي أهم صحف انكلترا:

« يجب على جميع رجال السياسة ان يطالعوا كتاب غوستاف لوبون. فلم يبال هذا المؤلف بما قيل في تفسير الثورة الفرنساوية من النظريات المدرسية ولذلك أدت شروحه النفسية الى نتائج جديدة جداً فاوضح ماللشعب من الشأن الضئيل في الحركات الثورية وما في غرائم اعضاء المجالس وهم مجتمعون من المناقضة المطلقة لغرائمهم وهم منفردون وما سيّر ابطال الثورة المذكورة من الروح الدينية وما للعقل من التأثير القليل فيهم . فلولا هذه الثورة لصعب اثبات كون العقل لا يحول الرجل وكون المجتمعات لا تتجدد كما يريد المشرعون مهما كان سلطانهم عظيماً . »

ان تاريخ الثورة الفرنساوية عبارة عن سلسلة من الحوادث المتآزية وكثيراً ماوقعت هذه الحوادث مستقلاً بعضها عن بعض كقصة النظام الملكي البالي الذى انقض لعدم وجود من يدافع عنه وقصة المجالس الثورية وقصة الفتن الشعبية وزعمائها وقصة الجيوش وقصة النظامات الجديدة وغير ذلك من القصص الدالة في الغالب على قوى نفسية متصادمة يجب درسها على الطرق المستعارة من علم النفس .

نعم قد يجادل في قيمة ماأتينا به من الشروح ولكنني اعتقد بأنه سيصعب بعد الآن أن يكتب تاريخ الثورة الفرنساوية من غير ان ينظر الى تلك الشروح .

مقدمة المؤلف

— اعادة النظر في التاريخ —

لم يكن الدور الحاضر دور مكتشفات فقط بل دوراً يبحث فيه ثانية عن اجزاء المعرفة فبعد ان أقر العلم بأنه لايوجد اى حادث يسهل الاطلاع على علته الاولى في الوقت الحاضر اخذ يفحص مرة أخرى عما قال بصحته من القواعد سابقاً فرأى انها سريعة العطب، وهو يشاهد الآن دخول مبادئه القديمة واحدة بعد الاخرى في خبر كان، فعلم الآلات يخسر قواعده واخذ الناس يرون ان المادة التى كانت معدودة في الماضي جوهر الكائنات الازلي هي عبارة عن قوى فانية تكائفت لاجل قصير .

ولم يشذ التاريخ عن مثل ذلك رغم مافيه من الحدس الذى ينقذه من النقد الشديد، فلا يستطيع احد ان يقول الآن بانه يعرف صحيفة من صحائفه معرفة تامة وما كان يلوح انه علم يقينا من الحوادث فقد أعيد ليبحث فيه ثانية .

ونعد الثورة الفرنساوية من بين الوقائع التى كان يظهر ان

درسها قد تم . وبعد ان بحثت عنها أجيال عديدة من المؤلفين عم الاعتقاد بانها أوضحت ايضاحاً كاملا . وماذا بقي ليقال عنها سوى تعديل بعض التفاصيل ؟

ومع ذلك فان أشد المدافعين عنها اخذوا يترددون في احكامهم فاصبح كثير من الحقائق القديمة موضعاً للاخذ والرد وصار الايمان بعدد كبير من المذاهب المقدسة مزعزعاً وما كتب أخيراً عن الثورة الفرنساوية قد كشف القناع عن تلك الشكوك والريب ، فتدرج الكتاب بعد روايتها الى العدول عن استخراج النتائج منها .

ولم يكتف العلماء بالمماراة في أبطال تلك الفاجعة العظيمة فقط بل اخذوا يتساءلون عما إذا كانت دعائم النظام الحديث الذي حل مكان النظام القديم تتوطد من غير عنف بتأثير مبتكرات الحضارة وهاهم قد رأوا ان عواقبها لا تساوي ما كلفت من الاعباء .

يوجد اسباب عديدة اوجبت إعادة النظر في ذلك التاريخ المحزن . ومنها ان الزمان سكن مافي النفوس من الانفعالات وان كثيراً من الوثائق اخذت تخرج من بطون الخزائن وان الناس صاروا يعلمون كيف يشرحونها بحرية تامة .

ولربما كان علم النفس الحديث هو الذى سيؤثر اكثر من كل شيء في افكارنا معيناً ايانا على العلم بروح الرجال وبعوامل

سيرهم . ونخصص من بين مكتشفاته التي يمكن تطبيقها منذ الآن على التاريخ معرفة المؤثرات الأرثية والنواميس المسيرة للجماعات والتجارب الدالة على انحلال الذاتيات والعدوى النفسية وتكوين المعتقدات تكويناً لا تنبهياً والتمييز بين انواع المنطق المختلفة .

والحق يقال ان هذه التطبيقات العلمية التي طبقناها على هذا المؤلف لم ينتفع بها حتى الآن فلا يزال المؤرخون مكتفين بدرس الوثائق . على ان ذلك يكفي لالقاء ما اشرت اليه من الشكوك والشبهات في نفوسهم .

. . .

قد يكون ايضاح الحوادث العظيمة التي تحول مصير الأمم احياناً من الصعوبة بحيث يضطر الانسان الى الاقتصار على ملاحظاتها فقط .

وقد أثر في نفسي منذ ابحاثي التاريخية الأولى تعذر ادراك بعض الحوادث الجوهرية ولا سيما تكوين المعتقدات فشعرت بان أموراً اساسية ضرورية لأيضاحها تفوتنا وبانه يجب ان لا ننتظر شيئاً من العقل الذي قال جميع ما أمكنه و بانه يتحتم ان نبحث عن وسائل أخرى للوقوف على ما عجز عن تفسيره .

بقي أمر هذه المسائل الكبيرة غامضاً في نظري وما أتيت به من

السياحات البعيدة للبحث عن انقاض المدنيات المنقرضة لم يقلل من هذا الغموض شيئاً يذكر .

الا أن كثرة التأمل والتفكير ساقتني الى الأقرار بان هذه المشكلة مركبة من مشاكل أخرى يجب البحث عن كل واحدة منها على حدتها ، وهذا ما فعلته في عشرين سنة فاوردت نتائج ابحاثي في سلسلة من المؤلفات .

بحثت في احد مؤلفاتي الاولى عن سر تطور الامم فبعد ان بينت فيه ان الأمم التاريخية اى الامم التي تكونت حسب صدف التاريخ تنال في آخر الأمر صفات نفسية ثابتة كثبات اوصافها التشريحية اوضحت الكيفية التي تحول بها اناظيمها ولغاتها وفنونها ، ثم شرحت فيه لماذا يحتمل ان تنفك عرى الذاتيات الفردية عند تبدل البيئة فجأة .

ولكن يوجد عدا هذه المجتمعات البشرية المكونة من الامم مجتمعات بشرية متقلبة مسماة بالجماعات ، ولهذه الجماعات التي تمت على يدها اكبر الفتن التاريخية صفات تختلف عن صفات الأفراد الذين تتركب منهم اختلافاً تاما . وقد بحثت عن هذه الصفات وعن كيفية تطورها في كتاب سميته بروح الجماعات .

وبعد هذه الأبحاث أبصرت انه يوجد بعض مؤثرات قد

غابت عني .

لم يكن الامر مقصراً على ذلك فقط بل يوجد بين عوامل التاريخ الهامة عامل قوي اي المعتقدات وقد بحثت عن هذه المسئلة الصعبة في مؤلفي الاخير الذي سميته بالآراء والمعتقدات فبينت في هذا الكتاب كيفية تولد المعتقدات وهل هي عقلية إرادية كما عرفت ام هي على خلاف ذلك لاشعورية مستقلة عن كل عقل .

يبقى ايضاح المعتقدات امراً متعذراً اذا اعتبرت ارادية عقلية وقد تمكنت بعد ان اثبت انها غير عقلية غالباً وغير إرادية دائماً من حل المشكلة العظيمة وهي كيف ان ارباب العقول النيرة في كل جيل يستصوبون من غير عناء معتقدات لايبررها العقل .

سيظهر حل المشاكل التاريخية التي بحثت عنها منذ كثير من السنين ظهوراً واضحاً بعد الآن فقد توصلت الى نتيجة دالة على انه يوجد بجانب المنطق العقلي الذي يربط الافكار بعضها ببعض منطق الجماعات والمنطق الديني اللذان يستحوذان في الغالب على العقل ويولدان عوامل السير فيها .

وبعد ان حققت ذلك علمت انه يظل ادراك كثير من الحوادث التاريخية ممتنعاً إذا أريد ايضاحها بنور منطق قليل التأثير في تكوينها .

اقتضى الوصول الى جميع هذه الابحاث التي لخصناها هنا في بضعة سطور سعي اعوام كثيرة ، وقد يأست من إتمامها فرجعت اكثر من مرة الى الجد في المختبرات التي يثق الانسان بانه يقرب فيها من الحقيقة دائماً و ينال شيئاً من العلم اليقين .

ان سبر غور الرجال مفيد كالتنقيب في الحوادث المادية وهذا ماجعلني ارجع الى علم النفس على الدوام .

ولما ظهر لي ان بعض النتائج التي استنبطتها من ابحاثي واسعة المدى نويت ان اطبقها على بعض الحوادث ، وهكذا تناولت درس روح الثورات ولاسيما الثورة الفرنساوية .

و كلما كنت اتوغل في تحليل هذه الثورة العظيمة كانت اكثر الآراء التي نشأت عن مطالعة الكتب وكنت أظن أنها متينة لاتتزعزع تنهار انهياراً متتابعاً .

يجب لايضاح هذا الدور أن لا يعد حادثاً واحداً كما فعل كثير من المؤرخين فهو مركب من حوادث مستقلة وقعت في آن واحد وقد تفرعت عن كل واحدة من هذه الحوادث أمور وقعت حسبما تقتضيه سنن النفس ، و يظهر لنا ان ممثلي تلك الفاجعة الكبيرة قد ساروا كممثلي الروايات التي وضعت قبلاً فقال كل واحد منهم مايجب ان يقول وعمل مايجب ان يعمل .

لاشك في ان اولئك الممثلين الثوريين يختلفون عن ممثلي الرواية المكتوبة لكونهم لم يدرسوا ادوارهم ولكن قوى خفية كانت تمليها عليهم فكانوا يأتون بها كانهم من الحافظين لها . وقد اوجب اتباعهم لمنطق لم يدركوا من أمره شيئاً اتباعاً مقدراً تعجبهم مثلنا من الحوادث التى كانوا ابطالها لأن القوى الخفية المسيرة اياهم لم تخطر ببالهم أبداً . وما كان أمر شدتهم وضعفهم بيدهم فهم وان كانوا يتكلمون باسم العقل ويدعون بأنهم مسيرون به فهو لم يكن رائدهم في الحقيقة . قال بيوفارين :

« كنا لا نريد ان نأتي بما نلام عليه من الافعال ولكن الازمة كانت تدفعنا الى احداث ذلك . »

ولا يستدلن القارئ من هذا الكلام على ان الحوادث الثورية خاضعة لمقادير مهيمنة فالمطلع على ماوضعناه من الكتب يعلم اننا نعترف بما لأرباب التأثير من القدرة على إبطال عمل المقادير ، غير انهم لايقدرون إلا على ابطال عدد قليل منها وكثيراً مايعجزون عن ايقاف الحوادث التي لم يتسلطوا على سيرها عند البداية . فالعالم يقدر على استئصال المكروبات قبل تأثيرها ولكنه يعترف بعجزه عند استفحال المرض .

. . .

يمكن القول بان المسئلة التي يؤدى البحث عنها الى آراء متناقضة لمسئلة معدودة من فصيلة المعتقدات وليست من فصيلة المعارف . وقد بينا في مؤلف سابق ان الأدلة والبراهين لا تؤثر في المعتقدات الناشئة عن اللاشعور الذي لا علاقة له بأي عقل .

وافترق المعتقدون الذين أتوا بأحكام في الثورة الفرنساوية التي هي من عمل المعتقدين ايضاً على فرقتين احديهما تلعن الثورة المذكورة والأخرى تعجب بها ولذلك فأن الثورة المذكورة بقيت من جنس المعتقدات التي تقبل او ترفض جملة من غير ان يتدخل اي منطق عقلي في هذا الاختيار . فالثورة الدينية او السياسية وان جاز ان تستند الى عناصر العقل في بدايتها فانها لا تنتشر الا معتمدة على عناصر التدين والعاطفة التي لا صلة بينها وبين العقل مطلقاً .

لم يستطع المؤرخون الذين بحثوا عن حوادث الثورة الفرنساوية باسم المنطق العقلي ان يدركوا سرها لان هذا المنطق لم يكن يحدث لها وبما ان القائمين بها أنفسهم غير مطلعين على كنهها فاننا لا نخطئ اذا قلنا أن تلك الثورة هي أمر لم يفقهه من أتى به ومن قصه . ولم يكن في دور من ادوار التاريخ ان أدرك الحال ادراكا قليلا وجهل الماضي جهلا تاماً وكشف المستقبل كشفاً ناقصا نظير ذلك الدور .

لم تتم سطوة الثورة الفرنساوية على ما كانت تربي الم نشره من المبادىء ولا على ما كانت تود ان تضعه من الأنظمة إذ الأمم لاتبالي بالمبادىء والأنظ ة الا قليلا . فالسبب في قوة هذه الثورة وفي ارضاء فرنسا بما أتت به من المظالم والمذابح والهدم والهول وفي مدافعتها ظافرة إزاء اوربا المدججة بالسلاح هو إقامتها ديانة جديدة لا نظاماً جديداً . ولقد اثبت التاريخ ما للمعتقد القوي من القوة التي لا تقاوم فخضعت دولة الرومان المنيعة لجيوش من رعاة البدو الذين أضاء قلوبهم ماجاء به محمد (صلعم) من الايمان . ومثل هذه العلة لم تقدر ملوك اوروبا على مقاومة جنود العهد الرثة الثياب فكان هؤلاء الجنود مستعدين كجميع الدعاة لتضحية أنفسهم في سبيل نشر عقائدهم التي كانوا يتخيلون انها ستجدد العالم .

* * *

اننا نعد الثورة الفرنساوية كما ظن دعاتها أنها قطعت كل علاقة مع التاريخ وان أوجد هؤلاء لاظهار مقصدهم تقويماً جديداً وزعموا انهم قضوا على الروابط التي تربطهم ببقايا الماضي . فالماضي لا يموت ابداً وهو متأصل في النفوس اكثر من كل شيء . كان المصلحون ايام الثورة المذكورة مشبعين به من غير ان يشعروا وهم لم يفعلوا سوى مواصلة التقاليد الملوكية — بأسماء اخرى — مفرطين بالاستبداد

والسير على نحو مركزية العهد السابق . وما وجد (توكفيل) عناء باثباته ان هذه الثورة لم تهدم سوى ماكان متصدعاً .

والثورة الفرنساوية وان لم تنتض في الحقيقة غير شيء يسير فانها أعانت على انكشاف بعض المبادىء التي استمرت على النمو نعم إن مبدأي الأخوة والحرية اللذين نشرتهما لم يغرا الأمم كثيراً ولكن مبدأ المساواة اصبح انجيلا لها اي صار قطباً للاشتراكية ولتطور المبادىء الدموقراطية في الوقت الحاضر . ولهذا يجوز لنا ان نقول بأن تلك الثورة لم تنته بظهور الدور الامبراطوري ولا بالأنظمة التي ظهرت بعده فهي قد انتشرت رويداً رويداً مع الزمان ولا تزال ذات سلطان على النفوس .

. . .

ربما ينزع البحث عن الثورة الفرنساوية الذي خصصناه قسماً عظيماً من هذا الكتاب كثيراً من أوهام القاريء لأنه سيرى ان المصنفات التي حدثت عنها تحتوي كثيراً من الاقاصيص البعيدة عن الحقيقة . لاريب في ان هذه الاقاصيص ستبقى مسطورة في كتب التاريخ ولا نأسف لذلك لان الاطلاع على الحقيقة وان كان يفيد بعض الفلاسفة فان تغلب الاوهام على الشعوب انفع . فمن مجموع تلك الاوهام تتكون منية الشعوب الباعثة لسيرها . قال (فونتيل)

« لولا الافكار الباطلة لضاعت الشجاعة . »

حقاً ان قصص جان دارك وغيلان العهد والامبراطورية تولد آمالاً في النفوس بعد الهزيمة وان لهذا الميراث الوهمي الذى تركه لنا الاباء سلطاناً اشد من سلطان الحقائق في بعض الاحيان . فالاوهام والخيالات والاساطير هي التي تقود التاريخ .

الثورة الفرنساوية
و
روح الثورات

الجـــزء الاول
(العناصر النفسية) للحركات الثورية

الباب الاول
= صفات الثورات =

[الفصل الاول]
الثورات العلمية والثورات السياسية

١ — تقسيم الثورات

يعبرون عادة عن الانقلابات السياسية بالثورة مع انه يقتضي اطلاق هذه الكلمة على جميع التحولات الفجائية للمعتقدات والافكار والمذاهب .

بحثنا في مكان آخر عما لعناصر المعقولات والمشاعر والتدين من الشأن في تكوين الافكار والمعتقدات التي يتوقف عليها سير الانسان ولا فائدة في الرجوع اليها مرة أخرى .

قد يمكن ان ينتج عن الثورة في نهاية الامر معتقد ولكنها تنشأ في الغالب عن عوامل عقلية كالقضاء على ظلم فادح او استبداد ممقوت او ملك يبغضه الشعب. نعم ان المعقولات هي اصل الثورة احياناً ولكن ينبغي ان نعلم ان الاسباب التي هيأت الثورة لا تؤثر في الجماعات الا بعد ان تتحول الى مشاعر. فاذا أمكن بالمعقولات اظهار ما يجب هدمه من المظالم فيجب في تحريك الجموع افعام قلوبها بالآمال. وهذا أمر لا ينال الا إذا استعين بعناصر المشاعر والتدين التي تجعل الانسان قادراً على السير. خذ الثورة الفرنساوية مثلاً ترأن المنطق العقلي الذي تذرع به فلاسفة ذلك العصر اظهر للملأ مساوىء النظام القديم وأوجد في القلوب ميلاً الى تبديله وان المنطق الديني ألقى في النفوس اعتقاداً بفضائل مجتمع قائم على بعض المبادىء، وان المنطق العاطفي فك النفوس من عقالها القديم وجعلها قاسية وان منطق الجماعات استحوذ على الاندية والمجالس ودفع اعضاءها الى الاتيان باعمال لا يدفعهم المنطق العقلي والمنطق العاطفي والمنطق الديني الى اقتراف مثلها.

ان الثورة مهما كان مصدرها لا تكون ذات نتائج الا بعد هبوطها الى روح الجماعات اذ يكون للحوادث حينئذ خاصة ناشئة عن تلك الروح

اذاً فالجماعة تتم الثورة ولا تكون مصدرها ولا تقدر على شيء اولا تريد أي شيء اذا لم يكن عليها رئيس يقودها ، وهي لا تلبث ان تتجاوز الحد الذي حرضت عليه وان كان التحريض لا ينشأ عنها ابداً

ان الثورات السياسية الفجائية التي يعجب لها المؤرخون هي اقل اهمية من غيرها في بعض المرات فالثورات الكبيرة هي ثورات الطبائع والافكار .

وتم الثورات الحقيقية التي يتوقف عليها مصير الامم في الغالب رويداً رويداً وهذا ما يجعل المؤرخين يلقون مصاعب في تعيين مبدئها ، ولذلك فان كلمة التطور اصح في التعبير عن المقصود من كلمة الثورة .

لا تصح العناصر المختلفة التي ذكرنا انها داخلة في تكوين اكثر الثورات ان تكون اصلا لتقسيم الثورات ولكننا إذا اعتبرنا الثورة من حيث غايتها فقط امكننا ان نقسمها الى ثورات علمية وثورات سياسية وثورات دينية .

٢ — الثورات العلمية

ان الثورات العلمية لمن اكثر الثورات أهمية . ومع انها لا تلفت النظر الا قليلاً فهي في الغالب ذات نتائج بعيدة لا تأتي بمثلها الثورات

السياسية ولهذا ذكرناها على رأس الثورات وان كنا لانبحث عنها في هذا الكتاب .

فالسر في تحول الصورة التى تنظر بها الى الكون منذ عصر النهضة هو ان المكتشفات الفلكية وتطبيق الطرق التجريبية قد اورثت نفوسنا ثورة بأثباتها لنا ان الحوادث لا تصدر عن أهواء الآلهة بل عن سنن ثابتة لاتتبدل .

والأجدر بمثل هذه الثورات ان تدعى بالتطورات لبطء وقوعها ، الا أنه يوجد من نوعها ثورات أخر تقع بسرعة وتستحق ان تدعى بالثورات ، مثال ذلك نظريات داروين التى قلبت علم الحياة في بضع سنين رأساً على عقب ومكتشفات باستور التي حولت علم الطب في أيام صاحبها ونظرية انحلال المادة التي أثبتت ان الذرة لاتشذ عن السنن القاضية على جميع عناصر الكون بالزوال والفناء خلافاً لما كان يظن .

وبما ان مرتع هذه الثورات هو عالم الأفكار فليس للمشاعر والمعتقدات سلطان عليها وعلى المرء ان يعانيها من غير ان يجادل فيها ، لأنه لما كانت التجربة هي الباحثة عن نتائجها اصبحت لا تنالها يد النقد .

* * *

٣ — الثورات السياسية

ان الثورات الدينية والسياسية تلي هذه الثورات العلمية الموجبة لكل تقدم في الحضارة وان كانت بعيدة عنها ولا تربطها بها رابطة، فالثورة العلمية لا تشتق الا من عناصر العقل مع أن دعائم المعتقدات السياسية والدينية هي المشاعر والعواطف وليس للعقل سوى شأن ضئيل في تكوينها .

لقد اطنبت في كتابي المسمى بالآراء والمعتقدات في بيان منشأ المعتقدات العاطفي والديني واثبت ان المعتقد السياسي والديني هو ايمان اينع في عالم اللاشعور وليس للعقل سلطان عليه رغم ظواهر الأمور وبينت ان المعتقد قد يكون احياناً من القوة بحيث لا يستطيع ان يقوم في وجهه أي شيء فيصبح المرءُ الذي استحوذ عليه ايمانه حينئذٍ رسولا مستعداً لتضحية منافعه وسعادته وحياته في سبيل نصره . ولا أهمية لمخالفة هذا الايمان للعقل والصواب بعد ان يكون حقيقة ناصعة في نظر صاحبه . فللعقائد الدينية قوة عجيبة في تغلبها على الأفكار وفي كونها لا تتغير الا مع الزمان .

ان اعتبار المعتقد حقيقة مطلقة يجعله عديم التسامح بحكم الضرورة وهذا يوضح لنا سر القسوة والأحقاد والمظالم التي اقترفت ايام الثورات السياسية والدينية الكبيرة ولاسيما ايام الاصلاح الديني

والثورة الفرنساوية .

تظل بعض أدوار تاريخنا سراً من الأسرار الخفية اذا غاب عن بالنا منشأ المعتقدات الباطني والديني وعدم تسامحها الضروري واستحالة التوفيق بينها عند المواجهة ثم ماتنعم به المعتقدات الدينية على المشاعر المسخرة لخدمتها من القوة .

ان المباديء المذكورة حديثة العهد بعيدة عن تغير نفسية المؤرخين الذين سوف يستمرون على القول بأن كثيراً من الحوادث صادر عن المنطق العقلي .ومع ان الاصلاح الديني الذي قلب فرنسا مدة خمسين سنة وما اشبهه من الجوادث لم يكن ناشئاً عن عوامل عقلية فان اكثر المؤلفات حداثة لاتزال تعزو هذه الوقائع الى العقل ومن هذا القبيل الايضاح الآتي الذي اوضح به الموسيو لافيس والموسيو رامبو الاصلاح الديني في كتابهما المسمى بالتاريخ العام :

« انه لحركة غريزية تولدت في نفس القوم من مطالعة الانجيل ومن تأملات ذاتية او رثها قلوب البسطاء شعور تقي وعقل مقدام»

والحقيقة هي غير ما زعم هذان المؤرخان فمثل هذه الحركات ليست غريزية أبداً وليس للعقل اي تأثير في نضوجها ، ولم تخرج المعتقدات السياسية والدينية التي قلبت العالم الا من عناصر المشاعر

والتدين وليس العقل بموجد لها ولا بمحول اياها .

ان مصدر المعتقدات سياسية كانت ام دينية لمشترك وتخضع الى قوانين واحدة ولم يتم تكوينها بالعقل وكثيراً ما تتكون خلافاً لما يقتضيه العقل ، فالبوذية والاسلام والاصلاح الديني واليعقوبية والاشتراكية وان ظهرت بشكل فكري بارز فهي في الحقيقة قائمة على عواطف وتدينات متماثلة وتخضع لأحكام منطق لاقرابة بينه وبين المنطق العقلي .

تنشأ الثورات السياسية عن معتقدات تأصلت في النفوس ولكنها قد تنشأ عن اسباب كثيرة أخرى تجمعها كلمة الاستياء ، فمتى يعم هذا الاستياء يتألف حزب قادر على مكافحة الحكومة .

يقتضي ان يتراكم الاستياء ليكون ذا نتائج ، ولهذا فان الثورة ليست في كل وقت عبارة عن حادثة لاتلبث ان تنتهي حتى تعقبها ثورة أخرى بل هي حادثة مستمرة اسرعت في تطورها قليلا ، على ان جميع الثورات الحديثة وقعت بغتة واوجبت فجأة انقلاب الحكومات كالثورة البرازيلية والبرتغالية والتركية والصينية .

وعندنا ان الأمم كثيرة المحافظة هي التي تأتي بأشد الثورات خلافاً لما يظن البعض ، لأنها لما كانت محافظة غير متطورة ببطء لتلتأم مع تقلبات البيئات فأنها ترغم على الالتئام معها بغتة عند ما تصبح

الشقة بين الطرفين عظيمة جداً ومن هذا التطور الفجائي تتألف الثورة .

لاتفر كل حين الأمم التي تلتأم بالتدريج مع تقلبات البيئآت من الوقوع في الثورات ، فلم ينجح الانكليز عام ١٦٨٨ في إنهاء النزاع الذي استمر عصراً كاملاً بين العرش الذي ود ان يكون مطلقاً وبين الشعب الذي سعى ان يكون محكوماً لنوابه الا بالثورة وخواص الأمة لاعوامها هم الذين يبدأون بالثورات في الغالب ولكن الثورات تستمد قوتها من الشعب عند مايهيج . ومن الأمور الظاهرة ان الثورات لاتتم الا اذا دعمها فريق كبير من الجيش ، فلم تأفل الملكية في فرنسا يوم قطع رأس لويس السادس عشر بل يوم امتنع جنده الجموح عن الدفاع عنه .

وتزول المحبة عادة بالعدوى النفسية من قلب الجيوش التي لاتكترث لسير الأمور الا قليلا فعند ما استطاع بضعة ضباط ان يقلبوا الحكومة التركية فكر الضباط اليونانيون في تقليدهم بتغيير الحكومة مع انه لايوجد اى شبه بين النظامين .

قد يمكن تغيير الحكومة بحركة عسكرية — وذلك كما يقع في الجمهوريات الاسبانية — ولكن مثل هذه الثورات لا تكون ذات نتائج عظيمة الا اذا صدرت عن استياء عام وآمال كبيرة .

والاستياء اذا لم يكن عاماً شديداً فانه لا يكفي لاحداث الثورات فمن الأمور السهلة ان تحرض شرذمة من الناس على النهب والهدم والقتل ولكنه يجب في تحريك جميع الأمة او أكثريتها ان يبالغ الزعماء في تهويل الاستياء وان يقنعوا الساخطين بأن الحكومة هي سبب جميع الحوادث المكدرة ولاسيما العوز والغلاء وان عصر السعاده سينبثق من خلال النظام الجديد الذى يقترحونه تتأصل هذه الأفكار في النفوس وتنتشر بالتلقين والعدوى فيحل الوقت الذى تنضج فيه الثورة .

على هذه الصورة تهيأت الثورة المسيحية والثورة الفرنساوية وإذا كانت الأخيرة وقعت في اعوام قليلة وتطلب وقوع الأولى اعواماً كثيرة فذلك لأن الثورة الفرنساوية لم تلبث ان دعمها الجيش مع ان الثورة المسيحية لم تنل قوة مادية الا بعد زمن طويل، والاصاغر والسفلة والعبدان هم الذين كانوا في البداية أنصارها . وهنا سرت العدوى من العوام الى الخواص ثم أنتشر هذا المذهب بين عليـة القوم . وبعد أن مضى زمن طويل رأى احد الأمبراطرة ان الوقت الذي يُتخذ فيه الايمان الجديد ديناً رسمياً قد حان .

٤ — نتائج الثورات السياسية

عندما يتغلب حزب من الاحزاب يسعى في تنظيم المجتمع كما

تقتضيه مصالحه ، ويختلف هذا التنظيم باختلاف القائمين بالثورة فيكون إما عسكريا او محافظاً او متطرفاً ، وتُسن القوانين والأنظمة الجديدة بحسب منافع الحزب الغالب والطبقات التي تساعده على الغلبة كطبقة الاكليروس مثلاً . وبعد ان يتم النصر للغالبين بعد مصارعات عنيفة — وذلك كما وقع ايام الثورة الفرنساوية — فانهم يقوضون بنيان الحقوق القديمة دفعة واحدة ويضطهدون انصار النظام الساقط ويخرجونهم من ديارهم ويبيدونهم .

ويبلغ التعذيب منتهاه اذا كان الحزب الغالب يدافع عن معتقد عدا دفاعه عن منافعه المادية فلا تشمل المغلوب حينئذ رحمة وهذا هو سر إجلاء العرب من الاندلس وقضاء محكمة التفتيش على الخوارج بالحرق وكثرة الحكم بالقتل في دور العهد وسن القوانين الحديثة ضد اليسوعيين .

تسوق هذه القوة المطلقة الغالب أحياناً الى القيام باعمال جائرة فيأمر ان يقوم الورق مقام الذهب وان تباع السلع بأثمان يحددها حسب مايرى، إلا أنه لايلبث ان يصطدم بحصن الضرورات المقدر الذي يحول الراى العام ضد استبداده ويجعله أعزل أمام الغارات وذلك كما حدث في أواخر الثورة الفرنساوية وكما حصل لوزارة اشتراكية اوسترالية مركبة من العمال . وضعت هذه الوزارة قوانين

عقيمة ومنحت المنتسبين الى النقابات امتيازات اوجبت قيام الرأى العام ضدها فسقطت في ثلاثة اشهر .

والأحوال المذكورة استثنائية فأكثر الثورات وقعت ليجلس على العرش ملك جديد . يعلم هذا الملك ان استمرار حكمه لا يكون بتقديمه طبقة على الأخرى بل يتوقف على اجتذاب جميع الطبقات ولا ينال ذلك إلا إذا وازن بينها لكيلا تتغلب عليه إحداها فاذا ساعد على تفوق طبقة دون الأخرى فان هذه الطبقة لا تلبث ان تصبح سيدة عليه . وهذه سنة من أصح سنن روح السياسة ، وقد علم بها ملوك فرنسا عندما كانوا يكافحون تطاول الأشراف في البداية ثم الاكليروس من بعدهم . ولولا ذلك لكان نصيبهم كنصيب امبراطرة الألمان في القرون الوسطى الذين كانوا يضطرون ، كما فعل الامبراطور هنري الرابع ، الى زيارة البابوات ليطلبوا العفو والمغفرة بتذلل وقتما كانوا يحرمونهم .

وقد ثبتت صحة هذه السنة في جميع ادوار التاريخ فعندما تفوقت طبقة الجند في اواخر الدولة الرومانية اصبح الأمبراطرة تحت إمرة جنودهم فصار هؤلاء يرفعونهم على العرش او ينزلونهم حسبما يريدون .

إذاً فمن حظ فرنسا الحسن ان ظل على رأسها زمناً طويلا ملوك

مطلقون مدعون أن سلطانهم مستمد من الله ، ولولا هذا السلطان لما استطاعوا ان يقبضوا على زمام الأشراف والأكليروس والبرلمان ولو كان على رأس بولونيا في أواخر القرن السادس عشر ملوك مطلقون محترمون مثل ملوك فرنسا لما هبطت الى منحدر الانقراض الذي اوجد غيابها عن خارطة اوروبا .

بينا في هذا الفصل ان من الممكنات ان ينشأ عن الثورات السياسية انقلابات اجتماعية عظيمة الشأن وسنرى عما قليل ان هذه الانقلابات ضعيفة إذا قيس بينها وبين ماينشأ عن الثورات الدينية من الانقلابات

الفصل الثالث

— الثورات الدينية —

١ — في أن البحث عن الثورات الدينية ينفع في الوقوف على الثورات السياسية الكبيرة

سنخصص جزءاً من هذا الكتاب للبحث عن الثورة الفرنساوية الحافلة بمظالم ناشئة عن اسباب نفسية .

ان هذه الحوادث المستثناة تفعم القلوب حيرة وتلوح للناظر أنها غامضة غير ممكن ايضاحها ، على أن ادراكها يكون ممكناً إذا اعتبرنا الثورة الفرنساوية ديناً جديداً تابعاً لنواميس انتشار جميع المعتقدات ، إذ يسهل وقتئذ الوقوف على سر ما اقترف فيها من القسوة والذبح .

سوف نرى عندما نبحث عن ثورة الاصلاح الديني الكبرى ان ماشوهد في أيامها من الاحوال النفسية شوهد مثله في ايام الثورة الفرنساوية فقد لوحظ في هاتين الثورتين أن شأن العقل ضئيل في انتشار المعتقد وأن الاضطهادات عديمة التأثير وأن التسامح بين المعتقدات المتباينة مستحيل وان اشد القساوات والملاحم تصدر عن تصادم العقائد المختلفة وانه يستحيل تحويل الناس عن عقيدتهم قبل

تحويل كيانهم .

وبعدان يثبت عندنا جميع ذلك ندرك علة انتشار انجيل الثورة الفرنساوية على الطرق التي انتشرت بها جميع الاناجيل الدينية الاخرى ولا سيما انجيل (كالفان) .

واذا وجد شبه شديد بين تكوين الثورات الدينية كثورة الاصلاح الديني وبين تكوين الثورات السياسية كالثورة الفرنساوية فانه يوجد فرق ظاهر بين نتائجهما . وهذا يوضح لنا السر في تفاوت دوامها . لا يوجد في الثورات الدينية اية تجربة تثبت للمؤمنين انهم ضالون لأن ذلك يستدعي اطلاعهم على مافي اللوح المحفوظ واما الثورات السياسية فان التجربة لا تلبث ان تثبت مافي المذاهب السياسية من الخطأ والضلال فيضطر الناس حينئذ الى تركها . على هذه الصورة اضطر اشد اليعاقبة تعصباً الى العدول عن طريقتهم عند مارأوا في أواخر عهد (الديركتوار) ان تطبيق المعتقدات اليعقوبية اوجب اشراف فرنسا على الخراب والشقاء والقنوط ولم يدم من نظر يأتهم سوى بضعة مبادىء يصعب تحقيق أمرها بالتجربة كمبدأ السعادة العامة القائل بأن المساواة هي أساس السعادة بين الناس .

. .

٢ – اوائل الاصلاح الديني وانصاره الأولون

انتهت ثورة الاصلاح الديني بعد تأثيرها كثيراً في عواطف الناس ومبادئهم الأدبية وهذه الثورة الصغيرة الشأن في بدايتها كانت عبارة عن توجيه سهام النقد ضد سوء تصرف الأكليروس وعن دعوة الناس للعودة الى العمل بما تقتضيه نصوص الانجيل لا كما يدعون بأنها رمت الى حرية الفكر . فكان كالفان عديم التسامح كرو بسبيير وكان النظاريون وقتئذٍ يقولون بأنه يجب على الرعية أن تتدين بدين ملوكها . وهذا ما وقع فعلاً ففي جميع الممالك التي عمها الاصلاح الديني حل الملوك مكان البابا حقوقاً وسلطاناً.

انتشر الايمان الجديد ببطء في فرنسا بادىء الأمر لعدم علانيته وفقدان وسائل إذاعته فلم ينضم الى لوثر حوالى عام ١٥٢٠ سوى بضعة اشخاص ولكن لما كثر انصاره حوالي عام ١٥٣٥ رؤي أن احراقهم امر ضروري.

سهل الاضطهاد انتشار الاصلاح الديني تبعاً للسنة النفسية المعروفة وكان أول المؤمنين به القساوسة والقضاة واهل الحرف وقد تم اهتداء جميعهم بالعدوى النفسية والتلقين.

ومن المشهود أنه عندما يشيع معتقد جديد بين الناس يلتف حوله رجال لا يهمهم من أمره سوى أنهم يرون فيه وسيلة لارضاء

شهواتهم ورغائبهم، وقد لوحظ ذلك ايام الاصلاح الديني في بلدان كثيرة ولاسيما في المانيا وانكلترا . فلما قال لوثر ان لاحاجة للاكليروس في المال وجد امراء ألمانيا ان ديناً يعدهم بالاستيلاء على أموال الكنيسة لدين طيب نافع ، وعلى مثل هذه الطريقة اغتنى هنري الثامن .

وفي الغالب لاينظر الملوك — الذين سئموا من البابوات — الى مذهب يجمع في قبضتهم السلطة الدينية والسلطة السياسية معاً الا بعين الرضى . ولهذا فان الاصلاح الديني لم يقلل من استبداد الرؤساء بل زاده .

٣ — فيما لمذاهب الاصلاح الديني من القيمة العقلية

قلب الاصلاح الديني اوروبا وكاد يدمر فرنسا بتحويله اياها مدة خمسين عاماً الى ساحة حرب . وما أتى به من النتائج العظيمة لم يأت بمثلها اي حادث يعادله من حيث قلة قيمته العقلية .

ان الأدلة الدالة على ان المعتقدات تنتشر مستقلة عن العقل كثيرة وما أقام النفوس واقعدها من المذاهب اللاهوتية ايام الاصلاح الديني ولاسيما مذهب كالفان لايستحق ان يبحث عنه من جهة المنطق العقلي .

فلوثر الذي عني بأمر سعادته الابدية وخاف من الشيطان

خوفاً لم يقدر كاهنه المعرف على إزالته كان يبحث عن انجع الوسائل التي يسترضي بها الله ليتقي جحيمه ، وبعد ان شرع بانكار حق البابا في بيع المغفرة رفض ماله ولكنيسته من السلطان رفضاً تاماً وأنحى على الطقوس الدينية والاعتراف وعبادة القديسين باللائمة وصرح بأنه لايجوز للنصارى ان يتبعوا غير ماجاء في التوراة من القواعد وعدا ذلك فقد اعتبر أن النجاة الأبدية لا تكون الا بفضل الله وكرمه . ولم يجدد لوثر هذه النظرية الأخيرة المسماة بنظرية المشيئة الأزلية تجديداً تاماً وقد عرفها كالفان اكثر منه فجعلها أساسا لمذهب لايزال اكثر البروتستان تابعين له . وعنده « ان الله اختار من الأزل اناساً للاحراق وآخرين للنجاة » وكان جوابه وقتما سئل عن علة هذا الظلم الفادح « ان الله اراد ذلك » . وهكذا رأى كالفان — الذي لم يفعل سوى ايضاح مزاعم القديس اوغوستان — ان الله القادر على كل شيء يلتهي بخلق اناس ليكونوا خالدين في النار غير مبال بافعالهم وفضائلهم . ومما يوجب العجب ان تستولي هذه الغباوة الفكرية على النفوس زمناً طويلا وان تظل مستحوذة على كثير من الناس حتى الآن .

يوجد شبه بين نفسية كالفان و روبسبيير فكان الأول كالثاني استاذاً غير متردد في قتل من لم يكن على مذهبه . وكان يقول

« ان الله يريد ان تطرح الرأفة والانسانية جانباً عند الجهاد في سبيله »

ونستدل من حالة كالفان وانصاره ان اكثر الامور تناقضاً تلتام في ادمغة المسحورين بمعتقد، فيستحيل من حيث المنطق العقلي ان تثبت اخلاق على مبدأ « المشيئة الازلية » لان الناس حسبما تقتضيه هذه النظرية إما ناجون او معذبون مهما كانت افعالهم. ومع ذلك فان كالفان لم يلق صعوبة في ابداع اخلاق قويمة قائمة على اساس غير منطقي. ولما عد اشياعه انفسهم من الاصفياء المختارين عند الله بلغت فيهم العجرفة والكبرياء مبلغاً جعلهم يرون انفسهم قدوة صالحة.

٤ — انتشار الاصلاح الديني

لم ينتشر هذا الايمان بالخطب والبراهين العقلية بل بالعناصر التي بحثنا عنها في كتابنا السابق اى بالتوكيد والتكرار والعدوى النفسية والنفوذ وقد انتشرت الافكار الثورية بعد ذلك في فرنسا على هذه الطريقة ايضاً.

ساعد الاضطهاد على هذا الانتشار إذ نتج عن كل قتل اعتناق للمذهب الجديد فسار اندنبرغ القاضي المحكوم عليه بالاحراق الى الموقد وهو يحث الجماعة على الاهتداء. وقد قال احد الرواة ان جلده وصبره اوجب ازدياد عدد البروتستان بين طلاب المدارس اكثر من كتب كالفان.

كانت تقطع السنة المحكوم عليهم بالحرق خوفاً من مخاطبة القوم وقد زاد التعذيب هولاً تقييد الضحايا بسلاسل من حديد لادخالهم في الموقد واخراجهم منه مرات عديدة

وكل ذلك لم يثن البروتستان عن مذهبهم الجديد مع انهم كانوا يوعدون بالعفو بعد ان تمسهم النار .

ولما عدل فرنسوا الأول عن تسامحه عام ١٥٣٥ أمر باضرام ستة مواقد في باريس وقد اكتفى رجال العهد بمقصلة واحدة في هذه المدينة كما هو معلوم . ويحتمل ان العذاب ليس عند المؤمنين اليماً إذ شوهد عدم شعور شهداء المسيحية به لتنويمه اياهم . ومن المسائل المعروفة في الوقت الحاضر ان بعض طرق التنويم تبطل الاحساس تماماً .

كان انتشار ذلك الايمان سريعاً فأصلحت عام ١٥٦٠ في فرنسا ٢٠٠٠ كنيسة واعتنقه كثير من الأمراء الذين كانوا في بادئ الأمر لا يبالون به الا قليلا .

٥ — في تصادم المعتقدات الدينية وفي استحالة التسامح

ذكرت مراراً ان عدم التسامح يلازم المعتقدات القوية والثورات الدينية والسياسية الدالة على ذلك كثيرة . اثبتت هذه

الثورات ان عدم التسامح بين انصار المعتقدات المتقاربة يكون اشد منه بين انصار المعتقدات المتباعدة كالاسلام والنصرانية مثلاً ، فإذا نظرنا الى المعتقدات التي شطرت فرنسا زمناً طويلاً نرى انها لا يختلف بعضها عن بعض الا في الأمور الثانوية . فأله الكاثوليكي والبروتستاني واحد ولا يختلفان إلا في كيفية عبادته . ولو كان للعقل شأن ولو ضئيل في صوغ معتقدهما لاراهما ان الله لا يبالي بالصورة التي يُعبد بها .

ولما كان العقل غير مؤثر في دماغ المؤمنين استمر البروتستان والكاثوليك على الاقتتال بقسوة وما أتى به الملوك من السعي في التأليف بينهما ذهب ادراج الرياح ، وقد ذهب عن بال (كاترينا دومديسيس) ان التسامح وان امكن بين الافراد فانه لا يكون بين الجموع . فعند ما جمعت علماء الكلام خاضوا غمار النصوص والمشاتم من دون ان يزغ احد منهم عن عقيدته ، ثم رأت عام ١٥٦٢ ان نشرها مرسوماً تمنح البروتستان فيه حق الاجتماع والعبادة جهراً اقرب الى النجاح .

لم يأت هذ التسامح الحسن فلسفياً والسيء سياسياً بغير ايغار صدر الحزبين فاضطهد البروتستان الاقوياء في جنوب فرنسا الكاثوليك وسعوا في تحويلهم عن عقيدتهم قهراً وكانوا يذبحونهم

في فرنسا هو أمر لم يصبر عليه كهنة الكاثوليك اخذوا في اضطهادهم فاعتمد لويس الرابع عشر عام ١٦٨٥ على فرسانه في قتل كثير منهم ولما لم يجد ذلك نفعاً ضغط عليه الاكليروس ولا سيما (بوسويه) فألغى مرسوم (نانت) وارغم البروتستان إما على تبديل مذهبهم او على ترك بلاد فرنسا

استمرت هذه الهجرة طويلاً وخسرت فرنسا من أجلها اربعمئة ألف رجل كريم اصغوا الى نداء ضميرهم اكثر من إصغائهم الى منافعهم الذاتية .

٦ — نتائج الثورات الدينية

يعتبر المرؤ الثورات الدينية أمراً سيئاً إذا ظن أن تاريخها يشبه تاريخ ثورة الاصلاح الديني ، والواقع ان شأنها كلها ليس كذلك فقد كان تأثير الكثير منها في تهذيب الناس وتقويم نفوسهم عظيماً جداً ، إذ هي بمنحها الشعب وحدة أدبية تزيد في قوته المادية كثيراً وقد شوهد ذلك لما حول محمد (صلى الله عليه وسلم) بما أتى به من الايمان قبائل العرب الضعيفة الى أمة مخيفة .

وليس أمر المعتقد الديني الجديد مقتصراً على جعل الأمة متجانسة بل يأتي بما يتعذر على أي فيلسوف او قانون ان يأتي بمثله اي أنه يغير عواطف الأمة الثابتة .

لقد لوحظ ذلك وقتما قضت اكبر ثورة تاريخية على الوثنية وأقامت مكانها عبادة إله جاء من سهول بلاد الجليل . دعى هذا الخيال الجديد الناس الى العدول عن كل نعيم في هذه الحياة ليكونوا خالدين في ملكوت السموات ، نعم انه لما يقبله بسهولة الارقاء والبائسون والمحرومون من طيب العيش لوعده إياهم بمستقبل جاذب بدلاً عن حياة بلا امل ، إلا ان حياة الزهد والتقشف التي هانت على الفقراء هانت ايضاً على الأغنياء ، وهذا يثبت لنا ما للأيمان الجديد من السلطان على النفوس .

لم تقتصر الثورة النصرانية على تحويل العادات بل اثرت تأثيراً عظيماً في سير الحضارة مدة الفي سنة ، إذ متى يتم النصر لمعتقد ديني تلتأم معه جميع عناصر الحضارة التآمأ ينشأ عنه تحولها ولا يفعل الكتاب ورجال الأدب والفن والفلاسفة وقتئذٍ غير الاشارة الى ذلك المعتقد الجديد في تآليفهم .

وعند ما ينتصر الأيمان سواء اكان دينياً ام سياسياً فأن العقل لا يؤثر فيه ويجد دائماً عللاً ليزكيه بها ، ولربما كان ايام (مولوخ) خطباء وعلماء كلام يثبتون ما في القرابين البشرية من الفوائد كعدد من ظهر في الأزمنة الأخرى من الخطباء وعلماء الكلام ليمجدوا محاكم التفتيش وملحمة السان بارتلمي ومذابح دور العهد

لايسود التسامح عند الأمم ذات المعتقدات القوية فالأمم المشركة هي التي كانت متساهلة في القرون القديمة وكذلك نرى في العصور الأخيرة ان الأمم المتسامحة هي التي يمكن نعتها بأمم ذات ارباب متعددة ، فهي كالانكليز والاميركيين مقسومة الى فرق دينية كثيرة وتعبد آلهة مختلفة مسماة بأسماء واحدة . إلا أن تعدد المعتقدات الموجب لتسامحها ينتهي أمره باضعافها . وهنا نرى أنفسنا أزاء مسألة نفسية لم تحل حتى الآن وهي : حيازة معتقد قوي ومتسامح معاً .

ظهر لنا من البيان الوجيز السابق ما للثورات الدينية من الشأن العظيم وما للمعتقدات من السلطان الكبير على النفوس فهي التي تقود التاريخ رغم قلة قيمتها العقلية وهي التي تقي الأمم من أن تكون اشخاصاً ضعفاء لا تربطهم اية رابطة وقد احتاج الانسان اليها في كل جيل ليوجه افكاره نحو مطلب وما استطاعت اية فلسفة ان تحل مكانها حتى الآن .

الفصل الثالث

شأن الحكومات في الثورات

١ — ضعف مقاومة الحكومات في الثورات

عانى كثير من الأمم الحديثة كفرنسا واسبانيا وبلجيكا وايطاليا والنمسا وبولونيا واليابان وتركيا والبرتغال أمر الثورات. وتوصف هذه الثورات في الغالب بحدوثها فجأة وبسهولة قلبها الحكومات التي قامت ضدها.

وسبب حدوثها فجأة هو سرعة العدوى النفسية الناشئة عن طرق النشر والاذاعة في الوقت الحاضر. ومما يستوجب العجب ضعف مقاومة الحكومات إذ يدل على عجزها التام عن الاطلاع على دخائل الأمور وكشف عواقبها.

لم يكن اسقاط الحكومات بسهولة أمراً حديثاً فقد شوهد اكثر من مرة ان حكومات قلبت بسهولة منذ زمن بعيد ومنها ما هي استبدادية اسقطتها موآمرات البلاط الملكي ومنها ما هي مطلعة على الرأي العام بواسطة الصحافة وبواسطة موظفيها.

ومن الأمثلة البارزة على هذا السقوط الفجائي ما وقع بعد

نشر مراسيم شارل العاشر الذي خلع في اربعة أيام كما هو معلوم . لم يتخذ وزيره (بولينياك) اية وسيله للدفاع عنه وقد بلغ اعتقاد الملك بهدوء باريس مبلغاً جعله يذهب للصيد . ولم يكن الجيش غير راضٍ عنه كما في أيام لويس السادس عشر إلا أن قيادته كانت سيئة ولذلك تشتت أمام غارات عصاة قليلين .

واسقاط ثورة صغيرة للويس فيليب أدعى للعجب لأنه لم ينشأ عن استبداد قام به . عزى المؤرخون — الذين لا يقولون بان من الممكنات ان يتم سقوط حكومة منظمة يدعمها جيش كبير على يد نفر من العصاة — سقوط لويس فيليب الى اسباب عميقة . وعندنا ان عجز قواده عن الدفاع عنه قد أوجد سقوطه .

وان هذا الحادث لمن اكبر الأمثلة فائدة . إذ وجد في باريس جيش مركب من ٣٦٠٠٠ مقاتل اوجب عجز القادة وضعفهم عدم الانتفاع به . فلما اكثروا من الأوامر المتناقضة ونهوا الجيش عن ضرب القوم اختلطت الجموع بالجنود فتم النصر للثورة من غير كفاح واضطر الملك الى التنزل عن العرش .

اشار الجنرال بونال — بتطبيقه الجائنا في روح الجماعات على الحادث المذكور — الى انه كان من الممكن اخماد الفتنة التي اوجبت سقوط لويس فيليب فبين انه لو بقي شيء في رؤوس القواد من

العقل لاستطاعت ثلة من الجيش ان تردع العصاة عن الاستيلاء على مجلس النواب ولنادى هؤلاء النواب الذين كانوا من انصار الملكية بـ (كونت دوباري) ملكاً ولجعلوا أمه نائبة عنه .

يثبت لنا ذلك ما للعوارض الصغيرة الثانوية من الشأن في تكوين الحوادث العظيمة ويجعلنا ان لا نطنب في بيان سنن التاريخ العامة . فلولا الفتنة الصغيرة التي اسقطت لويس فيليب لما قامت الجمهورية عام ١٨٤٨ ولا الامبراطورية الثانية ولما حدثت واقعة (سيدان) ولما أغار الاجنبي ولما أضعنا الألزاس على ما يحتمل .

لم يمد الجيش في الثورات التي ذكرتها يد المعونة للحكومات ولم يقم بوجهها . وربما وقع خلاف ذلك فالجيش هو الذي قام بالثورات في البرتغال وتركيا وعلى يده تتم الثورات العديدة في الجمهوريات اللاتينية الأميركية .

وإذا أتى الجيش بالثورة يقع القائمون بأمور الدولة تحت إبرته وقد وقع ذلك في أواخر الدولة الرومانية عند ما كان الجنود هم الذين يسقطون الامبراطرة .

لا تتم الثورة بغير معاضدة الجيش او بمحايدته على القليل غير أنها تبدأ في الغالب من غير ان يكون له دخل فيها . فهكذا اشتعلت ثورة عام ١٨٣٠ وثورة عام ١٨٤٨ ثم ثورة عام ١٨٧٠ التي قلبت

الامبراطورية عند ما أحسّ الناس في فرنسا بالعصار الذي لحقهم من جراء تسليم مدينة (سيدان).

تقع اكثر الثورات في العواصم ومنها تنتشر بالعدوى في جميع البلاد ولكن ذلك ليس بقاعدة ثابتة فمن الأمور المعلومة أن أهل (فاندە) و[بريتانيا] والقسم الجنوبي قد ثاروا بغريزتهم باريس ايام الثورة الفرنساوية الكبرى.

٢ — كيف تؤدي مقاومة الحكومات الى انتصارها على الثورات

ظهر لنا من اكثر الثورات التي ذكرناها سابقاً ان الحكومات تتدهور لضعفها عند ما تمس، غير أن الثورة الروسية السابقة اثبتت لنا إمكان تمام النصر للحكومة إذا دافعت عن نفسها بصرامة.

لم توجد ثورة اكثر خطراً على أية حكومة من هذه الثورة فبعد ما كسرت روسيا في الشرق الأقصى واحس الناس بشدة النظام الاستبدادي تمردت جميع الطبقات الاجتماعية ومنها جزؤ من الجيش والاسطول واعتصب موظفوا الخطوط الحديدية والبريد والبرق فانقطعت وسائل النقل والمراسلة بين اجزاء تلك الأمبراطورية العظيمة.

ثم اخذت الدعوة الثورية تشيع بين طبقة الفلاحين الذين هم اكثرية الأمة الروسية. كان هؤلاء يعيشون عيشة بؤس وشقاء

لأكراههم — كما يقتضيه نظام (ميز) - على الفلاحة من غير ان تكون الغلة لهم فعزمت الحكومة على إرضائهم بتحويلهم الى ملاك فوضعت توانين أرغمت بها سادتهم على بيعهم جزءً من اطيانهم وانشأت مصارف لتقرضهم مالاً يؤدون به ثمن مايشترونه من الاطيان على ان تؤدى المبالغ المقترضة اقساطاً سنوية من المحاصيل .

استطاعت الحكومة الروسية بعد ان حصلت بهذه الطريقة على محايدة الفلاحين ان تقاتل بلا رحمة العصاة المتعصبين الذين كانوا يحرقون المدن ويلقون القنابل بين الجماعات فأبادت من قبضت عليه سائرة على السنة المتبعة منذ القديم لحفظ المجتمع من الثائرين الذين يودون نقضه .

ثم شعرت الحكومة الروسية التي خرجت من هذه المعامع ظافرة بضرورة إجابة فريق الأمة المهذب الى مطاليبه المشروعة فأوجدت مجلساً تشريعياً يسن القوانين ويراقب النفقات

يثبت لنا تاريخ الثورة الروسية كيف أن حكومة تداعت جميع اركانها الطبيعية قد استطاعت بثباتها ودرايتها ان تتغلب على اشد المصاعب ، ولذلك اصاب من قال : « ان الحكومات لا تُقلب بل هي تنتحر » .

*

* *

٣ – ثورات الحكومات

مثال تركيا والصين ... الخ

تقاتل الحكومات الثورات عادة ولا تأتي بها غير ان بعض الحكومات حاولت ان تقوم باصلاحات فجائية جديرة بان تدعى بالثورات وما اتصفت به الروح القومية من الثبات او التقلب يوضح لنا سبب نجاح هذه الحكومات او فشلها في مساعيها .

تنجح الحكومة عندما تكون الأمة التي تود ان تلزمها بنظامات جديدة عبارة عن قبائل متوحشة ليس عندها قوانين ثابتة وتقاليد راسخة اي خالية من روح قومية قوية . مثال ذلك روسيا في عصر بطرس الأكبر الذي حاول ان يفرنج الروس المشابهين للآسيويين .

واليابان مثال آخر للثورات التي قامت بها الحكومات ولكن طرقها الفنية هي التي تغيرت لا روحها القومية .

ويتطلب النجاح في تلك المساعي وجود ملك مستبد قوي ذي دهاء مضاعف . لان الملك المصلح يرى جميع الامة قامت في وجهه فيكون وقتئذ هو الثوري وهي المحافظة خلافاً لما يقع عادة .

ان الفشل في تلك الثورات هو القاعدة سواء أكان القائمون بها من علية القوم او من سفلتهم . فروح الأمة الراسخة منذ زمن

طويل لا تتبدل وانما التي تتحول هي أمور ابلاها الزمان واصبحت على اهبة السقوط .

قامت الصين في الوقت الحاضر بتجربة دلتنا على انه من المستحيل ان تجدد حكومة نظامات الامة فجأة ، فالثورة التي اشتعلت فيها واسقطت العائلة المالكة هي نتيجة استياء الشعب من الاصلاحات التي ارادت الحكومة الصينية ان تلزمه بها لتحسن حالة البلاد ، وقد اوجب تحريم الافيون ولعب القمار واصلاح الجيش وفتح المدارس فيها ان زيدت الضرائب تزييداً اقلق الراي العام كالاصلاحات ذاتها .

فاستفاد من هذا السخط بضعة صينيين درسوا في المدارس الاوروبية فحرضوا الشعب على الثورة ليعلن النظام الجمهوري الذي لايفقه اي صيني من أمره شيئاً .

ولا يستطيع ان يدوم طويلاً لان الباعث الذى اوجده لم يكن باعث تقدم بل باعث رجعياً . فكلمة جمهورية عند الصيني الذى تخرج على الطريقة الاوروبية هي مرادفة لكلمة التحرير من الخضوع للقوانين والانظمة ومن سلطان التقاليد . وهو يظن بقصه ضفيرته وبوضعه خوذة على رأسه و بمناداته بالجمهورية أنه يستطيع ان يرخي لشهوات نفسه أعنتها .

وستري الصين قريباً ماذا يكون أمر بنيانها الجديد الذي لم يقم على أساسات الماضي، ولما كان العلم لم يكتشف بعد عصا السحر القادر على إبقاء مجتمع بلا نظام فستضطر الصين بعد ان تغوص بضع سنين في بحار الفوضى الدامية الى الاعتصام بسلطة مستبدة اشد من السلطة التي قلبتها. إذ لاحاجة لألزام الناس بالنظام اذا كان إرثياً وأما إذا هدمت الشهوات الأنظمة التي أقامها الأجداد فلا يتجدد بناؤها الا باستبداد صارم.

وقامت تركيا أخيراً كالصين بتجربة يمكن ان تكون دليلاً على صحة مابيناه، فقد استطاع منذ بضعة أعوام شبان درسوا في مدارس اوروبية ان يخلعوا السلطان الذي اصبح استبداده لايطاق وأعانهم على ذلك كثير من الضباط ظانين بانهم قادرون على تأسيس نظام نيابي في بلاد متأخرة ذات أديان مختلفة مثل بلادهم.

لم يقوموا حتى الآن بعمل مشكور فقد رأوا — رغم تمذهبهم بالحرية — أنهم مضطرون الى حكم البلاد بأساليب قريبة من أساليب العهد الذي قضوا عليه.

ولايجوز ان يُلاموا على ذلك، فماذا يفعلون في تحويل أمة ذات تقاليد قديمة راسخة وذات عواطف دينية قوية؟ وكيف يمكن ان لا يبقى الاسلام دين الدولة الرسمي في بلاد اتحد فيها الشرع

المدني مع الشرع الديني وقام فيها المبدأ الوطني على الايمان بالقرآن؟ انه ليصعب هدم ذلك ، ولهذا رجعت تركيا الى نظام استبدادي ذو مسحة دستورية كنظامها السابق .

ومن مثل هذه التجارب يتكون مثال بارز يستشهد به في القول بانه يستحيل على الامة ان تختار نظاماتها قبل ان تغير روحها .

٤ — في ما يبقى من العناصر الاجتماعية بعد أن تقلب الثورات الحكومات

ان ماسنقوله عن رسوخ الروح القومية يطلعنا على ماللنظامات التي تأسست منذ زمن بعيد من القوة كنظام الملكية السابق ، يسهل على المتآمرين ان يخلعوا الملك ولكنهم يعجزون عن فعل شيء إزاء المبادىء التي يمثلها الملك . فلما سقط نابليون لم يحل مكانه وارثه الطبيعي الممثل لمبادىء غير ثابتة في النفوس بل ورثه ابن الملوك الممثل لمبدأ قديم .

ولمثل هذا السبب نرى أن الوزير مهما كان ماهراً ومهما خدم بلاده لايستطيع ان يخلع ملكه الا نادراً . ولو أراد بسمارك فعل ذلك لما استطاع ، مع انه كفى لاسقاط هذا الوزير الكبير الذى صنع الوحدة الألمانية وحده اشارة صغيرة من سيده .

على أننا إذا فرضنا انه يوجد اسباب مختلفة اوجبت تلاشي الحكومة مع تلاشي المبدأ الذي تمثله — وذلك كما وقع ايام الثورة الفرنساوية — فان جميع العناصر التي يتكون منها نظام المجتمع لا تزول في الوقت ذاته . فلو اقتصر مانعلمه عن فرنسا على ماوقع فيها من الانقلابات منذ عصر لقلنا انها عائشة في فوضى عميقة . والواقع انها تبدو للناظر ذات حياة اقتصادية وصناعية وسياسية مستمرة مستقلة عن جميع الانقلابات وجميع الأنظمة .

يوجد بجانب الحوادث العظيمة التي يهتم لها التاريخ امور صغيرة خاصة بالحياة اليومية ولا تعبأ الكتب بذكرها وهي تابعة لضرورات مهيمنة لا تقف أبداً ويتكون من مجموعها لحمة حياة الأمة فمع ان درس الحوادث العظيمة يرينا ان حكومة فرنسا الاسمية تبدلت كثيراً منذ قرن فان البحث عن الحوادث اليومية الصغيرة يثبت لنا بالعكس ان حكومتها الحقيقية تحولت قليلاً .

إذاً فمن هم قادة الامة الحقيقيون ؟ لا ريب انهم الملوك والوزراء في الظروف العظيمة ولكن لا شأن لهؤلاء في الأمور الصغيرة المكونة للحياة اليومية . فالقوى الحقيقية التي تسير البلاد هي عناصر الادارة غير الشخصية التي لا يؤثر فيها ما ينال نظام الحكم من التحولات . ولما كانت هذه الادارة ذات تقاليد محافظة فانها تتصف

بالديمومة والخفاء، وهي بهذه التقاليد ذات قوة تنحني امامها جميع القوى الاخرى، وقد بلغ تأثيرها مبلغاً اوشكت ان تشكل به دولة خفية اقوى من الدولة الرسمية وسنوضح ذلك في هذا الكتاب

الفصل الرابع

شأن الأمة في الثورات

١ — متانة روح الأمة ومرونتها

يستلزم الاطلاع على احوال احدى الأمم الوقوف على بيئة تلك الامة ولا سيما على ماضيها ، نعم يمكن نظرياً إنكار هذا الماضي ، — وذلك كما فعل رجال الثورة الفرنساوية وكثير من المشتغلين بالسياسة في الوقت الحاضر — ولكن تأثيره لا يفنى .

تتكون في الماضي الذي هو كناية عن تعاقب الأجيال عناصر روح الامة من افكار ومشاعر وتقاليد واوهام ولا رقي بغيرها إذ لولاها لأضطر كل جيل الى استئناف العمل .

ولا ترسخ العناصر التي تتكون منها روح الامة الا إذا كانت حائزة على شيء من المتانة على ان لا تتجاوز هذه المتانة حداً تصبح به مرونة تلك الروح مستحيلة . فالروح الارثية بلا متانة تكون مذبذبة غير مستقرة وبلا مرونة تكون عاجزة عن الالتآم مع تقلبات البيئة الناشئة عن تقدم الحضارة .

شدة المرونة في روح الامة تسوقها الى القيام بثورات متوالية

وشدة المتانة تقودها الى الانقراض . فذوات الحياة ومنها الاجناس البشرية تضمحل اذا ظلت متينة رغم تعاقب الزمان عاجزة عن الالتآم مع ما يطرأ على الحياة من الاحوال الجديدة .

والامم التي وازنت بين هاتين الصفتين المتناقضتين — اي المتانة والمرونة — قليل عددها ونذكر من بينها الرومان في القرون القديمة والانكليز في الوقت الحاضر .

وفي الغالب تأتي الامم التي رسخت روحها كثيراً بأشد الثورات لانها لما كانت عاجزة عن التطور التدريجي وعن الالتآم مع تقلبات البيئة فانها تضطر الى الالتآم معها بعنف عندما يصبح هذا الالتآم امراً ضرورياً .

ان ثبات روح الامة لا ينال الا بيطء عظيم وما تاريخ الامم إلا أنباء مجهوداتها الطويلة في سبيل توطيد روحها . وتظل هذه الامم متبربرة لا رابطة تصل بين اجزائها ولا قوة تدعمها ما دامت غير ناجحة بذلك . وقد سعت فرنسا بعد ان أغار البرابرة على الدولة الرومانية في أواخر عهدها عصوراً كثيرة لتنال روحاً قومية .

نعم إنها حصلت عليها في آخر الأمر ولكن رسوخها لم يلبث ان صار مفرطاً . ولو اتصفت بقليل من المرونة لتطور نظام الملكية القديم رويداً رويداً كما وقع في بلاد اخرى ولتخلصنا من ثورتنا

الكبرى ومن نتائجها ومن سعي اهظ لتجديد روحنا القومية.

تثبت لنا الملاحظات السابقة شأن العنصر في تكوين الانقلابات وتوضح لنا لماذا تأتي الثورة الواحدة بنتائج تختلف باختلاف الأمم كما توضح لنا سبب إقبال بعض الأمم بحماس على مبادئ الثورة الفرنساوية ومقاومة الأمم الأخرى لها.

لاريب ان انكلترا المحافظة قد عانت أمر ثورتين وتضت على أحد ملوكها ولكن قالب مزاجها النفسي كان ثابتاً ثباتاً يكفي لحفظ تراث الماضي ومرناً مرونة تكفي لتطور هذا المزاج حسبما تقتضيه الضرورة. وهي لم تفكر قط كما فعل رجال الثورة الفرنساوية في تقويض تراث الاجداد لتقيم مجتمعاً جديداً باسم العقل.

قال البيرصوريل: «بينما كان الفرنساوي يحتقر حكومته ويمقت اكليروسه ويحقد اشراف امته ويتمرد على قوانين بلاده كان الانكليزي يفتخر بدينه وبقانونه الاساسي وباكابرامته وبمجلس لوردانه فكأنه كان يحكم اوروبا ويستخف بها وهو معتصم تحت الراية البريطانية بأبراج ذلك الحصون المخيف. وهو وان جاز عنده ان يتنازع الناس القيادة في داخل بلاده فلا يرضى بان يقرب الاجنبي منها.»

ويتجلى لنا ايضا شأن العنصر في مصير الأمم عند البحث عن

تاريخ الثورات الأميركية الاسبانية الدائمة . إن الأمم الأميركية الاسبانية موحدة اي عبارة عن اناس تفككت عرى اخلاقهم بتأثير الوراثة المتباينة وقد حرمهم ذلك روحاً قومية ثابتة وجعل أمر حكمهم متعذراً .

ومن يرد ان يطلع بزيادة على التباين بين قابليات الامم السياسية الناشىء عن اختلاف العنصر فليبحث عن أمة واحدة حكمها جنسان .

ليس ذلك نادراً في التاريخ فقد تجلى حديثاً في قطري كوبا والفلبين اللذين وقعا تحت حكم الولايات المتحدة بعد الحكم الاسباني فنعلم درجة ماوصلت اليه كوبا تحت الحكم الاسباني من الفوضى والشقاء كما نعلم درجة ماوصلت اليه من العمران في بضع سنين تحت حكم الولايات المتحدة .

ووقع مثل ذلك في الفلبين التي حكمها ملوك اسبانيا عصوراً طويلة . كانت عاقبة ذلك الحكم ان اصبحت الفلبين كناية عن مستنقع واسع حافل بأنواع الاوبئة تعيش فيه أمة بائسة ليس عندها تجارة ولا صناعة . ولكن لم يمض على هذا القطر بعد وقوعه تحت الحكم الاميركي بضع سنين حتى تحول تحولاً تاماً فغابت عنه العفونة والحمى والطاعون والهواء الاصفر وجففت فيه البطائح ووصلت

بين اجزائه الخطوط الحديدية وأسست فيه المصانع والمدارس ونقص عدد وفياته في ثلاث عشرة سنة الى ثلث ما كانت عليه .

الى مثل هذه الأمثلة يجب رد النظر بين الذين لم يدركوا نافي كلمة العنصر من المعاني ولم يعقلوا ان روح الامة الموروثة هي المسيطرة على مصيرها .

٢ – كيف تتلقى الأمة الثورة

ان شأن الشعوب واحد في جميع الثورات فهي لا تدرك مغزاها ولا تدبر امرها وإنما الزعماء هم المحركون لها .

ولا يخلع الطاعة فريق من الامة بغريزته الا إذا مس الضر منافعه الصريحة وذلك كما وقع في (شامبانيا) حديثاً وتدعى هذه الحركة الموضعية بالعصيان البسيط .

يسهل وقوع الثورة إذا كان زعماؤها من أرباب النفوذ العظيم وأما مبادىء الثورة فلا تدخل في قلب الأمة الا رويداً رويداً . فالأمة ترضى بالثورة من غير ان تكون عالمة بسببها ومتى ساقها الحظ الى إدراك هذا السبب فان الثورة تكون قد انتهت منذ زمن طويل

وتقوم الأمة بالثورة لدفع الزعماء إياها وهي وان لم تدرك شيئاً يستحق الذكر من أفكارهم فانها تفسرها على شاكلتها وان خالف ذلك مبادئهم . مثال ذلك الثورة الفرنساوية . كانت غاية

هذه الثورة التي وقعت عام ١٧٨٩ ان يقبض على زمام الامور ابناء الطبقة الوسطى بدلاً من الأشراف اى أن يحل مكان نخبة قديمة اصبحت عاجزة : نخبة جديدة قادرة .

ولم ينظر إلى أمر الأمة في بداية الثورة المذكورة إلا قليلاً وهي وإن أعلنت سيادتها فان هذه السيادة كانت تفسر بحقها في انتخاب نوابها فقط .

ولما كانت الأمة جاهلة غير طامحة كابناء الطبقة الوسطى الى الارتقاء في السلم الاجتماعي وشاعرة بأنها بعيدة عن درجة الأشراف وغير طامعة في مساواتهم فان أغراضها ومنافعها كانت تختلف كثيراً عن أغراض علية القوم ومنافعهم .

وما وقع بين المجلس النيابي والملك من المنازعات اوجب مداخلة الشعب فيها مقداراً فمقداراً فأصبحت ثورة الطبقة الوسطى ثورة شعبية . وبما أن المبدأ لايكون قوياً مؤثراً الا إذا استند الى العاطفة وخلق التدين وجب على مبادي، الطبقة الوسطى النظرية لتؤثر في الشعب ان تتحول الى إيمان جديد واضح مشتق من المنافع العملية الظاهرة .

تم هذا التحول بسرعة عندما سمع الشعب الرجال الذين هم الحكومة في نظره يؤكدون له أنه مساوٍ لسادته السابقين فاعتبر

نفسه انه كان ضحية وشرع ينهب ويحرق ويقتل ظاناً انه يتصرف في حق له .

وهكذا صارت قوة المبادىء الثورية كناية عن منح ارباب الغرائز الفطرية الضارة التي ردعتها البيئة والتقاليد والقوانين منذ القديم حرية السير والعمل .

ولما أخذت جميع الزواجر الاجتماعية التي كانت تزجر عوام الأمة تتداعى يوماً فيوماً تصور هؤلاء ان قوتهم غير محدودة فصاروا يتلهون بمطاردة سادتهم القدماء وبسلبهم . وهل لاتجيز الأمة ان تفعل كل شيء بعد ان تصبح حاكمة ؟

لم تلبث الفاظ الحرية والمساواة والأخوة التي كانت عنواناً للايمان الجديد والآمال الجديدة عند بداية الثورة ان اخذت تبرر غرائز الطمع والحسد والحقد على الافضليات تلك الغرائز المحركة للجموع والتي لايزجرها اي نظام . وهذا ماجعل النظام يختل والظلم يسود والفوضى تعم في وقت قصير .

وبعد ان هبطت الثورة الفرنساوية من الطبقة الوسطى الى العوام تقلص ظل العقل وتغلبت عليه الغرائز . ان انتصار الغرائز الارثية لأسر مخيف وما ادت المجهودات التي قامت بها المجتمعات لاجل بقائها إلا الى زجر بعض الغرائز الحيوانية الموروثة . نعم يمكن

ردع هذه الغرائز ؛ وكلما تقدمت الامة في ميدان الحضارة يكون هذا الردع أتم وأكمل إلا انه يستحيل القضاء عليها . ولهذا فان تحرير الغرائز العامية مخطر كثيراً فمتى يفيض السيل لا يرجع الى مجراه قبل ان يخرب ما يصل اليه .

٣ — شأن الشعب في الثورات

تثبت لنا سنن روح الجماعات أن الامة لا تسير بلا زعماء ، وان عملها وإن كان عظيما في الثورات لاندفاعها فيما تحرّض اليه فانها لا تقود ما تنجزه من الحركات ابداً .

وللزعماء في كل ثورة سياسية تأثير ومع انهم لا يبتدعون المبادئ التي تستند اليها فانهم يتخذونها واسطة للعمل . فالكل من المبادئ والزعماء والجيوش والجموع شأن خاص في جميع الثورات تسير الجماعة التي هيجها الزعماء معتزة بعددها ومثل تأثيرها مثل تأثير القنبلة التي تخترق الدرع مستمدة من قوة لم توجدها . وقلما تدرك الجماعة شيئاً من الثورات التي تقوم بها فهي تتبع الزعماء طائعة من غير ان تبحث عن شهواتهم فقد خلعت شارل العاشر من اجل مراسيمه وهي لا تعلم شيئاً عما جاء فيها ولو سئلت عن سبب خلعها لويس فليب لعجزت عن الجواب

ولقد خدعت الظواهر كثيراً من المؤلفين كميشليه واولار فظنوا

ان الامة هي التي قامت بالثورة الفرنساوية الكبرى . قال ميشليه : « ان الفاعل الاصلي للثورة الفرنساوية هو الشعب » وقال اولار : « ان القول بأن الذين اتوا بالثورة الفرنساوية هم شرذمة من الوجهاء والابطال لخطأ ، إذ ثبت عندى بعد الاطلاع على ما وقع بين عامي ١٧٨٩ و ١٧٩٩ أنه لم يسير الحوادث اى شخص سواء اكان لويس السادس عشر ام ميرابو ام دانطون ام روبسبيير . وانما الصحيح ان الامة هي بطل تلك الثورة . وقد قامت بها لا على شكل جماعة بل على شكل احزاب منظمة » .

ووضع الموسيو كوشان كتابا حديثاً غالى فيه بما كان للشعب من التأثير في الثورة المذكورة ، قال هذا المؤلف : « ومن الخوارق ان حكمت هذه الجماعة وامرت وقالت وسارت مدة خمس سنين باتقان متناسق وليس عندها رؤساء ولا قوانين فقد كانت تعمل بغريزتها وهي (٢٥) مليون نسمة على مساحة ٣٠٠٠٠٠ فرسخ مربع كانها رجل واحد » .

نعم لو كان سير الامة غريزياً كما يزعم هذا المؤلف لعد من الخوارق ، وقد فطن الموسيو اولار الى استحالة ذلك فكان عندما يتكلم عن الامة يقول بأنها مركبة من احزاب قد يكون لها رؤساء . قال هذا المؤلف : من وطد الوحدة القومية ؟ ومن انقذ الامة التي

هاجمها الملك ومزقتها الحرب الاهلية ؟ أدانطون ام روبسبيير ام كارنو ؟ نعم قد خدم هؤلاء الاشخاص ولكن الذي أيد الوحدة والاستقلال هو تجمع الافرنسيين على شكل بلديات وجمعيات شعبية ، على ان من ينعم النظر يجد انه كان في كل حزب شخصان او ثلاثة اشخاص من المهرة ينفذون الاحكام ، وهم وان جاز وصفهم بالرؤساء فان ما يظهر لنا من مطالعة محاضر الجمعيات الشعبية هو انهم استمدوا قوتهم من حزبهم اكثر منها من انفسهم . »

ان خطأ المسيو اولار هو اعتقاده ان جميع هذه الاحزاب تولدت من حركة غريزية نحو مبدأي الحق والاخوة مع انه لا يوجد ما هو غريزي في هذه الحركة . فقد وجد وقتئذ في فرنسا ألوف من الاندية الصغيرة يحرضها النادي اليعقوبي الكبير في باريس وهي تطيعه اطاعة عمياء .

٤ — الامة وعناصرها الاساسية

يقال في الرد على بعض الافكار ان الامة ذات كيان لاهوتي حائز جميع مايمجده المشتغلون بالسياسة ويطنبون في مدحه من القوى والفضائل وسنبدي رأينا في ذلك عند بحثنا الآن عن شأن الامة في الثورة الفرنساوية .

ان الامة عند اليعاقبة في الماضي والحاضر شخصية سامية لا

تسأل — كالآلهة — عما تفعل ولا تخطيء ابداً . فالكل مجبور على إطاعتها وإن جاز لها ان تقتل وتنهب وتحرق وتأتي بأقسى المظالم وان تطرح غداً في الدرك الأسفل من رفعته اليوم الى مصاف الأبطال . ولا يعدل المشتغلون بالسياسة عن السجود امام جميع احكامها مسبحين بحمد فضائلها وحكمتها العالية [1] .

فما هي حقيقة الأمة اي المعبود الذي يقدسه الثوريون منذ عصر ؟

يمكن تقسيمها الى قسمين مختلفين : فالقسم الاول يشتمل على الفلاحين والتجار وجميع انواع العمال اي على من يحتاجون الى السكينة والنظام ليقوموا بمهنتهم ، وهذا الفريق وان كان اكثرية الأمة فانه لا يقوم بالثورات ابداً . وبما ان عيشه عيش عناء وسكوت فان المؤرخين يغفلون أمره .

واما القسم الآخر الذي له شأن مهم في جميع الفتن القومية فهو ثمالة اجتماعية هادمة ذات نفسية أثيمة اي كناية عن أناس يتكون من مجموعهم جيوش متمردة حولها البؤس وتعاطي الكئول الى لصوص

---

(١) اخذ يظهر بطلان ذلك عند متطرفي الحزب الجمهوري فقد كتب الموسيو كليمانصو « ان غاية الاشتراكيين هو ان يمنحوا العوام جميع الفضائل التي يقول بها العقل مع ان عقولهم لا تكون سامية دائماً » ولو قال هذا السياسي الشهير بعدم عقلهم بدلاً من قوله ان عقولهم لا تكون سامية لكان كلامه اصح .

وصعاليك واشقياء وعمال سفلة ذوى بطالة

يردع الخوف من العقاب كثيراً من هؤلاء عن اقتراف الجرائم في الأوقات الاعتيادية ولكنهم لايتأخرون عن ارتكابها عندما تستطيع غرائزهم السيئة ان تسير بدون خطر . فهؤلاء الاخلاط المشائيم هم الذين يسفكون الدماء في جميع الثورات وهم الذين كانوا يستولون - مدفوعين بتاثير زعمائهم - على مجالسنا الثورية الكبيرة . وليس لهم غاية سوى القتل والنهب والحرق ولا يعبأون بالنظريات والمبادئ أبداً

وينضم الى هذه الطبقة السافلة بتأثير العدوى جماعة من البطالين والاخلياء فيصرخون مع كل ناعق ويتمردون بجانب كل متمرد دون ان يفقهوا شيئاً من المسألة التي يصرخ ويتمرد من اجلها . والتلقين هو الذي يتغلب عليهم ويدفعهم للعمل .

ولا يعرف الخطباء غير هذه الجموع المشاغبة الضارة التي هي جرثومة كل عصيان منذ القديم حتى اليوم وهم يرون الامة مكونة من هذه الجموع وان كانت مؤلفة من الرعاع الذين قال عنهم تيار: «انهم لم يتغير منهم شيء منذ الازمنة التي رآهم فيها تاسيت يصفقون لجرائم القياصرة وانهم يتأهبون لتدنيس المجتمعات باقترافهم جميع الجرائم ملبين نداء كل سلطة اوصم اي مبدأ ..

لم يمتد شأن السوقة في دور من أدوار التاريخ كامتداده ايام الثورة الفرنساوية ، وقد ابتدأ الذبح فيها منذ تفلت الرعاع من قيدهم عام ١٧٨٩ اى قبل دور العهد بقليل . كان هؤلاء يذبحون بقساوة عظيمة فيشرّحون المسجونين ايام مذابح ايلول بالسيف رويداً رويداً لتمتد آلامهم ويتسلى الحضور الذين كان يطير فؤادهم من الفرح أزاء اضطراب الضحايا ونواحهم من شدة الوجع .

رأى الناس مثل هذه المشاهدة في جميع نواحي فرنسا منذ بداية الثورة الفرنساوية حيث لاحرب مع الأجنبى ولاعلة أخرى تبررها، وما وقع منذ شهر مارس حتى شهر ايلول من الحرق والقتل والنهب فقد ضرّج فرنسا بالدماء ووقعت روان وليون وستراسبورغ الخ بأيدي الرعاع . وقتل رئيس بلدية تروا بعد أن فقئت عيناه بالمقص وعذب ساعات كثيرة وشرّح قائد فرسان (بلزانس) حياً . وكثيراً ما كانت تقلع قلوب الضحايا ليطاف بها في المدينة على رؤوس الحراب .

هكذا يسير رعاع الأمة عندما تقضي الأيدى الغافلة على الزواجر الرادعة لغرائزهم المتوحشة المتنقلة اليهم بالارث ، ولما كانت المنفعة تقضي على المشتغلين بالسياسة ان يتملقوا لهم فانه يغمض عنهم ، ولنفرض ان سفلة الأمة تكاثفوا برهة فتكون من مجموعهم وجود واحد فان

هذا الوجود يظهر بمظهر غول طاغ قليل العقل يسبق في اغتياله اشد الجبابرة سفكا للدماء .

على أنه يسهل التغلب على هؤلاء السفلة المنحد فعين عند ما تقوم في وجههم قوة قوية فاذا اتصفوا بعنف لاحد له فان دناءتهم لاحد لها ايضاً فقد اعانوا كل استبداد وأيقن القياصرة انهم يهللون لهم سواء أكان اسمهم (كاليفولا) ام (نيرون) ام (روبسبيير) ام (بولانجيه) .

ويوجد بجانب هذه الزمر المخربة ذات الشأن الكبير في الثورات جماعة الشعب الحقيقي التى لا تصبو الا الى الشغل كما بينا ذلك سابقاً وهي وان كانت تستفيد أحياناً من الثورات فانها لا تفكر في القيام بها ولا يعلم رجال الثورة من أمرها الا قليلاً . ولما كانوا يحسون انها محافظة متمسكة بالتقاليد فانهم يرتابون منها .

إنها لنواة الأمة الثابتة وهي مدار بقائها وقوتها ، نعم ان الخوف يجعلها مطيعة فيقودها الزعماء بنفوذهم الى القيام بجميع المظالم ولكن خصائص الأمة الأرثية لا تلبث ان يثقل ميزانها فتضجر هذه الجماعة من الثورات سريعاً فتدفعها روحها التقليدية الى الوقوف أمام الفوضى عند ما تستفحل باحثة عن رئيس قادر على إعادة النظام .

ليس لهذا الفريق الهادىء المسلم أمره مبادىء سياسية ساميه

او معقدة ألبته وغايته ان يسود الحكم المطلق ولذلك قام هذا الحكم بعد الفوضى دائماً فلقد عقب الحكم المطلق الثورة الأولى عند ما هتف لنا بليون وعقب الثورة الثانية عند رفع التصويت العام لويس نابليون الى رئاسة الجمهورية وأقره على استئثاره بالحكم ثم جعله امبراطوراً ثم استصوب نظامه عام ١٨٧٠ اي قبل الحرب الفرنساوية البروسية .

لاريب ان الشعب قد خدع في هذه الأحوال الأخيرة ولكنه لولا الدسائس الثورية التي أفسدت النظام لما اضطر الى البحث عن وسيلة ليتخلص بها منها .

يجب ان لاتغيب الحوادث التى نبهنا اليها في هذا الفصل عن بالنا إذا أردنا الاطلاع على شأن الأمة في الثورات فالأمة شأن كبير فيها ولكنه يختلف كثيراً عما جاء في كتب الاقاصيص

الباب الثاني

مظاهر النفسية السائدة ايام الثورات

الفصل الاول

تقلبات الخلق ايام الثورات

١ — تحولات الذاتية

اوضحت مفصلاً في مؤلف آخر نظرية الاخلاق التي يستحيل بدونها ادراك تحول الانسان ايام الثورات واليك نقاطها الاساسية

يوجد عند كل امرىء — ماعدا نفسيته الثابتة مادامت البيئة لا تتحول — شؤون خلقية متحولة قد تظهرها الحوادث.

وتتكون الذاتية الخاصة من اجتماع ذاتيات ارثية عديدة و ينشأ عن اختلاط هذه الذاتيات موازنات تبقى ثابتة مادامت البيئة لا تتقلب، فمتى تقلبت هذه البيئة كثيراً — وذلك كما يقع أيام الفتن — فان هذه الموازنات تتداعى و يتكون من انضمام العناصر المنحلة ذاتية جديدة ذات افكار وعواطف ومناهج تختلف جداً عما كان مشهوراً عند الاشخاص انفسهم: ألم تران كثيراً من ارباب الصلاح ورجال القضاء المسالمين الذين كانوا موصوفين بالحكم اصبحوا ايام

الهول الاكبر اناساً متعصبين سفاكين للدماء .

إذاً يجوز ان يضحي المرؤ بتأثير البيئة امراً آخر ، وانه وان لاح لنا احياناً ان القائمين بالازمات الدينية والسياسية العظيمة هم من جوهر يختلف لهذا السبب عن جوهر نظرائهم في الحقيقة مثلنا فمن تكرر الحوادث نفسها يظهر الاشخاص انفسهم .

كيف تتشكل ذاتية جديدة عند ما تنحل الذاتية الاعتيادية بتأثير بعض الحوادث ؟ انها تتشكل بوسائل كثيرة أهمها حيازة معتقد قوي فيوجه هذا المعتقد جميع عناصر العقل والتمييز كما يحول الحجر المغناطيسي ذرات المعدن المغناطيسي الى منحنيات منظمة .

هكذا تكونت الذاتيات التي شوهدت عند الازمات العظيمة كالحروب الصليبية والاصلاح الديني ولاسيما الثورة الفرنساوية ولما كانت البيئة لا تحول في الاوقات الاعتيادية الا قليلاً فاننا لانشاهد سوى ذاتية واحدة عند من يحيط بنا من الاشخاص ، وقد يكون لهم احياناً ذاتيات متعددة قادرة على ان يقوم بعضها مقام بعض في ظروف استثنائية .

لربما تصبح هذه الذاتيات متناقضة متشاكسة ويكون هذا الحادث الاستثنائي بارزاً في بعض الاحوال الناشئة عن مرض ، وقد أتى علم الامراض بأمثلة كثيرة على هذه الذاتيات الموجودة في

شخص واحد كالتي اوردها (مورطون برنس) و (بطرس جاني)

وليس الذكاء هو الذى يتغير عند تحول الذاتيات بل المشاعر التى يتكون الخلق من انضمام بعضها الى بعض .

٢ — عناصر الخلق السائد ايام الثورات

نشاهد في أيام الثورات ان المشاعر المكبوحة عادة تنمو وتسير حرة عند هدم الزواجر الاجتماعية ولا تسقط جميع هذه الزواجر القائمة على القوانين والتهذيب والتقاليد بل يبقى بعضها رغم الانقلابات وينفع هذا البعض في ايقاف ثوران المشاعر المشتملة على الخطر .

ان روح الجنس هي أقوى هذه الزواجر إذ لما كانت سبباً لاتصاف اكثرية افراد الامة بادراك وشعور وعزم متماثل فانها تؤسس عادة إرثية ، ولا اقوى من رابطة العادة .

ويحدد تأثير الجنس تقلبات الامة ويسير مقاديرها رغم تحولاتها السطحية . فلو نظرنا ما قصه التاريخ علينا لظهر لنا مثلاً ان النفسية الفرنساوية تبدلت كثيراً في عصر واحد إذ مرت في اعوام قليلة من نظام الثورة الى النظام الامبراطوري فالى النظام الملكي فالى نظام الثورة فالى النظام الامبراطوري . والواقع ان ظواهر الامور هي التي تغيرت وحدها .

لا نطنب في بيان حدود تقلب الامة اكثر مما فعلنا وسنبحث الآن عن بعض العناصر العاطفية التي يساعد نموها ايام الثورات على تغيير ذاتيات الافراد والجماعات، وسأذكر من هذه العناصر خاصة الحقد والخوف والحرص والحسد والزهو والحماسة، فقد لوحظ تأثير هذه العناصر في جميع انقلابات التاريخ ولاسيما ايام الثورة الفرنساوية الكبرى التي نستشهد بها دائماً.

الحقد. — ان الحقد الذى اشتعل في قلوب رجال الثورة الفرنساوية ضد الناس والنظامات والاشياء هو أحد مظاهرهم العاطفية التي تبدو للعين عند البحث عن نفسيتهم، فلم يكتف هؤلاء الرجال بمقت اعدائهم بل مقتوا أعضاء حزبهم الخاص، قال احد الكتاب حديثاً: «إذا نظرنا الى ما كان بعضهم يرمي البعض الآخر من الأقوال فلا نرى بينهم سوى الخونة والعاجزين والكذبة وبائعي الضمائر والقتلة والظلمة». وما كان مجهولاً ذلك الحقد الذى غلى في صدور الجيروندين والدانطونيين والطبيريين والروبسبيريين ايام كانوا يتطاردون. فلم يهدأ ثائر هذا الحقد إلا بقتل كل امرىء يخالفه.

وسبب ذلك ان هؤلاء الهائجين لما اعتقدوا بحيازتهم على الحقيقة المطلقة صاروا لجميع المؤمنين لا يطيقون التسامح مع من لم يكن

على مذهبهم ، وبما ان صاحب الايمان الديني او العاطفي يميل دائماً الى إلزام الناس به فانه لا يتأخر عن القتل إذا قدر عليه .

ولو كان العقل مصدر الاعتقاد التي فرقت بين رجال الثورة الفرنساوية لما استمرت هذه الأحقاد طويلاً ، ولكن صدورها عن خلق التدين والعاطفة جعل اصحابها عاجزين عن الصفح . وبما ان مصدرها واحد عند جميع الاحزاب فانها ظهرت بشدة واحدة عند الكل ، ولقد اثبتت الوثائق المضبوطة ان الجيروندیين لم يكونوا أقل من حزب المونتانيار سفكاً للدماء ، فكانوا أول من صرح مع بيسيون انه يجب على الأحزاب المغلوبة ان تبيد ، وقد بين الموسيو اولار انهم حاولوا تبرير مذابح شهر ايلول ، وعليه وجب ان لا يعد (الهول الاكبر) وسيلة دفاع بل أن يعد نوعاً من طرق الابادة التي يتخذها المؤمنون الغالبون ضد أعدائهم المقهورين فالانسان إذا تحمل ما يباين افكاره فانه لا يتساهل مع معتقد مخالف لمعتقده أبداً .

لا سلام للمغلوب في المنازعات السياسية والدينية ، هذه سنة لم تتبدل منذ قطع سيللا رقاب مئتي عضو من مجلس الشيوخ ورقاب خمسة الى ستة آلاف روماني حتى رجال الكومون الغالبين الذين قتلوا رمياً بالرصاص بعد ان انتصروا اكثر من عشرين ألف مغلوب

ولا ريب في أن هذه السنة ستجري حكمها في المستقبل كما فعلت في الماضي .

لم يكن اختلاف المعتقدات وحده سبباً للاحقاد التي سادت ايام الثورة الفرنساوية بل صدرت ايضاً عن المشاعر الاخرى كالحسد والحرص والعجب . وقد ادّت هذه المشاعر الى المغالاة في الحقد بين رجال الاحزاب المختلفة فكان مايقع بين الاشخاص من المزاحمة للقبض على زمام الامور يسوق رؤساء الاحزاب بالتتابع الى المقصلة

و نرى ان من عناصر الروح اللاتيني الاساسية الميل الى الانقسام وما ينشأ عنه من الاحقاد . فبه اضاع اجدادنا الغولوييون استقلالهم وقد انتبه الى ذلك يوليوس قيصر فقال : « لايوجد في بلاد الغول مدينة غير منقسمة الى حزبين كما انه لايوجد فيها كورة ولا قرية ولا بيت خال من روح التحزب وقلما تمضي سنة من غير ان تهاجم مدينة جاراتها بالسلاح . »

وبما أن الانسان لم يدخل في دور المعرفة الا منذ زمن قليل وكان مسيراً بالمشاعر والمعتقدات فان ذلك يدلنا على ماللحقد من الشأن العظيم في التاريخ . ولقد أشار القائد (كولان) احد اساتذة المدرسة الحربية الى أهمية هذه العاطفة في بعض الحروب حيث قال: «لايوجد داع للشجاعة في الحرب اكثر من الحقد فهو الذي نصر

(بلوخر) على نابليون وإذا بحثنا عن أحسن الحركات العسكرية واحزمها فاننا نرى انها صادرة عن البغض والنفور اكثر من العدد اللهم إذا لم يكن منشأها نابغة كفردريك اونابليون ، وماذا تكون حرب ١٨٧٠ لولا الحقد الذي كان يحمله الألمان في صدورهم ضدنا؟»

ويمكن لهذا المؤلف ان يقول بان الحقد الشديد الذى غلى في قلوب اليابان ضد الروس المزدرين إياهم هو احد الأسباب التي نصرت اولئك على هؤلاء ، واما الروس فلما كانوا لايعلمون غير شيء يسير عن اليابان فانهم كانوا لايحملون شيئاً من الضغينة نحوهم فزاد ذلك في ضعفهم .

نعم لاكت الأفواه لفظ الأخوة ايام الثورة الفرنساوية كثيراً ولا يزال الناس يرددونها فصارت ألفاظ السلم والانسانية والتضامن قواعد للأحزاب ولكن عمق الأحقاد المستترة تحت هذه الكلمات والأخطار المحدقة بالمجتمع الحاضر ليس بالشيء الخفي .

الخوف . — إن للخوف في أيام الثورات شأناً عظيما يقرب من شأن الحقد ، وقد شوهد أيام الثورة الفرنساوية شجاعات فردية ومخافات جموعية كثيرة ، فكان رجال العهد أمام المقصلة كثيري الشجاعة ولكنهم كانوا أزاء وعيد مثيري الفتن المتسلطين على المجلس النيابي شديدي الجبن يطيعون اكثر الأوامر المخالفة للعقل والصواب

وسنرى ذلك عند ما نلخص تاريخ مجالسنا الثورية .

شوهد الخوف بجميع مظاهره في ذلك الزمن وكان الظهور بمظهر العاقل المعتدل أخوف ما يخافونه فقد سابق اعضاء المجالس وموظفو الاتهام وقضاة المحاكم خصومهم الى التطرف اي إلى اقتراف الجرائم . ولو ان معجزة أزالت الخوف من المجالس الثورية لكان لها سير آخر ولكانت للثورة الفرنساوية وجهة أخرى

الحرص والحسد والزهو . — تتبع هذه العناصر العاطفية في الاوقات الاعتيادية مقتضيات الاجتماع فيكون الحرص مثلاً محدوداً بحكم الضرورة في مجتمع قائم على نظام المراتب ، فاذا صار جندي فيه قائداً فذلك لا يقع الا بعد انتظار كبير وليس عليه ان ينتظر في أيام الثورات ، فلما جاز لكل امرئ ان يصعد فيها الى اعلى المراتب فان خلق الحرص يهيج عند الناس فيظن احقرهم أنه كفوء لها فيبلغ الزهو عنده منتهاه .

قد يتغلب المرؤ على شهواته على مافيه من حرص و زهو ولكن الحسد لايلبث ان تتقد نيرانه في قلب صاحبه على الذين تم لهم النجاح قبل الآخرين .

للحسد شأن عظيم في الأدوار الثورية ولا سيما الثورة الفرنساوية فكان الحسد للاشراف سبباً من اسبابها المهمة ولما ازدادت الطبقة

الوسطى بها مالاً وعظمت سطوة ونيفت على الأشراف وكثر اختلاطها بهم شعرت رغم ذلك ببعدها عنهم فأحست في نفسها ألماً شديداً ، وهذه الحالة الروحية جعلتها تميل غير شاعرة الى المذاهب الفلسفية القائلة بالمساواة .

إذا كانت عزة النفس المجروحة والحسد سببين لما لم ندرك مغزاه اليوم من الاحقاد . فكان كثير من رجال العهد كقاريا ، ومارا وغيرهما يتذكرون والغضب آخذ مأخذه منهم انهم تقلدوا وظائف ثانوية عند الأمراء الاقطاعيين وما استطاعت (مدام رولان) ان تنسى انها لما دعيت في الدور السابق مع والدتها للعشاء عند سيدة كبيرة تناولتاه مع خدمة المائدة .

ولقد أجاد الفيلسوف (ريفارول) ببيانه - في العبارة الآتية التي استشهد بها تاين — تأثير عزة النفس المجروحة في الأحقاد الثورية ، قال هذا الفيلسوف « لم تكن الضرائب وأوامر الملك وتصرف السلطة السيء وجور الولاة وتواني القضاء المهلك هي التي أثارت وحدها ساكن الأمة بل ان الأمة اظهرت من الحقد لطبقة الأشراف مالم تظهره لشيء آخر وقد هيج ابناء الطبقة الوسطى ورجال القلم والماليون اي جميع الحاسدين لها سكان القرى والمدن ضدها »

وهذه الملحوظات الصحيحة تؤيد كلمة نابليون القائلة « بان الزهو كان سبباً للثورة الفرنساوية وليس السعي للحرية سوى حجة باطلة . »

الحماسة — ان حماسة مؤسسي الثورة الفرنساوية تعادل حماسة ناشري دين محمد (صلى الله عليه وسلم) ، إذ كانت ديانة اعتنقها رجال الطبقة الوسطي في المجلس التشريعي الاول أنهم اسسوها . تخيل هؤلاء الرجال انهم قضوا على المجتمع القديم وأقاموا على أنقاضه حضارة اخرى ، وما وجدوه فتان اضرم قلب الانسان اكثر من هذا الوهم فكانوا يقولون بان مبدأي الاخوة والمساواة اللذين نادوا بهما سيمنحان الامم سعادة ابدية وبأنه لما قطعت جميع العلائق مع الماضي المظلم المتوحش فان المجتمع الجديد سيستنير باشعة العقل المطلق . ولذلك حيي الفجر الذى لاح جانبه بأبهى الصيغ الخطابية

وإذا قام العنف حالاً مقام هذه الحماسة فذلك لان الانتباه كان سريعاً ويسهل علينا ادراك السر في كون رسل الثورة الفرنساوية قاموا اشداء غاضبين في وجه العوائق اليومية المانعة لتحقيق احلامهم فهم لما ارادوا نبذ الماضي ونسيان التقاليد وتجديد البشر وكان الماضي يظهر بلا انقطاع والبشر يأبى ان يتغير اضطروا الى التوقف عن سيرهم غير مريدين الخضوع فأخذوا يرغمون الناس على الانقياد

لأوامرهم بضغط أعادوا به في النهاية النظام السابق المقضي عليه الذي لم يلبث ان أسف الناس عليه .

ومما يستحق الذكر ان حماسة الايام الاولى التي لم تدم في المجالس الثورية استمرت اكثر من ذلك عند الجيوش فكانت مرقوتها ، حقاً ان جيوش الثورة الفرنساوية اصبحت ذات نزوع جمهوري قبل ان تصبح فرنسا جمهورية واستمرت على ذلك زمنا طويلاً بعد ان صارت فرنسا غير جمهورية .

تتبع تقلبات الخلق التى بحثنا عنها في هذا الفصل لبعض الاماني ولتحولات البيئة و يمكن ردها الى أربع نفسيات وهي النفسية اليعقوبية والنفسية الدينية والنفسية الثورية والنفسية المجرمة .

الفصل الثاني

النفسية الدينية والنفسية اليعقوبية

١ — تقسيم النفسيات السائدة أيام الثورة

تلجيء التقسيمات — التي يستحيل البحث العلمي بدونها — الى قطع ما هو متصل وتظل لهذا السبب صنعية ، على انها ضرورية إذ لا يدرك المتصل الا بعد تحويله الى اجزاء متقطعة .

ان التفريق بين النفسيات المختلفة المشاهدة ايام الثورة لم يكن سوى فصل عناصر متغالبة او متداخلة او متراكمة ، ويقتضي ترك قليل من الضبط والصحة لنيل ما يقابل ذلك من الوضوح . والوجوه الاساسية التي عددناها في آخر الفصل السابق — وسنشرحها الآن — هي أقسام لا يمكن تفسيرها اذا بحث عنها مشتبكة الاجزاء .

بينا ان الانسان مسير بانواع كثيرة من المنطق متقاربة لا يؤثر بعضها في بعض في الاوقات الاعتيادية وتتنازع هذه الانواع بتاثير الحوادث فتبدو الفروق الفارقة بينها للعيان فيؤدى ذلك الى انقلابات فردية واجتماعية عظيمة .

وللمنطق الديني الذى سنبحث عنه بعد حين في الروح اليعقوبية شأن كبير واما الانواع الاخرى اي المنطق العاطفي ومنطق الجماعات والمنطق العقلي فقد تكون لها الغلبة بحسب الظروف .

٢ = النفسية الدينية

الآن نمسك عن بيان تأثير المنطق العاطفي والمنطق العقلي ومنطق الجماعات باحثين عن عناصر التدين التي تغلبت على كثير من الثورات ولا سيما الثورة الفرنسلوية .

ان روح التدين تتصف باسنادها قدرة عظيمة الى موجودات وقوى علوية تمثلت بشكل اصنام وانصاب والفاظ وصيغ ، والروح المذكورة هي اساس لجميع المعتقدات الدينية وكثير من المعتقدات السياسية ، وكثيراً ما تتلاشى المعتقدات السياسية إذا جردت عن عناصر التدين التي هي اركانها الحقيقية .

ولما كان المنطق الديني مشرباً بالمشاعر والدوافع العاطفية فان الفتن الشعبية الكبيرة تستمد قوتها منه ، وإذا كان الناس لايبذلون حياتهم في سبيل المعقولات الاقليلا فانهم يفدونها طوعاً في سبيل خيال ديني اصبح معبوداً .

لم تلبث مبادي الثورة الفرنساوية أن القت في قلوب الناس حمية دينية مشابهة للحمية التي القتها المعتقدات الدينية السابقة ، ولم

تفعل بذلك غير تحويلها وجهة النفسية الموروثة المتكاثفة بتعاقب العصور .

إذاً فلا عجب لحمية رجال العهد القاسية وما اشبه نفسيتهم الدينية بنفسية البروتستان في دور الاصلاح الديني . كان ابطال (الهول الأكبر) كقوطون وسان جوست و روبسبيير وغيرهم رسلاً مشابهين لبوليوقت الذي ظن انه بهدمه هياكل الآلهة الباطلة في سبيل نشر ايمانه يجعل الكون مسيحياً فلما اعتقدوا ان صيغهم السحرية تكفي لدك العروش فانهم لم يترددوا في اعلان الحرب على الملوك . وبما ان الايمان القوي يعلو على الايمان المزعزع دائماً فقد حاربوا اوروبا ظافرين .

وكان يظهر ماعند زعماء الثورة الفرنساوية من الروح الدينية في أدق اعمالهم العامة فقد أكد روبسبيير في احدى خطبه وهو يعتقد بانه محفوف بعون الله « ان الله تعالى أمر بالحكم الجمهوري منذ البداية » وجعل — بصفته المبر الأعظم لدين الحكومة — مجلس العهد يضع مرسوماً مصرحاً فيه « بان الأمة الفرنساوية تعترف بوجود الله تعالى وبخلود الروح » والقى وهو جالس على عرش يوم عيد الرب موعظة طويلة .

أخذ النادي اليعقوبي الذي يديره روبسبيير في نهاية الأمر

شكل مجمع ديني وقد قال (ما كسيميليان) « بوجود قادر عظيم يحافظ على البرىء المظلوم ويجازى المجرم الظافر » وكان جميع الخوارج الذين يطعنون في المذهب اليعقوبي يحرمون اي يرسلون الى المحكمة الثورية التي لايخرج منها المتهم الا لقطع رأسه .

ولم تمت النفسية الدينية بموت روبسبيير الذي هو اشهر ممثل لها إذ يوجد الآن بين المشتغلين بالسياسة رجال ذوو نفسية مشابهة لنفسيته . نعم لاسلطان للمعتقدات الدينية القديمة عليهم ولكنهم يخضعون لتعاليم سياسية لايتأخرون ساعة عن الزام الناس بها إذا قدروا على ذلك . فطريقة الارشاد في كل جيل عند المتدينين الذين يبذلون حياتهم في سبيل نشر معتقدهم واحدة عندما يصيرون سادة .

إذاً فمن الطبيعي ان يكون عدد المعجبين بروبسبيير كثيراً وتعد النفوس التي سكبت في قالب نفسه بالألوف وهو وان قطع رأسه بالمقصلة فان مداركه لم تقطع ولا تزول هذه المدارك التي نشأت مع الانسان الا بزوال آخر المعتقدين .

لم ينتبه اكثر المؤرخين الى وجه الثورات الديني وسوف يستمرون على عزوهم كثيراً من الحوادث الى المنطق العقلي البعيد عنه . وقد اوردت في فصل سابق عبارة للموسيو لافيس والموسيو

رامبو يقولان فيها ان ثورة الاصلاح الديني « نتيجة تأملات ذاتية او رثها في قلوب بسطاء الناس شعور تقي وعقل مقدام . »

لايمكن ادراك هذه الثورات اذا ظن ان مصدرها العقل فالمعتقدات التي أقامت العالم واقعدته - سواء أكانت دينية ام سياسية - مصدر واحد وكلها تسير على سنة واحدة وهي انها لم تتم بالعقل وكثيراً ماتمت خلافا لكل عقل . نعم يظهر ان البوذية والنصرانية والاسلام والاصلاح الديني والسحر واليعقوبية والاشتراكية والمذهب الروحاني معتقدات متباينة ولكنني اكرر قولي بأن لها دعائم عاطفية ودينية واحدة وتتبع منطقاً لاقرابة بينه وبين المنطق العقلي وقوتها ناشئة عن ماللعقل من التأثير الضئيل في تكوينها وتحويلها .

ولقد فصلت نفسية رسلنا السياسيين الدينية في الوقت الحاضر بمقالة نشرت في احدى الجرائد الكبيرة ولها مساس بأحد وزرائنا السابقين ، جاء في هذه المقالة : « يتساءلون عن الفرقة التي ينتسب اليها الموسيو فلان ، أيظن انه من فرقة الملحدين ؟ فيا للسخرية ! نسمع مع عدم اختياره اي ايمان وضعي ولعنه روما وجنيف انه يجحد جميع العقائد التقليدية ويرفض جميع الكنائس المعروفة ، الا انه وان جعل الصفيحة هكذا ملساء فذلك ليقيم عليها كنيسته

الخاصة التي هي ذات بدع اكثر من اية كنيسة اخرى وسوف لا تقل محكمته التفتيشية في شدة تعصبها وعدم تسامحها عن اشهر محاكم توركمادا . »

«صرح بانه لا يرضى بالمحايدة المدرسية وبانه يطلب ان يكون التعليم زمنياً بكل معنى الكلمة اى انه يخالف حرية التعليم . وهو وان لم يقل بالاحراق فذلك لاضطراره الى مداراة تطور العادات والطبائع وبما انه عاجز عن قتل الناس فانه يستمد بالقوة الزمنية للحكم على جميع المذاهب بالموت . هذه هي غاية جميع رجال محاكم التفتيش الذين يريدون في كل وقت ان يضطهدوا الفكر . وقد بلغت حرية الفكر عند هذا المفكر الحر مبلغاً جعله لا يكتفي بان يقول ان كل فلسفة لا يرضى بها موجبة للهزء والسخرية بل يقول انها اثيمة مجرمة . يزعم انه حصل على الحقيقة المطلقة وأوجب اعتقاده التام بذلك ان ينظر الى كل من يخالفه كفول شنيع وعدو عام ولم يخطر بباله لحظة واحدة ان اراءه الشخصية لم تكن سوى فرضيات يضحك فيها ادعاؤها بانها ذات امتياز إلهي منزل في وقت ترفض فيه كل الوهية . وهي وان جحدت الألوهية . فانها تعترف بها على شكل آخر لا يلبث ان يجعل الانسان يأسف على الألوهية السابقة فالمسيو فلان هو من أشياع آلهة العقل المشابهة

عنده للأله (مولوخ) الظالم المتعطش الى القرابين البشرية وما فكر الموسيو فلان الحر الا عدم حرية الفكر عند اي انسان كان مستثنياً ذاته واصحابه ، إلا ان الأماني خلابة وكم من اصنام حطمت منذ بضعة عصور ليسجد امام صنم حديث . » .

اننا لنرجوا باسم الحرية ان لا يصبح هؤلاء المتعصبون سادة علينا في نهاية الامر .

ولما كان سلطان العقل ضئيلا على المعتقدات الدينية فان من اللغو أن نجادل كما يفعل البعض فيما للمبادئ الثورية والسياسية من القيمة العقلية ، وتأثيرها وحده هو الذي يهمنا سواء اكذبت المشاهدة والتجربة نظرية المساواة بين الناس ونظرية الصلاح الفطرى والنظرية القائلة بامكان تجديد المجتمع بالقوانين ام لم تكذبا فهذه الاوهام الباطلة من اكثر العوامل التي عرفها البشر تأثيراً .

٣ — النفسية اليعقوبية

اصطلح على تعبير « النفسية اليعقوبية » مع انه لم يصطلح عليه في اي تقسيم وذلك لانه يدل على جملة معينة يتكون منها نوع نفسي حقيقي .

سادت هذه النفسية على رجال الثورة الفرنساوية ولكنها

ليست مختصة بهم فهي لا تزال كبيرة التأثير في سياستنا الحاضرة ومع ان النفسية الدينية التي بحثنا عنها سابقاً هي عامل جوهري في الروح اليعقوبية فانها لا تكفي لتكوينها ولا مندوحة في ذلك عن عناصر أخرى سنبحث عنها الآن .

يزعم اليعاقبة بفناء تدينهم وبان العقل النظري مسيرهم وقد كانوا يستشهدون به ايام الثورة الفرنساوية ويتخذونه دليلاً لسيرهم .

قال اكثر المؤرخين بنزوع الروح اليعقوبية الى المعقول وشاطرهم تاين في هذا الرأي الفاسد فعزا كثيراً من اعمال اليعاقبة الى مغالاتهم في المعقولات . على انه يوجد في الصحائف التي بحث فيها عنهم كثير من الحقائق وبما انها تستحق النظر والاعتبار فاني اقتطف اهم ماجاء فيها .

قال هذا المؤلف . « لم تكن عزة النفس المفرطة والعقل النظرى بالشيء النادر عند البشر ففي اى بلد نرى ان مصدرى الروح اليعقوبية المذكورين أزليان لا تنالهما يد الفناء . ومتى يبلغ المرؤ العشرين سنة من عمره فيدخل في معترك الحياة يستحوذ الغم على عقله وزهوه . ففي البداية يكون المجتمع الذى نبت فيه عثرة في سبيل عقله النظرى لان المجتمع لم يكونه شارع فيلسوف حسب

مبدإ بسيط بل اوجدته الاجيال المتعاقبة حسب حوائجها الكثيرة المتحولة اى انه ليس من صنع المنطق بل من صنع التاريخ ، ثم يهز المتعقل المبتدأ كتفيه هزؤاً إزاء هذا البناء الهرم ذى الدعائم التي لم تقم على نظام وذى العمارة التي لا رابطة بين اجزائها والتي يبدو عليها الرتق والترقيع . لا يكون اكثر الشبان — ولاسيما من عليهم ان يخوضوا غمار الحياة — عند خروجهم من المدرسة الا من اليعاقبة في الغالب ولا ينبت هؤلاء الا في بيئة اجتماعية منحلة الاجزاء كما ينبت الفطر في ارض متخمرة . فانظروا الى احسن ما انتجته قرائحهم اى الى خطب روبسبيير وسان جوست والى مباحثات المجلس التشريعي الاول ومجلس العهد واقوال الجيرونديين والمونتانيارين مع منشوراتهم وتقاريرهم تروا انه أتى فيها باكثر الكلام للتعبير عن ما يتطلب اقله وان كل حقيقة كانت تغرق في بحر ممل من كلماتها المقعرة والفاظها المفخمه . ويحترم اليعقوبي ما يدور في دماغه المتعقل من الاوهام والخيالات التي هي حقيقة عنده اكبر من غيرها ولا يعبأ الا بما توحيه اليه فهو يسير مخاصاً في موكب بصورة الخيال في نفسه وما يتكون في مخيلته من ملايين العزائم النظرية تعاضده معاضدة تامة فيصرخ بين الناس بصدى صوته الخاص كما تهلل النوبة ايام النصر »

واني وان كنت اعجب لبيان تاين فانني لا اعتقد بانه فهم نفسيه اليعقوبي تماماً .

تتركب روح اليعقوبي الحقيقي — سواء أفي ايام الثورة الفرنساوية أم في أيامنا — من عناصر يجب تحليلها لادراك شأنها .

ويدلنا هذا التحليل اولاً ان اليعقوبي معتقد غير عقلي وانه فضلاً عن كونه لايؤسس معتقده على العقل فانه يسكب العقل في قالب معتقده وان خطبه وان كانت مشبعة بالعقليات فانه لايستخدمها في خواطره وسيره الا قليلا . ولو كان اليعقوبي يتعقل بنسبة مايلام عليه من التعقل للبى نداء العقل في بعض المرات . الا أن المشاهدة دلتنا منذ الثورة الفرنساوية حتى الآن على أن العقل مهما كان سديداً لم يؤثر فيه قط وهذا هو سر قوته ومنعته . وسبب عدم تأثير العقل فيه هو ان قصر نظره في سير الأمور لايسمح له بمقاومة اندفاعاته العاطفية المسيرة اياه .

ولا يكفي هذان العنصران اى العقل الضعيف والعواطف القوية في تكوين النفسية اليعقوبية بل يوجد ايضاً عنصر آخر .

تدعم العاطفة العقائد ولا تكونها أبداً . وبما ان اليعقوبي الحقيقي ذو عقائد راسخة فما هو ركن هذه العقائد؟ هنا يبدو لنا تأثير عناصر التدين التي بحثنا عنها سابقاً . فاليعقوبي متدين أقام مقام آلهته

القديمة آلهة جديدة ، ولما كان للالفاظ والصيغ سلطان قوي على نفسه فانه يعزو اليها قوة إلهية ولا يتأخر في سبيل خدمة هذه الآلهة الكثيرة الطلب عن الاتيان بأقسى الأعمال ، والدليل على ذلك ماسنه اليعاقبة في الوقت الحاضر من القوانين .

وتوجد النفسية اليعقوبية خاصة عند ذوى الاخلاق المتحمسة الضيقة وتتضمن هذه النفسية فكراً قاصراً عنيداً يجعل النقد وكل شيء خارج عن الايمان غير مؤثر فيها ، وما تغلب على الروح اليعقوبية من عناصر التدين والعناصر العاطفية يجعل اليعقوبى كثير السذاجة . ولما كان بهذا لايدرك من الامور الا علائقها الظاهرية فانه يظن بان مايتولد في روحه من الصور الوهمية عبارة عن حقائق ويفوته ارتباط الحوادث بعضها ببعض وما ينشأ عن ذلك من النتائج فلا يحول بصره عن خياله أبداً .

إذاً فاليعقوبي لا يقترف الآثام لتقدم منطقه العقلي إذ لا يملك منه الا قليلاً وانما يسير متيقناً وعقله الضعيف يخدم اندفاعاته حيث يتردد الرجل ذو المدارك السامية فيقف . واذا قيل ان اليعقوبي متعقل كبير فذلك لا يدل على انه مسير بالعقل وهو وان تخيل ان العقل قائده فان تدينه وعواطفه هي التي تسيره في الحقيقة فهو — كجميع المتعقدين المقذوفين الى ميدان المعتقد — عاجز عن

الخروج من ذلك .

ويشبه بصفته اللاهوتية المكافحة انصار كالفان الذين بحثنا عنهم في فصل سابق قائلين بانه لم يثنهم عن ايمانهم الذى نومهم شيء وبأنهم رأوا كل من يخالفهم في معتقدهم جديراً بالموت . كان هؤلاء ايضا من المتعقلين فلما جهلوا كاليعاقبة مايسيرهم من القوي الخفية ظنوا بأن رائدهم هو العقل وحده مع ان الذي قادهم هو خلق التدين والحماسة

يتعذر استكناه اليعقوبي إذاقيل عنه انه متعقل ولاينفعنا حينئذ الا في القنوط من العقل واما إذا قيل عنه انه متحمس متدين فان معرفة أمره تكون على خلاف ذلك سهلة

وهذه العناصر الثلاثة - اي العقل الضعيف والحماسة الشديدة والتدين القوي — هي المكونة للروح اليعقوبية

الفصل الثالث

النفسية الثورية والنفسية المجرمة

١ – النفسية الثورية

بينا ان عناصر التدين هي احدى المركبات للروح اليعقوبية وسنرى انها تدخل في تركيب نفسية أخرى بارزة وهي النفسية الثورية .

ان المجتمعات في كل زمان تحتوى عدداً من النفوس المضطربة المتقلبة الساخطة المتأهبة للتمرد على اي نظام ، تثور هذه النفوس راغبة في الفتنة ذاتها ولو ان قوة سحرية حققت جميع رغائبها بلا قيد ولا شرط لما كفت عن التمرد .

وتنشأ هذه النفسية في الغالب عن عدم التئام المرء مع بيئته او عن مغالاة في التدين وقد تنشأ ايضاً عن المزاج او عن مرض

للتمرد درجات مختلفة تتراوح بين الاستياء الطفيف الذي ينحصر في كلام المرء على الناس والاشياء وبين الميل الى التخريب ، وقد يصوب المرء صولته الثورية احياناً نحو نفسه إذا عجز عن التصرف بها على طريقة أخرى فلقد كثر في روسيا عدد المجانين

الذين لم يكتفوا بما يضرمونه من الحريق وبما يقذفونه بين الجموع من القنابل بلا تبصر فأخذوا يقتلون انفسهم .

ويسهل إغواء هؤلاء العصاة الذين أضلت بعض الوساوس نفوسهم الدينية فهم رغم ما تدل عليه أعمالهم من العزيمة الظاهرة ضعفاء عاجزون عن مقاومة ما يستحوذ عليهم من المحرضات وتنفع الروح الدينية الباعثة في قلوبهم حماسة في إتيانها بحجج مبررة لمظالمهم يتخيلون معها انهم من أكابر المصلحين .

تردع القوانين والبيئة وكل زاجر اجتماعي العصاة في الاوقات الاعتيادية فيظلون لا تأثير لهم . ولكن متى بدت أدوار الفتن فان هذه الزواجر تضعف فيقدر العصاة وقتئذٍ على اطلاق العنان لغرائزهم فيصبحون زعماء للفتن ، ولا يهمهم الباعث الحقيقي للثورة فيقتتلون سواء للحصول على الراية الحمراء او البيضاء ام لتحرير الوطن الذي لم يسمعوا عنه سوى كلام مبهم .

وقد لا تكون الروح الثورية ذات خطر ، وهي ان صدرت عن العقل بدلاً من العاطفة او خلق التدين فانها تصبح منبعاً للتقدم والرقي ، وعند ما يصير حكم التقاليد والعادة ثقيلاً على الحضارة فانها تتخلص منه بواسطة ارباب النفوس المستقلة استقلالاً يكفيها لان تكون ذات عقلية ثورية . فهؤلاء خاصة هم الذين اوجبوا تقدم العلوم

والفنون والصناعة ولذلك عُدَّ غاليله ولافوازيه وداروين وباستور من الثوريين .

واذا لم يكن من الضروري ان يوجد في الامة كثير من هؤلاء فانه يجب ان يكون عندها عدد منهم على كل حال إذ لولاهم لظل الانسان عائشاً في الكهوف الأولى . وتتطلب الجرأة الثورية التي تظهر ما عند صاحبها من المكتشفات قابليات نادرة ولا سيما استقلالا ذهنياً ليتخلص به من الافكار الجارية بين الناس وحصافة ليدرك بها ما ينطوي تحت المشابهات السطحية من الحقائق وتكون هذه الروح الثورية مبدعة خلافاً للروح الثورية المخربة التي بحثنا عنها سابقاً . إذاً قد تكون النفسية الثورية نافعة ولكنها لا تلبث ان تصبح مضرة عند الافراط والمغالاة .

٢ — النفسية المجرمة

قدر لجميع المجتمعات المتمدنة ان تشتمل على ثمالة من المنحطين وعديمي الالتئام وذوي النقائص المتنوعة ويتكون من هؤلاء المتشردين والصعاليك والمذنبين والمحكوم عليهم والسارقين والقتلة والسائلين فريق المدن الكبيرة المجرم والشرطة هي الوازعة لهم في الأزمنة الاعتيادية ولا يوجد ما يردعهم ايام الثورات فيسهل عليهم فيها ان يقتلوا ويسلبوا ومنهم يجمع رجال الثورة جنودهم ، وبما انهم

لا يطمعون الا في القتل والنهب فانهم لا يبالون بالغاية التي يدافعون عنها ولا يتأخرون ساعة عن الالتحاق بالحزب المتقهقر مبدلين رايتهم إذا كان حظهم من القتل والسلب عنده اكثر .

ويضاف الى هؤلاء المجرمين الذين هم داء المجتمعات العضال فريق شبه المجرمين فلا يتمرد هذا الفريق الذى يأتي بالمنكر عند سنوح الفرص وقتما يستحوذ عليه الخوف من النظام المسنون ولكنه لايلبث ان ينضم الى زمر العصاة حينما يعترى هذا النظام وهن . ويتكون من هذين الفريقين — اي المجرمين اعتياداً والمجرمين انتهازاً — جحفل مخل بالنظام وعليه يعتمد جميع الثوريين وجميع القائمين بالفتن الدينية والسياسية .

قلنا سابقاً إن هذه الفئة ذات النفسية المجرمة كانت عظيمة النفوذ ايام الثورة الفرنساوية فسابقت الى ما كان يقع كل يوم من الهرج ، وقد قص علينا بعض المؤرخين — وهم خاشعون — خبر الاوامر التي كانت تحملها الجماعة الحاكمة الى مجلس العهد مستولية على بهوه مسلحة بالحراب المزين رؤوس بعضها برؤوس مقطوعة ، ولو بحثنا عن العناصر التي كانت تتركب منها هذه الجماعة التي ادعت بانها وكيلة الشعب الحاكم لرأينا ان معظمها من اللصوص وان أقلها من اصحاب النفوس الساذجة الذين يسيرون حسب ما يحرضهم الزعماء

والى اولئك اللصوص تعزى المذابح العديدة كمذابح شهر ايلول وقتل الأميرة (لامبال) .

انها ارهبت جميع المجالس التي التأمت منذ المجلس التأسيسي حتى مجلس العهد وخربت فرنسا مدة عشر سنين ولو ان معجزة قضت على هذا الجيش المجرم لكان سير الثورة الفرنساوية خلاف ما وقع فلقد ضرجها بالدماء منذ فجرها حتى غروبها وليس للعقل سلطان عليه وانه للعقل لمن القاهرين .

الفصل الرابع

روح الجموع الثورية

١ — صفات الجموع العامة

لا تأتي الثورات مهما كان مصدرها بجميع نتائجها الابعد دخولها في نفوس الجماعات ولهذا فانها نتيجة لروح الجموع .

ومع انني بحثت مطولا في كتاب آخر عن روح الجماعات فان الضرورة تقضي علي بان اذكر هنا سننها الاساسية :

ان المرء وهو جزؤ من الجماعة يختلف جدا عنه وهو منفرد فذاتيته الشاعرة تفنى في ذاتية الجماعة اللاشاعرة . وليس من الضروري ان يتصل المرء بالجماعة اتصالا ماديا ليكتسب نفسية الجماعة بل يكفي غالباً لتكوين هذه النفسية ما ينشأ عن بعض الحوادث من الانفعالات والمشاعر العامة .

ولروح الجماعة التي تتشكل وقتياً مركب خاص ويتصف هذا المركب الاساسي بان تكون العناصر اللاشعورية متغلبة عليه تغلباً تاماً وهذه العناصر تخضع لأحكام منطق خاص يسمى بمنطق الجماعات ونعد من الاوصاف الاخرى للجموع مغالاتها في سرعة

التصديق وسرعة الانفعال وعدم التبصر وعجزها عن التأثر بالمعقول فلا يمكن اقناعها الا بالتوكيد والعدوى والتكرار والنفوذ . وليس للحقائق والتجارب تأثير فيها ويمكن حملها على تصديق كل شيء إذ لايوجد ماهو مستحيل في نظرها .

وما تتصف به الجماعات من سرعة التأثر والانفعال يجعلها ذات مشاعر مفرطة وتكون هذه المشاعر اما ضارة اونافعة . ويعظم هذا الأفراط في ايام الثورة فأقل تحريض يدفع الجماعات وقتئذ الى القيام بأقسى الأعمال . ويزداد في ايام الثورات ايضاً ماتتصف به الجماعات في الأحوال الاعتيادية من سرعة التصديق فتعتقد بصحة مالا يمكن تصديقه من الأقاصيص . ذكر (ارثور يانغ) ان الشعب قد قبض — عند ما كان يزور ايام الثورة الفرنساوية المنابع القريبة من (قلير مون) — على دليله لاعتقاده بأنه جاء لينسف المدينة كما أمرته الملكة ثم اخذ الناس بعد ذلك يتناقلون اشنع الاحاديث عن بيت الملك عادين اياه من الغيلان والعفاريت .

تثبت لنا هذه الصفات ان الانسان وهو جزؤ من الجماعة يهبط كثيراً من سلم الحضارة فتصدر عنه عيوب الشراسة ومزاياها اي انواع الظلم والاستبداد وانواع الحماسة والبطولة . ولهذا فان الجماعة وان كانت من الجهة العقلية أدنى من الرجل المنفرد فانها قد

تكون اسمى منه شعوراً وخلقاً ، ويسهل عليها ان تقترف إثماً كما يسهل عليها ان تبذل نفسها .

وتتلاشى الاخلاق الشخصية في الجماعات لما لها من التاثير في افرادها فيصبح فيها البخيل متلافاً والمرتاب معتقداً والصالح مجرماً والنذل بطلا وما أكثر أمثلة هذه التحولات في الثورة الفرنساوية

فالانسان يبدي وهو مجتمع سواء أكان من المحلفين ام من اعضاء البرلمان مالا يخطر بباله وهو منفرد من حكم في قضية او رأي في قانون .

ومن أهم النتائج التي تنشأ عن تأثير الجماعة في أفرادها توحيد مشاعرهم وعزائمهم ومن هذه الوحدة النفسية تكتسب الجماعات قوة عظيمة ، والباعث لتكوين مثل هذه الوحدة النفسية هو انتشار المشاعر والحركات والاعمال بين الجماعة بالعدوى خاصة ، فالجماعة تستصوب على الفور الهتاف حقداً او غيظاً او مودة وتردد اصوات الهاتفين .

كيف تتولد هذه الارادة والمشاعر المشتركة ؟ انها تنتشر بالعدوى ولكن تكوين هذه العدوى يتطلب مصدراً وهذا المصدر هو الزعيم الذى سنتكلم قريباً عن تأثيره في الحركات الثورية والجماعة بلازعيم تعجز عن السير والحركة .

يجب الاطلاع على نواميس روح الجماعات لتفسير حوادث الثورة الفرنساوية وادراك سير المجالس الثورية وتطور اعضائها ، فلما كانت القوى اللاشعورية لروح الجماعة هي الدافعة لهؤلاء فقد كانوا يقولون ويصوتون غالباً خلاف ما يريدون .

ومع ان فريقاً من اكابر الساسة ادركوا بانفسهم سنن روح الجماعات فان اكثر الحكومات جهلت أمرها ولا تزال تجهله ، وقد سهل هذا الجهل سقوط اكثرها وتتضح الاخطار الناشئة عن جهل روح الجماعات عند الاطلاع على السهولة التي اسقطت بها فتنة صغيرة بعض النظامات ولا سيما نظام لويس فليب، فقد جهل القائد الذي كان يقود عام ١٨٤٨ جنوداً كافية للدفاع عن ذلك الملك ان اختلاط الجماعة بالجند يؤدي الى شلل هؤلاء بالتلقين والعدوى وكفهم عن القيام بواجباتهم وانه لما كانت الجماعة تتأثر بالنفوذ فأنه يجب للتأثير فيها ارائتها قوة قادرة على ايقاف مظاهراتها وان من الضروري تشتيت الرعاع حالاً ، والتجربة وان دلت على جميع هذه الامور فان حكمتها لم تدرك في ذلك الوقت واما في ايام الثورة الفرنساوية الكبرى فان روح الجماعات كانت لا تخطر على البال .

*

* *

٢ — كيف ان استقرار روح العرق يضع حداً لتقلبات روح الجموع

يمكن تشبيه الشعب بالجماعة فالشعب يتصف ببعض صفات الجماعة الا ان روح العرق الذي ينتمي اليه الشعب يحدد تقلبات هذه الصفات ففي روح العرق ثبات لا عهد لروح الجماعة المتقلبة بمثله .

ومتى حصلت للشعب روح اوثية مستقرة بتعاقب الازمان فان هذه الروح تتغلب دائماً على روح الجماعة .

ويختلف الشعب عن الجماعة بتركبه من زمر ذات منافع ورغائب مختلفة وبما يوجد في الجماعة من افراد ينتمون الى طبقات اجتماعية متباينة .

يظهر الشعب احياناً كالجماعة بمظهر المتقلب ولكن لايغيبن عن بالنا انه يوجد وراء تقلبه وحماسته ومظالمه وهدمه غرائز ثابتة متأصلة تدعمها روح العرق . وقد اثبت تاريخ الثورة الفرنساوية وتاريخ العصر الذي بعدها كيف تتغلب الروح الثابتة على روح التخريب في نهاية الامر وما اكثر المرات التي جدد فيها الشعب حالاً بناء ما هدمه من الانظمة .

ولايسهل التأثير في روح الشعب اي روح العرق كما يسهل في

روح الجماعات لأن وسائل التأثير في روح الشعب تسير معوجة بطيئة كالجرائد والمحاضرات والخطب والكتب ويمكن رد عناصر الاقناع في هذا الباب الى العناصر التي وصفناها سابقاً وهي التوكيد والتكرار والنفوذ والعدوى .

قد تنسال العدوى النفسية فجأة شعباً باسره ولكنها لا تسري في الغالب من فريق الى آخر الا رويداً رويداً فهكذا انتشر الاصلاح الديني في فرنسا . ومع ان الشعب يهيج اقل من الجماعة فان بعض الحوادث كشتمه وتهديده بالغزو قد تثيره بغتة وقد شوهد ذلك اكثر من مرة ايام الثورة الفرنساوية ولا سيما وقتما توعد (دوك برونسويك) الامة الفرنساوية جاهلا نفسيتها . فلم يضر بذلك لويس السادس عشر وحده بل أضر نفسه اذ جرت مداخلته الى قيام جيش لمقاتلته .

ويشاهد انفجار مشاعر العرق فجأة عند جميع الامم ولم يدرك نابليون مافي هذه المشاعر من القوة وقتما اغار على اسبانيا و روسيا ان الفلاح الروسي كان على التحقيق خلواً خشناً سخيفاً ولكنه لما علم بغارة نابليون تطورت صفاته . ويمكن استجلاء ذلك من العبارة الآتية التي نقتطفها من رسالة اليصابات زوجة القيصر اسكندر الاول واليك اياها :

«لقد التهبت القلوب في روسيا منذ اخترق نابليون ثغورنا ولو أن الخبر عمّ جميع انحاء الدولة في آن واحد لخرج صوت هائل من السخط يرن صداه في اقصى حدود العالم على ما اعتقد وكان كلما اوغل نابليون في البلاد يعظم ذلك الشعور، وصار الشيوخ الذين اضاعوا اموالهم يقولون «سنجد ما نسد به خلتنا وكل شيء افضل عندنا من صلح مخز» واصبحت النساء اللواتي لهن ازواج في الجيش لا ينظرن الى ما يحيق بهم من الاخطار الا كأمر ثانوي ولا يخشين الا الصلح لان هذا الصلح الذى هو قضاء على روسيا بالموت غير ميمون، وكل ذلك لم يخطر ببال القيصر ولو اراده لما قدر عليه فهذا ما في بلادنا من البطولة.»

ولقد قصت الامبراطورة المذكورة على والدتها الحادثين الآتيين اللذين يستدل بهما على درجة ما في نفوس الروس من المقاومة:

«جذب الفرنساويون في موسكو بعض نساء الفلاحين ليستخدموهم في جيشهم ووسموهم في يدهم كما توسم الخيل لكيلا يفروا الا أن احدهم سأل عن ما تدل عليه هذه السمة فأجيب بانها تدل على كونه جندياً فرنساوياً فصرخ حينئذ قائلا «يا عجبا أأكون من جنود امبراطور فرنسا» ثم تناول فأساً وقطع بها يده ورماها

على ارجل الحضور قائلا : خذوا سمتكم هذه »

« وقبض الفرنساويون في موسكو على عشرين فلاحاً ليجعلوهم عبرة يخيفون بها القرى التي كانت تختطف الرواد الفرنساويين مجيدة القتال كالكتائب المنظمة فصفوهم بالقرب من حائط وقرأوا عليهم حكم القتل باللغة الروسية وكان الفرنساويون ينتظرون ان يطلب هؤلاء العفو الا أنهم بدلاً من ذلك طلبوا اليهم ان يمهلوهم ليصلبوا ثم اطلقوا الرصاص على الاول منتظرين ان يخاف الآخرون فيسألوا العفو و يعدوا بتغير سلوكهم ، ثم اطلقوا الرصاص على الثاني والثالث وعلى من بقي من العشرين دون ان يستمطر واحد منهم رحمة العدو . »

وتكون الروح الشعبية عند جميع الشعوب مشبعة بخلق التدين دائما فالشعب يعتقد بوجود كائنات علوية — كالآلهة او الحكومات او اعاظم الرجال — قادرة على تحويل الامور كيفما تريد . ويورث هذا الخلق عند الشعب ميلا شديداً الى العبادة فيحتاج الى معبود سواء أكان رجلا ام مذهباً ويتطلب عندما تخيفه الفوضى مسيحاً منقذاً .

والشعوب تنتقل كالجماعات من العبادة الى الحقد الا ان انتقالها هذا يقع رويداً رويداً فقد تلعن اليوم من عبدته في الماضي وهذا

التبدل في الآراء الشعبية يشاهد في جميع البلاد مثال ذلك تاريخ كرومويل[١]

٣ — شأن الزعماء في الحركات الثورية

ذكرنا ان جميع الجماعات متجانسة كانت ام متباينة وجميع المجالس والامم والاندية تعجز عن السير اذا لم يكن عليها سيد يقودها، وبينت في كتاب آخر — مستعيناً ببعض تجارب علم وظائف الاعضاء — ان روح الجماعة اللاشاعرة ترتبط بروح زعيمها فهو الذي يمنحها ارادة واحدة ويُلزمها بالطاعة المطلقة .

يؤثر الزعيم في الجماعة بالتلقين خاصة ويتوقف نجاحه على طريقة تلقينه وقد اثبتت التجارب الكثيرة ان تلقين الجماعة سهل جداً .

والجماعة تكون بحسب انواع التلقين اما هادئة او هائجة او مجرمة او ذات بطولة وهذه الاحوال وان جاز ان تكون ذات مظهر عقلي فانه ليس فيها من العقل سوى الظواهر ، فلما كانت الجماعة لا تتأثر بالمعقول فان الافكار المؤثرة فيها هي المشاعر التي يؤتى بها على شكل الاخيلة .

---

(١) لقد دفن كرومويل كما يدفن الملوك بعد ان اسقط اسرة مالكة ورفض تاج الملك ولكنه لم يمض عامان على موته حتى انتزع جسده من قبره وقطع الجلاد رأسه معلقاً اياه على باب البرلمان .

و يدلنا تاريخ الثورة الفرنساوية على سهولة اتباع الجماعات لما يأتي به الزعماء من التحريض المتناقض ، فهي قد هتفت لفوز الجيرونديين والايبريين والدانطونيين و رجال الهول الاكبر كما هتفت لسقوطهم .

ولا يشاهد شأن الزعماء بعد تقادم العهد الابصورة ملتبسة لانهم يسيرون سراً ولذلك يجب لاستجلاء هذا الشأن ان يبحث عنه في الحوادث الحديثة إذ تبدو حينئذ سهولة تحريك الزعماء للناس ولا نشير هنا الى اعتصابات موظفي البريد والمعدنين التي قد يقال بان الباعث عليها هو استياؤهم بل نشير الى الحوادث التي لا منفعة للجماعة فيها كالهرج الذي اوجبه بعض زعماء الاشتراكية بين سكان باريس في اليوم الثاني من اعدام الفوضوي (فيريز) في اسبانيا . لم يسمع الناس في فرنسا قبل ذلك شيئاً عنه وما شعر احد باعدامه في اسبانيا الا أن تحريض بعض الزعماء في باريس كفى لسوق جيش شعبي على السفارة الاسبانية بقصد احراقها وهذا ما أدى الى استخدام حامية لحمايتها ، ولما دفع المهاجمون عنها اقتصروا على تخريب بعض المخازن لانشاء بضعة متاريس .

وقد اتى الزعماء في ذلك الوقت بدليل جديد على تأثيرهم فلما أحسوا بان احراق سفارة اجنبية امر ذو خطر اشاروا الى الجماعة

في اليوم الثاني باقامة مظاهرة سلمية فاطاعتهم كما فعلت وقتما أمروها بالتمرد ولا يوجد ماهو احسن من هذا المثال لاثبات شأن الزعماء وطاعة الجموع . واما المؤرخون — من ميشيليه الى الموسيو اولار — الذين قالوا بان الجماعات الثورية تسير بدون زعماء فقد جهلوا نفسيتها .

الفصل الخامس

روح المجالس الثورية

١ — الصفات النفسية للمجالس الثورية الكبيرة

ان المجلس السياسي الكبير — كالبرلمان مثلاً — هو جماعة وقد تكون هذه الجماعة ذات فاعلية قليلة اذا تناقضت مشاعر مافيها من الاحزاب، وقد تعتبر هذه الاحزاب المختلفة مصالحها مجلساً ذا جماعات متباينة خاضعة الى زعمائها فلا يتجلى ناموس الوحدة النفسية للجماعات حينئذ الافي كل حزب على حدته، والظروف الاستثنائية وحدها هي التي تجمع بين عزائم تلك الاحزاب .

لكل حزب من احزاب المجلس كيان يفنى فيه محدثوه فيصوتون فيه لخلاف ما يعتقدون وما يريدون . ولقد احتج (فيرنيو) ساخطا على فكرة الحكم بالاعدام على لويس السادس عشر ولكنه صوت لها في اليوم الثاني من احتجاجه .

ويؤثر الحزب خاصة في تثبيت ما تردد من الآراء فيصبح ايمان كل شخص ضعيف قوياً عندما يصير جموعيا .

ويستطيع ذوو النفوذ من الزعماء ان يؤثروا احيانا في جميع

احزاب المجالس فيكونوا منها جماعة واحدة ، ولقد أثر عدد يسير من مثل هؤلاء الزعماء على اعضاء مجلس العهد فجعلوهم يأتون بما يناقض آراءهم من الاعمال .

اذعنت الجماعات في كل زمان الى الطواغيت الاشداء فاثبت لنا تاريخ المجالس الثورية مقدار فزع هذه المجالس من زعماء الفتن مع تطاولها باللسان على الملوك فكانت تصوت في جلسة واحدة لأكثر الامور مناقضة للمعقول خشية من إغارة فئة متخبطة يقودها زعماء جبارون .

وعند ما يحصل للمجلس ما للجماعة من الصفات فانه يصبح مثلها ذا مشاعر متطرفة اي انه يصير مسرفاً في قوته كما انه قد يصير مسرفاً في جبنه ويكون عاتياً مع الضعفاء ذليلا امام الاقوياء

فالكل يعلم ما استحوذ على البرلمان من الخوف وقتما دخل عليه الشاب لويس الرابع عشر والسوط بيده ليلقي خطابه كما ان الكل يعلم ما عامل به المجلس التأسيسي لويس السادس عشر من الوقاحة كلما كان يشعر بانه ضعيف أعزل ، وما ذعر رجال العهد ايام روبسبيير بأمر مجهول .

ولما كانت صفات المجالس المذكورة سنة عامة صار من الخطأ النفسي العظيم ان يدعو الملك عند ما تهن قوته مجلساً للاجتماع فقد

أدى اجتماع المجلس النيابي الى اعدام لويس السادس عشر وأضاع هنري الثالث عرشه عند ما اضطر الى مغادرة باريس وجمع المجلس النيابي في (بلوا) . إذ عند ما احس هذا المجلس بضعف الملك اخذ في الحال يتكلم كسيد فغير الضرائب وعزل الموظفين وادعى بان لقراراته ما للقانون من القوة .

شوهد الغلو في المشاعر بين جميع مجالس الثورة الفرنساوية فابتلع المجلس التأسيسي الذي كان في البداية يحترم سلطة الملك وامتيازاته السيادة رويداً رويداً ثم صرح بانه هو الحاكم وشرع يعامل لويس السادس عشر كموظف بسيط وجاء مجلس العهد بعده فكان في اول الامر معتدلاً ثم دخل في الطور الاول من دور الهول فكانت احكامه محفوفة ببعض الضمانات القانونية الا انه لم يلبث ان أفرط في سطوته فسن قانوناً حرم به المتهمين من حق المدافعة وسمح بالحكم عليهم عند الشبهات ، وقد أدى تدرجه في سفك الدماء الى اقتتال اعضائه فاعدم الجلاد الجيرونديين ثم الايبريين ثم الدانطونيين ثم الروبسبيريين .

وتوضح لنا سرعة التقلب في مشاعر المجالس سبب كونها لا تتصرف بمقادير ها الاقليلاً وانها تأتي بنتائج مخالفة لمقاصدها ، فقد ساق المجلس التأسيسي المؤلف من الحزب الكاثوليكي والحزب الملكي

فرنسا الى جمهورية عنيفة بدلا من الملكية الدستورية التي كان يريد ان يؤسسها كما ساقها الى اضطهاد الا كليروس بدلا من إعلاء الديانة التي كان يود ان يدافع عنها .

رأينا ان المجالس السياسية تتركب من احزاب متباينة ولكنه يوجد مجالس متجانسة كبعض الاندية التي كانت ذات شأن عظيم ايام الثورة الفرنساوية والتي تستحق ان يبحث عن روحها بحثاً خاصاً .

٢ — روح الاندية السياسية

تختلف الجمعيات الصغيرة — ذات الآراء والمعتقدات والمنافع الواحدة — عن المجالس الكبيرة بوحدة مشاعرها وعزائمها ، وهذه هي حالة البلديات والمجامع الدينية وطوائف اصحاب الحرف في العهد السابق وحال الاندية ايام الثورة الفرنساوية وحال الجمعيات الخفية في النصف الاول من القرن التاسع عشر ثم حال الماسونيين ونقابات العمال في الوقت الحاضر .

ويقتضي لادراك سير الثورة الفرنساوية ان يبحث عن الفرق بين المجلس المتباين وبين النادي المتجانس ، فالاندية هي التي سيطرت على الثورة الفرنساوية حتى عهد الديكتوار وهذه السيطرة كانت بارزة في دور العهد .

ان الاندية تخضع لنواميس روح الجماعات رغم وحدة عزائمها الناشئة عن فقدان الاحزاب فيها، فهي تستكين للزعماء كما شوهد في النادي اليعقوبي الذي كان يقوده روبسبيير

ويكون تأثير الزعيم في النادي اي في الجماعة المتجانسة اكثر صعوبة من تأثيره في الجماعة المتباينة فيسهل في قيادة الجماعة المتباينة ان يهتز عدد قليل من اوتارها واما في الجماعة المتجانسة كالنادي مثلا حيث تكون المشاعر والمنافع واحدة فيقتضي مداراة هذه المشاعر والمنافع ولهذا قد يصبح الزعيم مساقاً .

وللجماعات المتجانسة في خفائها قوة عظيمة ومن الامور المعلومة انه كفى ايام (الكومون) عام ١٨٧١ بضعة أوامر خفية لاحراق اجمل ابنية باريس كدار البلدية وقصر التويلرى وديوان المحاسبة وبيت جوقة الشرف . كان امر اللجنة الخفية الوجيز كقولها (احرقوا بيت المال واحرقوا قصر التويلرى ... الخ) ينفذ حالا، والصدفة هي التي انقذت وقتئذ قصر اللوفر وما فيه من التحف . ومن الامور المعلومة ايضا ان يصغي الآن باحترام الى الاوامر التي يصدرها رؤساء نقابات العمال الخفيون رغم مخالفة هذه الاوامر للصواب . ولم يكن الانقياد لاندية باريس وللهيئة الثورية المتمردة بأقل من ذلك ايام الثورة الفرنساوية فكان أمرٌ واحد منها يكفي سوق رعاع مسلحين

على المجلس التشريعي كي يملوا عليه رغائبهم .

وسوف نرى عند ما نلخص تاريخ العهد في فصل آخر كثرة هذه الغارات وانقياد هذا المجلس — الذى وصفته الاقاصيص بشدة البأس — لاوامر عصابة من الغوغاء . ولما حنكت التجارب رجال الدير كتوار اغلقوا الاندية وقضوا على غارات الرعاع بقتلهم رمياً بالرصاص .

لم يلبث مجلس العهد ان علم بأفضلية الجماعات المتجانسة في الحكم على المجالس المتباينة وهذا هو سبب انقسامه الى لجن تشتمل كل واحدة منها على عدد يسير من الاعضاء وهذه اللجن كلجنة السلامة العامة ولجنة المالية الخ اصبحت مجالس صغيرة حاكمة ضمن المجلس الكبير ، وما احبط سلطتها الا لمطة الاندية .

تدلنا الملاحظات السابقة على ما للجماعات من التأثير في إرادة اعضائها ، فاذا كانت الجماعة متجانسة فيكون هذا التأثير عظيما ويكون اقل من ذلك اذا كانت متباينة ولكنه قد يكون عظيما إما لتغلب الجماعات النافذة في المجلس على الجماعات الضعيفة الالتحام ام لانتشار بعض المشاعر بالعدوى بين اعضاء المجلس .

واحسن مثال على تأثير الجماعات هو تصويت الاشراف في الليلة الرابعة من شهر اغسطس (ايام الثورة الفرنساوية) لاقتراح احدهم

القائل بالتنزل عن امتيازاتهم الاقطاعية ، على ان الثورة الفرنساوية نشأت من بعض الوجوه عن تمسك الاكليروس والاشراف بامتيازاتهم والسبب في عدم تنزلهم عنها بادىء الامر هو اتباعهم للسنة القائلة بان سلوك الناس وهم في الجماعة يخالف سلوكهم وهم منفردون ، ولو سُئل كل شريف وهو منفرد عن رأيه لأجاب وقتئذ بانه لا يتنزل عن حقوقه أبداً .

اورد نابليون وهو في جزيرة القديسة هيلانه أمثلة عجيبة على تأثير المجالس في اعضائها فقال : « لم يوجد في ذلك الوقت ما هو اكثر من مصادفة اشخاص هم على خلاف ما سمع عن اقوالهم وافعالهم . خذ (مونج) مثلاً تر انه صعد على منبر اليعاقبة لما اختير الحرب وصرح بانه يهب ابنتيه سلفاً للجنديين الاولين اللذين يجرحهما العدو وكان يود ان يُقتل جميع الاشراف..الخ مع أنه من اكثر الناس دماثة واشدهم ضعفاً ولو اضطر الى ذبح فروجة لما فعل ذلك ولما سمح بان يفعل ذلك أمامه . »

٣ — ايضاح اشتداد المشاعر التدريجي في المجالس

لو امكننا ان نقيس مشاعر الجماعات قياساً رياضياً دقيقاً لاستطعنا ان نشرحها على خط منحن يصعد من طرفه الاول ببطء ثم بسرعة ثم يهبط نحو طرفه الثاني عمودياً ويمكن ان تسمى معادلة هذا المنحني

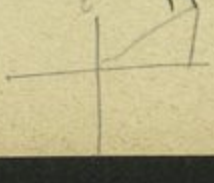

بمعادلة تحولات مشاعر الجماعات المحرضة تحريضاً مستمراً .

وليس من السهل ايضاح سرعة المشاعر الناشئة عن علل مستمرة ولو كانت سنن علم النفس مشابهة لسنن علم الميكانيك لجاز لنا ان نعتبر ان علة ثابتة المقدار مستمرة التأثير تزيد في سرعة المشاعر ، فمن المسائل المعلومة ان قوة ذات مقدار ثابت واتجاه مستمر كالجاذبية المؤثرة في احد الاجرام تحدث في الجرم حركة متزايدة السرعة فتكون سرعة الجرم الساقط في الفضاء بتأثير الجاذبية عشرة أمتار في الثانية الاولى وعشرين متراً في الثانية التالية وثلاثين متراً في الثانية الثالثة وهكذا يسهل علينا ان نمنح الجرم عند ما نسقطه من العلاء سرعة كافية لخرق صفيحة من الفولاذ .

غير ان هذا الايضاح الذي يمكن تطبيقه على سرعة المشاعر التابعة لمؤثرات مستمرة لا يوضح لنا سبب كون هذه المؤثرات تصبح بغتةً عديمة التأثير . لا يمكن ادراك هذا التوقف الا اذا استعنا بشروح علم وظائف الاعضاء اي الا اذا تذكرنا ان للذة والألم حدوداً لا يمكن اجتيازها وانه ينشأ عن كل تحريض شديد شلل في الحس فاعضاؤنا لا تتحمل الا كمية معينة من الفرح والالم والمجهود فاليد التي تشدد على مقياس القوة لا تلبث ان تستنفد مجهودها فتضطر فجأة الى الكف عن مسكه .

ويجب - قياساً على ذلك — في البحث عن علة اختفاء بعض المشاعر بغتة في المجالس ان نسلم بوجود احزاب ذات مشاعر ردعتها قوة الحزب المتسلط عن النمو ، ولكنه عند ما يضعف الحزب المتسلط لسبب من الاسباب فان مشاعر الاحزاب المخالفة قد تشتد وذلك كما وقع للمونتانياريين بعد الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية

إذاً فمن الخطأ الجلي ان نقايس بين نواميس الحوادث المادية وبين نواميس تطور عناصر العاطفة وعناصر التدين .

الجـــزء الثاني

الثورة الفرنساوية

البـــاب الاول

مصادر الثورة الفرنساوية

الفصل الاول

آراء المؤرخين في الثورة الفرنساوية

١ — مؤرخو الثورة الفرنساوية

تضاربت الآراء في الثورة الفرنساوية ، وبالرغم عن مضي عصر واحد عليها فان الناظر يرى ان البحث عنها والحكم فيها بلا غرض أمران مستحيلان ، فهي عند (روميستر) « عمل شيطاني » حيث قال « ان تأثير الشياطين لم يظهر في اي حين بجلاء كما ظهر فيها » وهي عند اليعاقبة مجددة للنوع البشري .

واما الاجانب المقيمون في فرنسا فيعدونها امراً اجتنب الخوض فيه . قال باريت ونيدل :

« لا تزال تلك الذكرى والتقاليد حية في النفوس ولا يبحث عنها بلا محاباة سوى أناس قلائل ، وبما انها تبعث الآن في النفوس حماسة وموجدة فلا ينظر اليها الا بعين التشيع والتحزب ، وكلما تتوصلون الى ادراك كنه فرنسا تحكمون بانه لم يبرز بعد بحث خال من الغرض عن الثورة الفرنساوية لأي فرنساوي » .

ان هـذه لملاحظة مطابقـة للصواب فيجب لتفسير حوادث الماضي تفسيراً عادلاً ان لا يبقى لهـا تأثير في النفوس وان لا تتعلق بالمعتقدات السياسية او الدينية التي أشرت الى عدم تسامحها الجبرى

إذاً فلا يوجد ما يورث العجب لابداء المؤرخين آراء متناقضة في الثورة الفرنساوية وسيظل بعضهم ينظر مدة طويلة اليها كحادثة كثيرة الشؤم كما سينظر البعض الآخر اليها كحادثة مجيدة . ظن بعضهم انهم رووها بانصاف وانهم لم يفعلوا سوى طرح القضايا المتناقضة البعيدة عن الصواب جانباً ، والواقع انه لما كانت الوثائق عديدة متباينة فان ما اختاروه منها بقصد او بغير قصد بَرَّر بسهولة ما أبرزوه من القضايا .

وقد نسي الناس اليوم مؤرخي الثورة الفرنساوية السابقين كتيار، وكينه وميشيليه بعض النسيان على ما اتصف به هذا الاخير من سمو القريحة إذ يوجد في آرائهم شيء من التعقيد ويتغلب عليها مبدأ القـدر التـاريخي . كان (تيار) يعد الثورة الفرنساوية نتيجة لعصور الملكية المطلقـة ويعد الهول الاكـبر نتيجةً لازمة لغـارة الاجنبي ، ومع ان (كينيه) اعتبر ماحدث عام ١٧٩٣ من الاضطهادات نتيجة لاستبداد قديم فانه رأى ان لا فائدة في مظالم دور العهد التي عاقت الثورة الفرنساوية عن اتمام عملها واما (ميشيليه) فلم ير

في هذه الثورة سوى عمل شعبي جدير بالاعجاب والتمجيد.

وقد محا (تاين) كثيراً من نفوذ هذه التواريخ وهو مع حدة بيانه اوضح كثيراً من حقائق الثورة الفرنساوية وسوف لا يمضي زمن قصير حتى يصبح كتابه مرجعاً لا يسد مسده اى كتاب.

ولا يخلو كتاب مهم مثل كتابه من عيوب لأنه وان أجاد في نصه على الحوادث والاشخاص فقد حكم بمنطقه العقلي على حوادث لم يملها العقل ولا يستطيع العقل ان يفسرها. نعم اجاد الوصف بعلمه النفسي ولكن تفسيره كان ضعيفاً جدا فهو بأثباته غطرسة (روبسبيير) لم يكتشف علة سلطان هذا الاخير على مجلس العهد الذى قتل كثيراً من اعضائه في عدة اشهر ولذلك اصاب من قال ان تاين احسن المشاهدة واساء الفهم.

ان كتاب تاين بالرغم عن ما فيه من النقص عظيم الشأن ولم يوجد ما يعادله ويمكن تقدير ما لهذا الكتاب من النفوذ الواسع عند الاطلاع على ما اوجبه من الغيظ في قلوب انصار المذهب اليعقوبي المخلصين الذين يرأسهم الآن احد اساتذة (الصوربون) الموسيو (اولار). كرس هذا الاخير عامين لتأليف رسالة ضد (تاين) مشبع كل سطر منها بروح الغضب وان ما اسرفه من الوقت لتصحيح بضعة اغلاط مادية طفيفة في كتاب (تاين) لم يصنه عن ارتكاب مثلها

فقد اظهر الموسيو (كوشان) ان الموسيو اولار ضل في نصف اسانيده مع ان تاين لم يضل بهذا القدر ثم نبه هذا المؤرخ الى وجوب الارتياب في مصادر الموسيو اولار كثيراً حيث قال :

« ان هذه المصادر المؤلفة من تقارير وصحف ورسائل لا أصدق دليل على الروح الوطنية في ذلك الزمن إذ كتب اكثرها غلاة الوطنية لاجل الجمهور الذي كان يجد مكتوبا فيها قضية الدفاع وتاريخاً للثورة الفرنساوية دالاً على اعمال الشعب منذ مذابح ايلول حتى قانون الشهر التاسع من السنة الجمهورية ومحتوياً ايضاحاً عن طريقة الدفاع الجمهوري » .

واحسن انتقاد على كتاب تاين هو القول بانه ناقص . وقد بحث فيه خاصة عن شأن الرعاع وزعمائهم ايام الثورة الفرنساوية فأملى ذلك عليه صحائف سخط لا تزال داعية للعجب ، الا ان وجوهاً كثيرة من هذه الثورة غابت عنه .

ومهما كان امر الثورة الفرنساوية فان اختلافاً شديداً سيستمر بين من ينتمي الى مذهب تاين ومذهب الموسيو اولار لأن اولار يعتبر الشعب الحاكم باهراً مع ان تاين اثبت ان الشعب لما ترك يسير بغرائزه وحرر من الزواجر الاجتماعية عاد الى دور الهمجية الاولى ولا يزال رأي الموسيو اولار المخالف لتعاليم روح الجماعات مذهباً دينياً عند اليعاقبة في الوقت الحاضر ، فهؤلاء ينهجون فيما يكتبونه عن الثورة الفرنساوية طرق المعتقدين وبراهينهم وينتحلون في

المصنفات العلمية أدلة علماء اللاهوت .

٢ – نظرية القضاء والقدر في الثورة الفرنساوية

يقول انصار الثورة الفرنساوية واعداؤها في الغالب بأن الحوادث الثورية مقدرة وقد لخص هذا الرأي في العبارة الآتية التي جاءت في كتاب « تاريخ الثورة الفرنساوية » تأليف إميل اوليفيه :

« ليس باستطاعة احد ان يقاومها وما من لوم يلحق من قتل او عاش في غضونها فالقدرة الشخصية عاجزة عن تبديل العناصر ومنع وقوع الحوادث الناشئة عن طبيعة الاحوال والظروف » .

ومال تاين ايضاً الى مثل ذلك فقال :

« لم يكن سير الافكار والحوادث عند ما افتتح المجلس النيابي مقدراً فقط بل كان منظوراً فكل جيل يحمل معه مستقبله وتاريخه من غير ان يعلم »

ويوجد مؤلفون آخرون في الوقت الحاضر لا يصفحون كثيرين عن الاضطهادات الثورية ويقولون مثله بالقضاء والقدر ، فبعد ان نقل الموسيو (صوريل) كلمات (بوسيه) الآتية التي قالها في الثورات القديمة وهي : « ان من الغريب ان لا ينظر الا الى العلل الخاصة مع ان كل شيء يقع على سياق منظم » اعرب عن عزمه على « اثبات كون الثورة الفرنساوية التي تبدو الى بعض الناس كهادمة للعالم الاوروبي الشائخ والى البعض الآخر كمجددة لشبابه هي نظام طبيعي ضروري لتاريخ اوروبا » وعلى « بيان كون نتائج هذه الثورة

صادرة عن هذا التاريخ وانه لا يمكن ايضاحها الا بسوابق العهد المتقدم »

وحاول (كيزو) ايضاً ان يثبت ان الثورة الفرنساوية - التي اخطأ في المقايسة بينها وبين الثورة الانكليزية - امر طبيعي وانها لم تبتدع شيئاً فقال :

« لم تقطع الثورة الانكليزية ولا الثورة الفرنساوية سير الحوادث الطبيعي في اوروبا ولم تقولا شيئاً لم يقل ولم تريدا شيئاً لم يرغب فيه ولم تفعلا شيئاً لم يفعل مئة مرة قبل انفجارها . فاذا نظرنا الى مذاهب هاتين الثورتين او الى تطبيقها اي سواء أنظرنا الى شكل الحكومة ام الى التشريع المدني ام الى الاموال ام الى الاحوال الشخصية ام الى الحرية ام الى السلطة لما وجدنا شيئاً ابتدعتاه ولم نصادفه في الاوقات الاعتيادية »

وكل هذه الاقوال تذكرنا بالناموس المبتذل القائل بان الحادثة هي نتيجة لحادثة سابقة الا ان مثل هذا الناموس لا يدلنا الا على شيء قليل .

لا يجوز ايضاح كثير من الحوادث بمبدأ (القدر التاريخي) الذي رضي به كثير من المؤرخين وقد بحثت في كتاب آخر عن قيمة هذه الاقدار فأثبت ان مجهود الحضارة يتوقف على تفكيك عراها . لا ريب ان التاريخ مفعم بامور وقعت بحكم الضرورة ولكنه مفعم ايضاً بامور وقعت عرضاً وكان يمكن ان لا تقع . ذكر نابليون بونابارت وهو في جزيرة القديسة هيلانه ستة ظروف قادر كل منها

على منعه عن القيام بمهمته الخارقة للعادة فحدث خاصةً انه لم ينج من الموت عند ما كان يستحم في (اوكصون) عام ١٧٨٦ الا بلقائه على سبيل الصدفة كثيباً ولومات نابليون بونابارت في تلك الساعة وقلنا ان قائداً آخر يظهر حينئذٍ ليقبض على زمام الحكم المطلق فماذا يكون مذكوراً في القصيدة الامبراطورية الحماسية بدلاً عن ذلك الداهية الذى قاد الجيوش الفرنساوية ظافرة لفتح جميع عواصم اوروبا؟

يجوز ان نعتبر الثورة الفرنساوية كحادث ضرورى من بعض الوجوه ولكنها كانت على الخصوص صراعاً بين النظريين المشبعين بالخيال الجديد وبين ما لم يدركوه من النواميس الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المسيرة للبشر، وهذا الجهل جعلهم يحاولون في غير جدوى التغلب على سير الامور ولما اشتد غضبهم لفشلهم اضطهدوا الناس وأمروا بان يكون للورق النقدى ما للذهب من القيمة ولم يمنع ما أتوا به من الوعيد هذه القيمة الوهمية من السقوط العظيم، ثم سنوا قانون القصاص الشديد الذى زاد ما أرادوا تلافيه من الاجرام، وقد صرح روبسبير في مجلس العهد:

« انه سينفق على جنود الثورة من ما سيمد به الاغنياء بيت المال »

ولكن بيت المال ظل فارغاً رغم التفتيش والمقصلة .

اكتشف رجال الثورة الفرنساوية بعد ان كسروا جميع

الزواجر ان المجتمع لا يعيش بغيرها ولما أرادوا صنع زواجر جديدة رأوا ان أقوى ما يبدعونه منهـا — حتى التي تقوم على الخوف من المقصلة — لاتسد مسد الأدب الذى غذى المـاضي به النفوس رويداً رويداً .

إذاً فحوادث الثورة لم تنتج عن مقتضيات ثابتة بل كانت نتيجة لمبادىء اليعاقبة وكان يمكن ان تكون شيئاً آخر ، أفلا يكون سير الثورة الفرنساوية خلاف ما وقـع لو دُعي لويس السادس عشر بالحكمة والموعظة الحسنة او لو كان المجلس التأسيسي أقل جبناً أزاء فتن الرعاع ؟

يجب الارتياب من ما ينطوى تحت كلمة القدر من الجهل سواء أفي الابحاث التاريخية ام في الابحاث العلمية ، فقدكانت الطبيعة حافلة بالاقدار التي توصل العلم الى تبديدها ببطء ولا يفعل اعاظم الرجال كما أشرت في موضع آخر سوى ذلك التبديد .

٣ — سلوك المؤرخين في الثورة الفرنساوية

ظهر المؤرخون الذين اشرنا الى افكارهم في هذا الفصل بمظهر الجازم البات ولم ينفذوا الى دائرة العـلم والمعرفة لحصر انفسهم في دائرة المعتقد فالكاتب الملكي منهم شديد الحقد على الثورة الفرنساوية والكاتب المتمذهب بمذهب الحرية كثير التحزب اليهـا . غير اننا

نشاهد الآن حركة ستؤدي حتماً الى درس الثورة الفرنساوية كاحدى الحادثات العلمية التي ليس لآراء المؤلف ومعتقداته فيها سوى تأثير قليل لا يشعر به القارىء .

لم يأت هذا الزمن بعد ولم نر سوى بزوغ فجر الشك الذى يتقدمه : فقد شرع كثير من الكتاب الذين كانوا قاطعين بما يؤلفون لا يبتون في مؤلفاتهم ويمكن لاطلاع على هذه الذهنية الجديدة من العبارات الآتية التي اقتطفناها من كتب المتأخرين :

تساءل الموسيو (هانوتو) بعد ان اثنى على الثورة الفرنسوية عما إذا كانت نتائجها لم تكلف ثمناً غالياً ثم قال :

« سيتردد التاريخ زمنا طويلا قبل ان يعطى حكمه في ذلك »

وابدى الموسيو (مادلان) في كتابه الذى بحث فيه عن الثورة الفرنساوية تردداً مثل ذلك فقال :

« لم ار في نفسي قدرة على اعطاء حكم بات في حادثة معقدة كالثورة الفرنساوية ولا أزال استصعب الاتيان بأي حكم فيها وعندي ان عللها واعمالها ونتائجها هي امور تتطلب مباحثات كثيرة بعد » .

ويظهر ايضاً تطور الافكار القديمة الاخير في الثورة الفرنساوية عند تصفح ما يكتبه مدافعوها الرسميون الآن . فبعد ان كانوا يبررون ما جرى فيها من الاضطهادات قائلين بأنها دفاعية اخذوا يدافعون

عنها طالبين احكاماً مخففة فيها ، والدليل على هذه الحالة الروحية ما جاء في كتاب (تاريخ فرنسا) الذي ألفه الموسيو (اولار) والموسيو (دوبيدور) حديثاً ليدرس في المدارس ، واليك العبارة الآتية التي جاءت في بحثهما عن دور الهول الاكبر :

« نعم سالت الدماء منهمرة في الثورة الفرنساوية واقترفت فيها مظالم وجرائم منكرة غير نافعة للدفاع الوطني ولكن النفوس استولت في هذه الزوبعة فكان رجال الوطنية الذين تحف بهم الاخطار يزهقون النفوس والسخط آخذ منهم كل مأخذ » .

وسنرى في جزء آخر من هذا الكتاب ان الموسيو (اولار) قليل التسامح مع « غيلان العهد » رغم تعصبه لليعقوبية .

واما احكام الاجانب في الثورة الفرنساوية فقاسية على الاطلاق ولا عجب من ذلك عند ما تتذكر ما اوجبته انقلاباتنا من المحن في اوروبا مدة عشرين سنة ، واحكام الألمان هي الأشد قساوة وقد لخصها الموسيو (فاكيه) في السطور الآتية :

« فلنقل رابطي الجأش وطنيين — واول شروط الوطنية ان يبلغ الانسان أمته حقيقة الامر — ان ألمانيا عدت فرنسا في الماضي امة اضطهدتها وازدرتها واثخنت فيها ونهبتها وبلعتها مدة خمس عشرة سنة ماضغة في فمها كلمتي الحرية والاخوة وتعتبرها في الوقت الحاضر أمة تقيم تحت شعار هاتين الكلمتين دموقراطية مستبدة ، ظالمة ، مزعجة ، مخربة غير صالحة ليقتدي بها احد ، هذا كل ما تراه المانيا في فرنسا وهذا ما تشير اليه جرائدها وكتبها . »

ونرى ان كتاب المستقبل سيعدون الثورة الفرنساوية حادثا مؤثراً اذا عبر مهما كانت قيمة الاحكام التي قيلت فيها. فحكومة أدى حبها لسفك الدماء الى قطع رؤوس شيوخ جاوزوا حد الثمانين ورؤوس كثير من الاطفال والفتيات، وحكومة مع تخريبها فرنسا قدرت على دفع غارة اوروبا المدججة بالسلاح، واميرة من بيت الملك في النمسا قطع رأسها بعد ان كانت ملكة فرنسا، وأميرة اخرى من أقربائها قامت مكانها بعد ان تزوجت بامبراطور كان ضابطاً، كلها حوادث فاجعة لم يرو التاريخ مثلها. ولعلماء النفس في هذه القصة التي لم يقتلوها تمحيصاً فوائد كثيرة إذ بها يكتشفون ان علم النفس لا يتقدم الا إذا عدلوا عن النظريات الوهمية وعن تجارب المختبرات واخذوا يبحثون عن ما يحيط بنا من الحوادث والموجودات [1]

---

(١) ان المسبب لهذه النصيحة هو عدم بحث علماء النفس عن العالم المحيط بهم الا قليلا. وكثيراً ما يستعجبون من البحث عنه. وقد وجدت برهاناً على هذه الذهنية الضيقة في انتقاد المجلة السياسية على احد مؤلفاتي. لامي المنتقد «لتنقيبي في العالم والجرائد اكثر من الكتب». ارضى بهذا اللوم لأنني ارى ان ما يرد في الجرائد من الحوادث المختلفة وما يشاهد في العالم من الحقائق اكبر فائدة من ما يجيء في مجلات الفلسفة وما بعد الطبيعة من المعارف النظرية. على ان الفلاسفة اخذوا يشعرون بما في هذه الابحاث من الخطل قال وليام جيمس:

٤ – الانصاف في التاريخ

عُدَّ خلق الانصاف صفة جوهرية للمؤرخ منذ القديم ولذلك ادعى المؤرخون منذ زمن تاسيت انهم من المنصفين . والواقع ان الكاتب يرى الحوادث كما يرى المصور المناظر اي ينظر اليها من خلال مزاجه وخلقه وروح أمته . فاذا وُضع كثير من المصورين أزاء منظر واحد فانهم يختلفون في تصويره بحكم الطبع . ولهذا تكون كل نسخة شخصية ذات طابع حسي خاص . وليس أمر الكاتب خلاف ذلك .

إذاً فالانصاف عند المؤرخ والمصور لا يوجد . نعم قد يكتفي المؤرخ باستنساخ الوثائق والى هذا يميل المؤرخون في الوقت الحاضر غير ان وثائق الأدوار القريبة كدور الثورة الفرنساوية من الكثرة بحيث لا يكفي لتصفحها حياة امرئ وهذا ما يجعل الاختيار امراً لا مندوحة عنه .

« انها عبارة عن سلسلة قضايا منظور اليها بجهل فظيع وعن مجادلات شرسة » ورأى كثير من مؤلفي علم النفس « ان علماً يدب الانتقاد النظرى في جميع مفاصله لسريع العطب » . وقد حاولت منذ اكثر من عشرين سنة ان احول وجهة علم النفس الى درس الحقائق . الا ان ذلك صعب على المجرى النظري في الجامعات مع انه أضاع ماله من نفوذ .

يختار المؤرخ متعمداً او غير متعمد ما يلائم افكاره السياسية والدينية والادبية من الوثائق ولذلك يتعذر تأليف كتاب تاريخي منصف اللهم الا اذا اقتصر على وضع تقاويم تلخص كل حادثة فيها بسطر واحد مع زمان وقوعها، ولا نأسف لعدم ظهور من هو منصف فان الانصاف يؤدي الى وضع مؤلفات تافهة مُغمة مملة يستحيل الوقوف بها على حقيقة احد الادوار .

وهل على المؤرخ ان يمتنع بحجة الانصاف عن تقدير الرجال الى الاعجاب بهم والطعن فيهم ؟ يوجد على ما اعتقد لهذه المسئلة حلان عادلان يختلفان باختلاف الكاتب اذا كان عالماً اخلاقياً او عالماً نفسياً .

ينظر العالم الاخلاقي الى المصلحة الاجتماعية فحسب ولا يقدر الرجال الا بما تقتضيه هذه المصلحة ، ويضطر المجتمع في تكوينه وبقائه الى وضع بعض القواعد والى حيازة مقياس يقاس به الخير والشر اي يميز به بين الفضيلة والرذيلة . وهذا يؤدي الى وضع أمثلة وسطى يتقرب منها الناس ولا يبتعدون عنها ابتعاداً كبيراً من غير ان يلحق المجتمع خطر .

فعلى العالم الاخلاقي ان يقدر الرجال حسب هذه الامثلة والقواعد المشتقة من مقتضيات الاجتماع ، وهو يمدحه من أفاد ويهجوه من

أضر يسعى في تثبيت أمثلة اخلاقية ضرورية لسير الحضارة تكون نماذج للناس ، فالشعراء — كقورناي مثلاً — بتخيلهم ابطالاً يفضلون على اكثرية البشر يحثوننا على العمل ويربون بذلك روح الامة

هذه هي وجهة العالم الاخلاقي وأما وجهة العالم النفسي فغير ذلك ، فالمجتمع وان لم يحق له ان يتساهل في أمر بقائه فانه ينبغي على العالم النفسي ان لا يبالي بذلك ، إذ لما كان عليه ان ينظر الى الامور نظرة عالم اقتضى ان لا يهتم بتقدير منافعها وان لا يسعى الا الى تفسيرها اي ان يكون مثله كمثل الراصد امام اي حادث ، نعم يصعب على الانسان ان يقرأ وهو رابط الجأش ان (كاريه) كان يأمر بطمر ضحاياه حتى العنق كي يفقأ بعدئذٍ عيونهم ويذيقهم اشد العذاب ولكنه يجب لادراك مثل هذه الاعمال ان لا يستشيط المرء منها غيظاً وان يكون شأنه كشأن العالم الطبيعي ازاء العنكبوت وهي تقتل ذبابة رويداً رويداً .

ظهر من ما تقدم ان شأن المؤرخ وشأن العالم النفسي ليسا واحداً ولكنه يجوز مطالبتهما بتفسير الحوادث تفسيراً حسناً وبا كتشاف ما هو مستتر تحت الحقائق الظاهرة من القوى الخفية المسببة لها .

الفصل الثاني

قواعد النظام السابق النفسية

١ — الملكية المطلقة ودعائم النظام السابق

يقول كثير من المؤرخين بان الثورة الفرنساوية نشبت ضد الملكية المستبدة والواقع ان ملوك فرنسا عدلوا عن الاستبداد قبل انفجارها بزمن طويل . تم لهم السلطان المطلق في دور لويس الرابع عشر واما جميع من ظهر قبله من الملوك — ولا نستثني أقوياءهم كفرنسوا الاول — فكانوا يقارعون الامراء الاقطاعيين تارة والاكليروس والبرلمانات تارة أخرى وكثيراً ما غلبوا في هذه المعارك . وما كان فرنسوا الاول من القوة بحيث يقدر على كف الأذى عن أعز حواشيه إزاء الصوربون والبرلمان . فلما كره الصوربون مشاوره وصديقه (بير كان) حبسه فأمر الملك بتسريحه فرفض الصوربون ذلك فاضطر الملك الى إرسال نبالة لأنقاذه من السجن وما وجد وسيلة أخرى لحمايته غير حراسته بالقرب منه في قصر (اللوفر) الا ان الصوربون انتهز فرصة غياب الملك فسجن (بيركان) ثانية وبعد ان حاكمه البرلمان حرق حياً بعد ساعتين

من الحكم .

صارت سلطة الملوك مستبدة في عهد لويس الرابع عشر بعد ان شيدت دعائمها مقداراً فمقداراً الا انها لم تلبث ان مالت الى الزوال واصبح لايجوز ان يُنعت لويس السادس عشر بالمستبد . كان هذا الملك عبداً لبطانته ووزرائه والأكليروس والاشراف من جميع الوجوه ولم يوجد فرنساوى اضيق حرية منه ، وكان الملوك يستمدون قوتهم من الله ومن التقاليد التي تكون من مجموعها عقد البلاد الاجتماعي .

ان وهن ما قام عليه النظام السابق من التقاليد أدى الى زواله اذ لما تكرر الجدل فيها ولم يبق من يدافع عنها انهار ذلك النظام كبناء فُكَّ من اساسه .

٢ — سيئآت النظام السابق

ترضى الامة بالنظام المؤسس منذ عهد عهيد والعادة تستر سيئآته التي لا تبدو الا عند اطالة الفكر ، وعند ما يفكر فيه الانسان يتسائل كيف اصطبر عليه فيعتقد حينئذ بانه تعيس . وقد تمكن مثل هذا الاعتقاد ايام الثورة الفرنساوية بتأثير الكتاب الذين سنبحث عن تأثيرهم قريباً فبدت جميع عيوب النظام السابق لكل ذى عينين ، وسنكتفي ببيان بعض هذه العيوب .

كانت المملكة التي تأسست من فتح الايالات المستقلة مختلفة بقوانينها وطبائعها وعاداتها وكانت الجمارك الداخلية تفصل بينها وما بذله الملوك - ومنهم لويس الرابع عشر — من المساعي لم يؤدالى وحدتها ولذلك فان احسن عمل قامت به الثورة الفرنساوية هو هذا التوحيد .

ثم كان يوجد بجانب هذه التقسيمات المادية تقسيم الامة الى طبقات ثلاث متعذر اجتياز ما بينها من الحواجز اي الى طبقة الاشراف وطبقة الاكليروس والطبقة الثالثة . وقد تمسك النظام السابق بسياسة التفريق بين الطبقات لاعتباره اياها سراً من اسرار قوته وهذا سبب ما القاه ذلك النظام من الحقد في القلوب . والاضطهاد الذى جاءت به الطبقات الوسطى الظافرة ناشيء عن ميلها الى الانتقام من ماض طويل احتقرت وظلمت فيه . وما اكثر ما عانته الطبقة الثالثة من هذه الجروح ففي اجتماع عقده المجلس النيابي عام ١٦١٤ وجثا فيه اعضاؤه مكشوفي الرأس قال احد ممثلي الطبقة الثالثة بان الطبقات الثلاث كثلاثة اخوة فردّ عليه خطيب طبقة الاشراف قائلاً : « لا إخاء بين طبقة الاشراف والطبقة الثالثة فالاشراف لا يريدن ان يناديهم أبناء السكافين والخرازين اخوة لهم » .

وكان الاشراف والاكليروس محافظين على امتيازات ومطاليب لا يوجد ما يبررها منذ كفوا عن الخدمة ، إذ لما أقصت السلطة الملكية الاشراف والاكليروس عن الوظائف العامة لارتيابها منهم وأقامت مقامهم من هو اكثر منهم قابلية وعلماً من ابناء الطبقة الوسطى اصبح شأنهم الاجتماعي منحصراً في الأبهة فقط وقد اوضح ذلك تاين حيث قال :

« منذ اضاع الاشراف سلطتهم وحصل عليها ابناء الطبقة الثالثة اصبح التفاوت الفاصل بينهم مؤلماً . ولما كان هذا التفاوت قائماً على العادة فقد عدل الضمير عن تقديسه وحق لابناء الطبقة الثالثة ان يسخطوا على امتيازات لا يوجد بعد ما يبررها » .

وبما أن مبدأ (الطبقات) متأصل منذ بعيد فان الامر الذى سبب عدول الاشراف والاكليروس عن امتيازاتهم كان خفياً . نعم انهم تركوها في ليلة تاريخية عند ما ارغمتهم الحوادث ولكن فعلتهم جاءت متأخرة وظلت الثورة الفرنساوية سائرة في سبيلها

لا ريب في ان مبتكرات الوقت الحاضر قادرة على الاتيان بمثل ما فعلته الثورة الفرنساوية اي بالمساواة أمام القانون والغاء الامتيازات الوراثية الخ ، وعلى رغم اتصاف الروح اللاتينية بالمحافظة فلا بد للأمة الفرنساوية من نيل هذه الحقوق كما نالها اكثر الامم ولو تم

ذلك لو قت نفسها من عناء حروب ومذابح دامت عشرين سنة ولكن ذلك يتطلب ان تكون حائزة على مزاج نفسي آخر وعلى ساسة آخرين في ذلك الحين .

ان الحقد الشديد الذي كان يحمله ابناء الطبقة الوسطى على الطبقات الاخرى هو من جملة العوامل الاساسية للثورة الفرنساوية وهذا يوضح لنا سبب سلب اولئك الابناء ما عند المغلوبين من مال ونشب .

ولا يدل مقت ابناء الطبقة الوسطى للاشراف على حقدهم على الملكية وما بغض الشعب الملك لما أتى به من عدم الحنكة ومن الاستغاثة بالاجنبي الا رويداً رويداً . ولم يفكر المجلس التشريعي الاول في تأسيس الجمهورية وكل ما كان يحلم به هو ان يحل مكان الملكية المطلقة ملكية دستورية ، ومع ان صدره امتلأ غيظاً من الملك فانه لم يجترىء على اسقاطه .

٣ ــ الحياة في العهد السابق

يصعب تصور الحياة في العهد السابق ــ ولاسيما حياة الفلاحين الحقيقية ــ تصوراً حسناً ، إذ مثل الكتاب في مناضلتهم عن الثورة الفرنساوية كمثل علماء اللاهوت في مدافعتهم عن العقائد الدينية فيصورون ما كانت عليه احوال الفلاحين في ذلك العهد من الكآبة

تصويراً يجعل الانسان يتسا ل كيف لم يمت هؤلاء البائسون جوعاً منذ زمن طويل . ولدينا مثال على ذلك صادفناه في كتاب وضعه الموسيو رامبو احد اساتذة الصوربون سابقاً وسماه (تاريخ الثورة الفرنساوية) . فالصورة التي وردت فيه للدلالة على «بؤس الفلاحين ايام لويس الرابع عشر » تلفت النظر إذ يرى فيها اولاً ان رجلا يتقاتل مع الكلاب ليختطف منها عظاماً معروقة وبجانبه بائس يلتوى شاداً احشاءه وبالبعد منه امرأة ملقية على الارض لترعى كلاً وفي اسفلها أناس مطروحون على الارض كالاموات . ثم اورد المؤلف المذكور العبارة الآتية مثالا على الادارة في الدور السابق وهي :

« ان وظيفة الشرطي التي كانت تشري بـ ٣٠٠ ليرة كانت تعود عليه بـ ٤٠٠٠٠٠٠ ليرة وان القبض على الناس كان لا يكلف سوى ١٢٠ ليرة وان عدد ما وضعه لويس الرابع عشر من اوامر النفي والسجن بلغ ١٥٠٠٠٠٠ »

ان اكثر المؤلفات التي بحثت عن الثورة الفرنساوية قليلة الانصاف بعيدة عن روح الانتقاد كالمؤلف المذكور وهذا ما يجعل الوقوف على ذلك الدور ناقصاً حتى اليوم . نعم ان وثائقها ليست قليلة ولكنها متناقضة فيمكن الاعتراض على وصف (لابرويار) بالوصف العجيب الذى اتى به السائح الانكليزي (يانغ) ليدل على سعادة الفلاحين الذين زارهم بنفسه في ذلك الزمن . وهل من

الصحيح ان كاهل الفلاحين كان مثقلا بالضرائب وانهم كانوا يؤدون اربعة اخماس محاصيلهم بدلاً من الخمس الذي يدفعونه اليوم ؟ يتعذر علينا ان نأتي بجواب صادق على ذلك ، على ان اشتراء الفلاحين لثلث الاطيان في العهد السابق يدل على ان احوالهم فيه ليست تعيسة

وما نعرفه عن الادارة المالية أتم ، كانت هذه الادارة جائرة مرتكبة والميزانيات ذات عجز وكان يجبي الضرائب ملتزمون ظالمون فنشأ عن هذه الحالة استياء عام اوضح في عرائض المجلس النيابي ، ويجب التنبيه الى ان هذه العرائض لم تشر الا الى أزمة بؤس صدرت عن محاصيل عام ١٧٨٨ الرديئة وعن شتاء سنة ١٧٨٩ ولو كتبت قبل عشر سنين لحوت خلاف ما جاء فيها .

لم تحتو فكراً ثوريا و كل ما التمس فيها هو ان تجبى الضرائب بعد موافقة المجلس النيابي وان يكون ذلك على قاعدة المساواة وان يوضع دستور لتعيين ما للملك وما للامة من السلطة ، ولو قبلت هذه المطاليب لقامت مقام الملكية المطلقة ملكية دستورية ولاجتنبت الثورة على ما يحتمل .

كان يحول نفوذ الاشراف والاكيروس وضعف لويس السادس عشر دون الوصول الى هذا الحل ، اضف الى ذلك ما كان يصبو اليه ابناء الطبقة الوسطى من الحلول مكان الاشراف ، فهذه

الطبقة هي التي قامت بالثورة الفرنساوية ولم تلبث الفتنة التي ايقظتها ان تجاوزت حد رغائبها وحاجاتها وآمالها إذ تطلبت المساواة لذاتها فتطلبها الشعب لذاته ايضاً فأدى ذلك الى قيام حكومة شعبية.

٤ ـ تطور المشاعر الملكية ايام الثورة الفرنساوية

من الامور الثابتة ان مشاعر الشعب ومشاعر المجالس الثورية ايام الثورة الفرنساوية قد تطورت ازاء النظام الملكي تطوراً سريعاً وان كانت المشاعر تتطور عادة شيئاً فشيئاً، إذ لم يمر بين الوقت الذي يجل به اعضاء المجلس الثوري الأول لويس السادس عشر وبين الوقت الذى قُطع فيه رأسه سوى أعوام قليلة.

ان هذه التحولات السطحية هي في الحقيقة ليست سوى تبديل موضعي لمشاعر واحدة فالحب الذى كان يظهره الناس في ذلك الزمان للملك قد اظهروه للحكومة الجديدة الوارثة له. ومن الهين اظهار هذا التبدل: قد اوجب استمداد الملك في الدور السابق قوته من الله منحه قدرة عظيمة جعلت الشعب يقبل عليه من اقصى البلاد. إلا ان هذا الاعتقاد الديني بما للملك من القدرة المطلقة تزعزع عند ما اثبتت التجارب المكررة ان ما نسب اليه من السلطان وهم فأضاع حينئذٍ ما له من نفوذ، وبما ان الجماعات لا تسمح للاله الساقط ان يموّه عليها فانها تبحث عن معبود آخر لا غناء لها عنه

كشفت الحوادث المكررة منذ اوائل الثورة الفرنساوية للمؤمنين المتحمسين انه لم يبق للملكية شيء من الحول والقوة وانه يوجد قوى اخرى قادرة على مقاتلتها ولها سلطان اعظم من سلطانها .

وماذا يكون حال السلطة الملكية امام الجماعات التي رأت ان المجلس النيابي تغلب على الملك وان هذا الاخير عجز في وسط باريس عن الدفاع عن حصنه القوى ازاء هجمات بعض العصابات المسلحة؟

فبذلك وضح للعيان ضعف الملك وازدادت قدرة المجلس النيابي وبما انه لا نفوذ للضعيف عند الجماعات فان هذه حولت وجهها نحو القوي .

ومع ان المشاعر في المجالس كثيرة التحول فانها لا تتطور بسرعة ولذلك دام الايمان الملكي بعد الاستيلاء على الباستيل وبعد فرار الملك واتفاقه مع ملوك الاجانب ، وقد ظل هذا الايمان المتأصل من القوة بحيث لم تقدر الفتن الباريسية التي أدت الى قتل لويس السادس عشر على إزالته من القلوب [1] فبقي ثابتاً في جزء كبير من

---

(١) اورد (ميشليه) الحادث الآتي الذي وقع في عهد لويس الخامس عشر دليلا على حب الامة الارثي لملوكها :

« علم الناس في باريس ليلا ان لويس الخامس عشر الذي ذهب ليلتحق

فرنسا مدة الثورة الفرنساوية وسبب ما وقع في الولايات من المؤآمرات والفتن التي لقي مجلس العهد في اخمادها عناء كبيراً، نعم تلاشى الايمان الملكي في باريس حيث كان ضعف الملك جلياً ظاهراً وأما في الولايات فحافظت قدرة الملك النائبة عن الله في الارض على نفوذها .

جعل رسوخ المشاعر الملكية في النفوس المقصلة عاجزة عن القضاء عليها فاستمرت الدعوة الملكية ايام الثورة الفرنساوية ولاسيما في عهد الدير كتوار حيث انتخبت ٤٩ ولاية نواباً ملكيين ، وقد ساعدت تلك المشاعر الملكية التي دفعتها الثورة بعد عناء كبير على نجاح نابليون بونابارت عند ما جاء ليستولي على عرش الملوك السابقين وليعيد جزءاً كبيراً من النظام السابق

بالجيش بقي مريضاً في (ميس) فتركوا مضاجعهم وساروا في بلبلة الى حيث لا يعلمون ثم فتحت الكنائس ابوابها في نصف الليل واخذ القوم يتجمهرون في مفارق الطرق ويقترب بعضهم من البعض الآخر ويتساءلون من غير ان يتعارفوا واما اكثر الكنائس التي كان بكاء الكهنة يقطع ما كانوا يقرأونه فيها من الادعية لشفاء الملك والجمهور يجيبهم بنحيبه وعويله وقد عانق الناس الرسول الذي أتى بخبر إبلال الملك من مرضه وقبلوا حصانه وساروا به سيرهم بالغازي المظفر ودوت الشوارع من هتافهم « عوفي الملك » .

الفصل الثالث

في الفوضى النفسية ايام الثورة الفرنساوية وما عزى الى الفلاسفة من الشأن

١ — مصدر المبادىء الثورية وانتشارها

ان حياة الانسان الظاهرة عنوان لحياة خفية كونتها التقاليد والمشاعر وهذه الحياة هي التي ترشده في سيره وتمكن فيه مبادىء مهيمنة ، واذا اصاب تلك المبادىء وهن فان مبادىء أخرى تنبت في النفوس مكانها .

والغاية من هذه الملاحظات هو تنبيه القارئ الى ان ما تأتي به الثورات من الحادثات الظاهرة هي نتيجة لتطورات خفية وقعت في النفوس رويداً رويداً والى كون البحث الدقيق عن احدى الثورات يستدعي فحص البقعة النفسية التي نبتت عليها مبادئ هذه الثورات .

يظل تطور المبادئ البطيء خفياً مدة جيل واحد في الغالب ولا يمكن ادراك اتساع نطاقه الا بمقايسة ما عند الطبقات الاجتماعية من الاحوال النفسية في اول الجيل وآخره ، فيجب للاطلاع على

الافكار المختلفة التي كان ينظر بها العلماء الى الملكية في عهد لويس الرابع عشر ولويس السادس عشر ان نقابل بين نظريات (بوسويه) ونظريات (تورغو) السياسية. كان بوسويه عند ما يقول بان سلطة الحكومة مستمده من الله الذى يحاسب وحده الملوك على اعمالهم وبأن الملوك غير مسؤولين امام الناس يعبر عن ما يدور في خلد هؤلاء من المبادىء نحو الملكية المطلقة وقد كان الايمان الديني في ذلك العهد قوياً كالايمان الملكي وظهر للناس ان هذين الايمانين متلازمان لا يفترقان ، واما ما كتبه الوزراء المصلحون — كالوزير تورغو — فكان مشبعاً بروح أخرى إذ لم يذكروا فيه شيئاً عن حق الملوك الالهي وقد بينوا فيه حق الامة بيانا جلياً .

والحوادث التي أعانت على تهيئة هذا التطور كثيرة ونذكر منها الحروب المشؤومة والقحط والضرائب والبؤس العام الذي وقع في اواخر عهد لويس الخامس عشر ، وقد أقامت هذه الحوادث مقام احترام سلطة الملك التي تزعزعت مقداراً فمقداراً ، ثورة في النفوس مستعدة للظهور عند سنوح اول فرصة .

ومتى يبدأ انحلال المزاج النفسي فان عراه تتفكك سريعاً وهذا هو سبب سرعه انتشار كثير من المبادىء بين الناس ايام الثورة الفرنساوية: نعم انها ليست حديثة ولكن تأثيرها لم يظهر قبل تلك

الثورة لعدم مصادقتها تربة صالحة ، والمبادىء التي استهوت الناس في ذلك العهد رددها البشر مرات كثيرة في الماضي فهي التي اوحت خطة السياسة الانكليزية قبل ذلك الزمن بكثير وقد دافع علماء اليونان واللاتين قبل ألفي سنة عن الحرية لاعنين المستبدين معلنين ما للسلطة الشعبية من الحقوق . ومع ان ابناء الطبقة الوسطى تعلموا جميع هذه المسائل كآبائهم في الكتب المدرسية فانها لم تحرك ساكنهم لان الوقت الذي تستطيع ان تهيجهم فيه كان غير واقع ، وكيف تؤثر في الامة في زمن اعتادت ان تحترم فيه سلسلة المراتب ؟

وتأثير الفلاسفة في تكوين الثورة الفرنساوية غير ما يعزى اليهم فهم لم يكتشفوا شيئاً جديداً وانما أنموا روح الانتقاد التي لا تقاومها المعتقدات عند ما تأخذ في الانحلال . اوجب نمو روح الانتقاد تدرج الناس في ازدراء ما كان محترما عندهم ومتى أخذت التقاليد والحرمات في الاضمحلال فان البنيان الاجتماعي يسقط بغتة .

ومع ان نفوس الشعب تنحل في نهاية الاسر فان ذلك لا يصيبها في البداية فالشعب يقتدي ولا يبتدع . اثر الفلاسفة في طبقات الامة المتعلمة وعجزوا عن التأثير في الشعب واوجب اعتياد الاشراف البطالة واقصاؤهم عن الوظائف سيرهم الى غير هدى وأدى عجزهم

عن تقدير العواقب الى زعزعتهم جميع التقاليد وان كانت سبب نعمتهم ولما كانوا مشبعين بمبادئ الانسانية ومذهب العقليين كما هو شأن ابناء الطبقة الوسطى في الوقت الحاضر فقد قوّضوا امتيازاتهم الخاصة بيدهم. كان اكثر المصلحين حماسة في ذلك الزمن من اصحاب الثروة وكان الاريستوقراطيون ينشطون الى البحث عن النقد الاجتماعي وعن حقوق الانسان وعن مساواة الوطنيين ويهتفون للروايات التمثيلية المنتقدة لامتيازات اصحاب المناصب العالية واستبدادهم وعدم أهليتهم .

ومتى يفقد الناس ثقتهم في اركان البناء النفسي المسير اياهم يعمهم اضطراب فاستياء فتشعر جميع الطبقات حينئذٍ بزوال ما كان يسيرهم من العالل السابقة .

نعم لم تكف روح الانتقاد عند الكتاب والاشراف لزعزعة أثقال التقاليد ولكن تأثيرها دعم بمؤثرات قوية أخرى . قلنا عندما استشهدنا ببوسويه ان الحكومة الدينية والحكومة المدنية في الدور السابق كانتا موصولتين بعضهما ببعض وصلاً وثيقاً فكان صدم الاولى يصيب الثانية بحكم الضرورة والآن نقول ان التقاليد الدينية قد عافتها نفوس المتعلمين قبل ان أن ينتزعزع المبدأ الملكي إذ أوجب تقدم العلم انتقال النفوس من عالم اللاهوت الى عالم العلم .

كان يسمح هذا التطور للناظر ان يشعر بان التقاليد التي قادت الناس قروناً كثيرة ليست قيمة وان من الضروري تبديلها بغيرها ولكن اين يكتشف ما يقوم مقام التقاليد من العناصر واين يبحث عن عصا السحر القادرة على إقامة بنيان اجتماعي آخر على أنقاض البنيان السابق ؟

وقع الاجماع على وصف العقل بالقدرة التي اضاعتها الآلهة والتقاليد ، وهل من شك في قدرته ؟ ان مكتشفاته كثيرة لايحصى عديدها وهلا يحق للانسان ان يظن بان تطبيقه على المجتمعات يؤدي الى تطورها التام ؟ هكذا عظم شأن العقل في النفوس وتضاءل شأن التقاليد .

والمبدأ الذي اسند تلك القدرة الى العقل اشعل نيران الثورة الفرنساوية وسيرها من اولها الى آخرها وبتلك القدرة سعى الناس في تحطيم الماضي واقامة مجتمع جديد على خطة أملاها المنطق

وما هبط ببطء الى نفوس الشعب من نظريات الفلاسفة العقلية يلخص بالعبارة الآتية البسيطة وهي ان جميع ما عد في الماضي محترماً ليس جديراً بالاحترام ولما كان الناس متساوين فلا محل لطاعة السادة السابقين . اعتادت الجموع ان لا تحترم الطبقات العليا وعند ما تداعى حصن الحرمة وقعت الثورة الفرنساوية .

ان تجاوز الناس للحدود هو اول نتيجة لهذه النفسية الجديدة. ذكرت مادام (فيجيلبران) ان العوام كانوا يصعدون في نزهة (لونشان) على مراقي العربات قائلين « ستكونون في العام المقبل وراءنا وسنكون داخل العربات ».

لم يكن امر تجاوز الحدود والاستياء خاصاً بالعوام بل كان قبل حدوث الثورة الفرنساوية عاماً للجميع. قال تاين:

«كان صغار الاكليروس حاقدين على الاساقفة، وأشراف الولايات على الاشراف المقربين، وصغراء الامراء الاقطاعيين على اكابرهم وسكان القرى على سكان المدن»

ثم استولت تلك الحالة النفسية — التي انتقلت من الاشراف والاكليروس الى الشعب — على الجيش ايضاً. قال (نيكر) حين افتتاح المجلس النيابي: « لسنا واثقين بالجيوش »، فقد صار الضباط من انصار مذهب الانسانية وأخذوا يشتغلون بالفلسفة واما الجنود الذين هم من أدنى طبقات الشعب وان لم يشتغلوا بالفلسفة فكانوا لا يطيعون لدلالة مبادىء المساواة في عقولهم السخيفة على الغاء الرآسة ثم على إبطال الطاعة.

وبعد ان استولت الفوضى النفسية على جميع طبقات المجتمع ثم على الجيش سببت زوال النظام السابق. قال ريفارول:

« ان تخلي الجيش عن الملك واعتناقه مبادىء الطبقة الثالثة هو الذي قضى على الملكية . »

٢ - تأثير فلاسفة القرن الثامن عشر في تكوين الثورة الفرنساوية - نفورهم من الدموقراطية

يجب ان يعد الفلاسفة - الذين ظن بانهم نفخوا في الناس روح الثورة - اشياعاً للحكومة الشعبية وان قاتلوا بعض الاوهام والعوائد السيئة إذ كانوا يمقتون الدموقراطية التي بحثوا عن شأنها في تاريخ اليونان لعلمهم بما تجر وراءها من التخريب والاضطهاد وبأنها عرفت في زمان اريسطوطاليس « بانها عبارة عن حكومة تناط فيها القوانين وجميع الامور بعوام ينزلون انفسهم منزلة الجبابرة ويسيرون كيفما يريد بعض المشاغبين . »

نبه بطرس بيل الذي كان سلفاً لفولتير الى ما أدت اليه الحكومة الشعبية في أثينا بالعبارات الآتية :

« عندما يقرأ الانسان تاريخاً دالاً دلالة واسعة على هرج مجالس أثينا وانقسام احزابها وعلى فتنها المقلقة واضطهاد الاشراف وقتلهم ونفيهم حسب ما كان يريد احد الخطباء المتحمسين يحكم بان تلك الامة المفتخرة بحريتها كانت في الحقيقة رقيقة لفئة من المحتالين سمتهم بخطباء الشعب . كان هؤلاء يقلبونها حسب أهوائهم فصارت كبحر تسوق الرياح أمواجه . ولو بحث عن تاريخ مكدونيا الملكية لما وجد فيه امثلة ظلم واستبداد كما في اثينا . »

وليس رأي مونتسكيو في الدموقراطية بأقل من ذلك فقد دل بعد ان وصف أشكال الحكومة الثلاثة — اي الجمهورية والملكية والمستبدة — على ما تؤول اليه الحكومة الشعبية بهذه الكلمات :

« كان الناس احراراً تحت ظل القوانين فصاروا يميلون الى الحرية ضدها ويسمون ما هو حكمة عرامة وما هو قاعدة معسرة ، وكان ما يدخل الخزانة العامة من الاموال يجمع من الافراد فاصبحت الخزانة العامة ملكا للافراد ، فلم تكن الجمهورية إذاً غير جثة مستمدة قوتها من قوة بعض الناس »

« يظهر فيها جبابرة صغار لهم ما للجبار الواحد من العيوب ويصبح ما يبقى من الحرية أمراً لا يطاق فيقبض على زمام الحكم جبار واحد فتخسر الامة كل شيء حتى ثمرات شرورها »

« ولذلك وجب اجتناب ما تجر اليه الدموقراطية من المغالاة في المساواة المؤدية الى الحكم المطلق ومن الحكم المطلق المؤدي الى غزو البلاد »

والحكومة الانكليزية الدستورية المانعة للملكية عن التحول الى حكومة مستبدة هي مثل مونتسكيو الأعلى غير ان تأثير هذا الفيلسوف ايام الثورة الفرنساوية كان ضعيفاً جداً .

واما واضعوا (الانسيقلوبيذيا) فلم يشتغلوا بالسياسة أبداً ، وربما

استثنينا منهم (هولباك) الذى هو (كفولتير)و (ديدرو) ملكي متمذهب بمذهب الحرية . كانو يدافعون خاصة عن الحرية الشخصية ويقاتلون جور الكنيسة العدوة للفلاسفة وبما انهم ليسوا اشتراكيين ولا دموقراطيين فان الثورة الفرنساوية لم تنتفع بشيء من مبادئهم

وكان (فولتير) ذاته قليل التشيع للدموقراطية وقد قال :

« ارى أن الدموقراطية لا تلائم الا بلاداً صغيرة واقعة في مكان مناسب ، على انها مهما كانت صغيرة فلا بدّ لها من الاتيان بكثير من الزلات وهي وان ساد فيها الشقاق كما يسود في دير الرهبان فانه لا يقع فيها ملاحم كملحمة السان بارتلمي ولا مذابح كمذابح ايرلندا وصقليا ومحكمة التفتيش ولا حكم بالاشغال الشاقة على من يغترف من البحر ماء لا يؤدي ثمنه ، وتكون تلك الجمهورية غير ذلك إذا ألفت من الشياطين في زاوية من الجحيم »

إذاً فان افكار هؤلاء الذين ظن انهم هيأوا الثورة الفرنساوية هي قليلة الهدم ومن الصعب ان يعزى اليهم تأثير كبير في سير تلك الثورة

كان روسو من نوادر الفلاسفة الدموقراطيين في عصره ، ولهذا صار كتابه المسمى بالعقد الاجتماعي توراة رجال الهول الأكبر وقد ساعد هذا الكتاب على تدبير ما حدث ايام ذلك الهول من الأعمال الصادرة عن دافع ديني وعاطفي غير شعوري .

غير أن غرائز روصو الدموقراطية أمر مشتبه فيه فهو يرى ان خططه في تحديد المجتمع على أساس السيادة الشعبية لا تطبق الاعلى عدد قليل من البلدان وعند ما طلب اليه البولونيون ان يرسم لهم دستوراً دموقراطياً نصحهم بان ينتخبوا ملكاً إرثياً .

واكثر نظريات روصو انتشاراً هي نظريته القائلة بكمال الحالة الفطرية فقد ادعى مع كثير من رجال عصره بان الرجل الفطري كان كاملا لم تفسده المجتمعات وبأنه إذا غيرت المجتمعات بما يسن من القوانين فان سعادة الاجيال الأولى تعود . وبما انه لم يقف على علم النفس فانه كان يعتقد بان الناس متماثلون في كل زمان ومكان وبانه يجب ان تطبق عليهم قوانين ونظامات واحدة . هكذا كان اعتقاد الناس في ذلك الحين . كتب (هيلفيسيوس) : « تشتق فضائل الامة ونقائصها من قوانينها وهل من ريب في ان الفضيلة عند جميع الامم هي نتيجة لحكمة القابضين على زمام الامور ؟ »

٣ — مبادىء الطبقة الوسطى الفلسفية
ايام الثورة الفرنساوية

مع انه يصعب تعيين ما كان عند ابناء الطبقة الوسطى في فرنسا من المبادىء الفلسفية والاجتماعية ايام الثورة الفرنساوية فان هذه المبادىء ترد الى بضع قواعد لخصت في بيان حقوق

الانسان.

يظهر ان فلاسفة القرن الثامن عشر لم يكونوا ذوي نفوذ كبير في رجال تلك الثورة إذ لم يستشهد هؤلاء بأولئك الا نادراً ولما كانت خواطر اليونان والرومان هي التي سحرتهم فانهم كانوا يطالعون كتب افلاطون و بلوتارك ويودون نشر دستور اسبارطه وعوائدها وتقشفها وقوانينها .

ولم يقل رجال الثورة الذين عدوا من المبدعين الجسورين ومن السائرين على نهج الحكماء بانهم ابدعوا شيئاً جديداً بل بعودتهم الى ماضٍ دفن منذ عهد عهيد في عالم الشك والريب ولم ينظر عقلاؤهم الى ما كان في القرون الخالية بل فكروا في تطبيق نظام انكلترا الدستوري الذي امتدح مونتسكيو وفولتير منافعه ونسجت على منواله جميع الامم في نهاية الامر من غير ثورة. كان مطمعهم ان يصلحوا النظام الملكي الموجود لا ان يهدموه. الا ان المناهج التي سلكت ايام الثورة اختلفت عن ما اقترحوه من الطرق والاساليب .

الفصل الرابع

في ما وقع ايام الثورة الفرنساوية

من الاوهام النفسية

١ - في ما حام من الاوهام حول الانسان الفطري والرجوع الى الحالة الطبيعية والروح الشعبية

بينافي ما سبق - ونعود فنقول - ان اغلاط احد المذاهب لما كانت لا تضر باتشاره فان تاثيره هو الذي يجب البحث عنه، وعلى الفيلسوف الذي يود ان يكتشف كيفية تاثر الناس ان يبحث عن ما يحيط بهم من الاوهام، ولربما لم تكن الاوهام عريقة كثيرة في اي دور من ادوار التاريخ كما كانت ايام الثورة الفرنساوية.

ونعد من اشد الاوهام ظهوراً التصور الغريب الذي تصور به الناس طبيعة اجدادنا الاولين وطبيعة المجتمعات الاولى. ولما لم يكتشف تاريخ الانسان الطبيعي طرق الحياة اعتقد الناس في ذلك الحين - كما جاء في الاسرائيليات - ان الله خلق الانسان كاملا وان المجتمعات كانت مثلا عليا وان الحضارة افسدتها وانه يجب

العود اليها ، وما لبث مبدأ الرجوع الى الحالة الطبيعية ان اصبح عاماً . قال روصو : « ان المبدأ الاخلاقي الاساسي الذى بحثت عنه في مؤلفاتي يدل على ان الانسان طيب بطبيعته محب للعدل والنظام »

الا ان العلم الحديث بحث عن طرق الحياة عند اجدادنا الاولين فاثبت فساد هذا المذهب دالاً على ان الرجل الفطرى كان وحشاً شرساً يجهل الرفق والادب والرحمة وانه لما كانت اندفاعاته الغريزية سائدة عليه فقد كان ينقض على فريسته عندما يخرجه الجوع من كهفه ويثب على عدوه عندما يهيجه الحقد .

ولا تعيد الحضارة الانسان الى الحالة الطبيعية بل تساعده على الخروج منها فقد حول اليعاقبة المجتمع المتمدن الى قوم متوحشين عندما ارجعوهم — بكسرهم جميع الزواجر الاجتماعية التي لا تقوم اية حضارة بدونها — الى الحالة الفطرية

ونعذر من ذكر عن اجدادنا الاولين من الافكار الباطلة لان طرق حياتهم كانت مجهولة قبل المكتشفات الحديثة ، ولكن لايوجد ما يبرر جهل نظريي الثورة الفرنساوية لنفسية معاصريهم ويظهر ان فلاسفة القرن الثامن عشر وكتابه لم يكونوا على شيء من صفات التأمل والتفكير فقد عاشوا بين معاصريهم من دون أن يدركوا أمرهم وان تخطر الروح الشعبية ببالهم ، وكانوا يظنون

ان العامي رجل خلق طيباً وديداً شاكراً مستعداً للاصغاء الى العقل، وقد دلت خطب اعضاء المجلس التأسيسي على تمكن هذه الاوهام منهم فلما اخذ الفلاحون يحرقون القصور دهشوا لذلك كثيراً فخاطبوهم بكلام رقيق رجوهم فيه ان يكفوا عن عملهم لكيلا يحزنوا مليكهم المحبوب وناشدوهم ان يشدهوه بفضائلهم .

٢ — في ما دار من الاوهام حول امكان فصل
الانسان عن ماضيه وحول قوة القوانين

نعد من بين المبادىء التي اتخذت اساساً للأنظمة الثورية المبدأ القائل بسهولة فصل الانسان عن ماضيه وبامكان تجديد المجتمع بالانظمة وبما ان المشرعين في ذلك الحين اعتقدوا ان الماضي — ما عدا الاجيال الحالية التي يجب ان تكون نموذجات — ميراث حافل بالخرافات والاضاليل عزموا على قطع كل صلة به واسسوا لاظهار مقصدهم تاريخاً جديداً وتقويماً جديداً مبدلين اسماء الشهور والفصول. وقد اوجب توهمهم ان الناس متماثلون ظنهم بانهم قادرون على التشريع للجنس البشري كله . قال فوندرسي : « ان القانون الحسن صالح لجميع الناس . »

وما علم نظريو الثورة الفرنساوية انه يوجد وراء ظواهر الامور عوامل خفية مسيرة لها وقد اثبت علم الحياة درجة ضلالهم ومقدار

تعلق الانسان بماضيه .

ومع ان المصلحين ايام تلك الثورة كانوا يتصادمون هم وتأثير الماضي فانهم لم يدركوا أمره وقد ارادوا القضاء عليه فقضى عليهم .

كان ايمان المشرعين بما في النظامات والقوانين من القوة كاملا وان تزعزع في اواخر الثورة الكبرى . قال غريغوار وهو على منبر المجلس التأسيسي « اننا لقادرون على تغيير الدين لو نريد ولكننا لانود ذلك » حقاً انهم ارادوا ذلك اخيراً ولكن حبط عملهم . نعم ذلل اليعاقبة الصعاب باستبدادهم الشديد والزموا الناس بما طاب لهم من القوانين ولكن عجزهم انكشف — بعد ما أتوا به في عشر سنين من اضطهاد وتخريب وحرق ومذابح وهوشات — انكشافاً حوّل عنهم وجوه الناس فاضطر نابليون الى اقامة اكثر ما هدموه .

ان التجربة العظيمة التي اتى بها اليعاقبة لتجديد المجتمع باسم العقل ذات فائدة عظيمة اذ ربما لاتسمح الظروف للانسان ان يعيدها مرة ثانية ، ويظهر رغم كونها درساً هائلاً انها ليست كافية لاقناع كثير من الناس فها نحن نرى الاشتراكيين يقترحون الآن تجديد المجتمع برمته حسب ما تدل عليه خططهم الوهمية .

٣ — في الاوهام التي حامت حول قيمة المبادىء الثورية

ان ما قامت عليه الثورة الفرنساوية من المبادىء الاساسية لوضع

حقوق جديدة مذكور في بيانات حقوق الانسان التي نشرت في سنة ١٧٨٩ ثم في سنة ١٧٩٣ ثم في سنة ١٧٩٥ وصرحت كلها «بان السلطة للامة»

على ان هذه البيانات الثلاثة يختلف بعضها عن بعض في كثير من الوجوه ولا سيما في المساواة . جاء في المادة الاولى من بيان عام ١٧٨٩ : «ان الناس يولدون ويعيشون احراراً وهم متساوون في الحقوق» وجاء في المادة الثالثة من بيان عام ١٧٩٣ «ان الناس متساوون بطبيعتهم» واما بيان عام ١٧٩٥ فاكثر اعتدالا إذ جاء في المادة الثالثة منه : «ان المساواة هي كون القانون واحداً للجميع» وبعد ان تكلم واضعو هذا البيان عن الحقوق رأوا ان الكلام فيه عن بعض الواجبات مفيد فشابه بارشاده الانجيل . جاء في المادة الثانية منه : «ان جميع واجبات الانسان والوطني تنشأ عن المبدأين الآتيين اللذين طبعتهما الطبيعة على جميع القلوب وهما: «لا تعامل الناس بما لا تحب ان يعاملوك به وعاملهم بما تحب ان يعاملوك به» والذي بقي من هذه البيانات هو مبدأ المساواة ومبدأ السلطة الشعبية .

ان شأن الشعار الجمهوري اي «الحرية والمساواة والاخوة» عظيم رغم قيمته العقلية الضعيفة ولهذا الرمز السحري الذى ظل منقوشاً على جدراننا حتى ينقش على قلوبنا قدرة خارقة تعادل ما يعزوه السحرة

الى بعض الالفاظ من القدرة ، وما القته وعوده من الآمال الجديدة في القلوب سهل انتشاره وقد ضحى الوف من الناس انفسهم في سبيله والآن اذا اضطرمت ثورة في العالم فان رجالها يستنجدون به .

حقاً انهم يجيدون الاختيار لأن الصيغة المذكورة هي من الامثال المبهمة الموهمة للنفوس والتي يفسرها كل امرىء على ما تقتضيه اذواقه واحقاده وآماله . ففي أمر الايمان لا شأن لمعنى الالفاظ الحقيقي وما سر قوتها الا بما ينسب اليها من الاهمية .

ان مبدأ المساواة هو اكثر مبادىء الشعار الثورى تسبيباً للنتائج وسنرى في جزء آخر من هذا الكتاب ان ذلك المبدأ وحده هو الذى بقي تقريبا وان نتائجه لا تزال تبدو للعيان .

لم تكن الثورة الفرنساوية هي التى علمت العالم مبدأ المساواة ولا حاجة لنا في اثبات ذلك الى البحث عن الجمهوريات اليونانية القديمة اذ ان الدين المسيحي والدين الاسلامي قد ارشدا الناس بأبهى بيان الى هذا المبدأ فلما كان هذا الناس في نظر هاتين الديانتين عباداً لا له واحد فانهم تساووا عنده وهو يفصل بينهم بما تقتضيه فضائلهم ، ومن هنا فان المبدأ القائل بمساواة النفوس أمام الخالق هو جوهرى عند المسلمين والنصارى .

ولكن اعلان المبدأ لا يكفى لمحافظة الناس عليه فالكنيسة المسيحية

لم تلبث ان عدلت عن مبدأ المساواة النظرى ولم يعبأ به زعماء الثورة الفرنساوية الا في خطبهم فقط .

يختلف معنى المساواة بحسب الاشخاص وكثيراً مايدل على مشاعر تناقض معناه الحقيقي اى على رغبة الانسان في ان لايرى فوقه احداً وان يكون كل امرىء دونه . وتعبر كلمة المساواة عند يعاقبة الثورة الفرنساوية و يعاقبة الوقت الحاضر عن حقدهم على جميع الافضليات ولذلك سعوا لمحق هذه الافضليات بتوحيد العادات والاوضاع والازياء والمراتب . ولما عجزوا عن اجتناب التفاوت الطبيعي المصادم لهم انكروه . جاء في البيان الثاني لحقوق الانسان اى بيان عام ١٧٩٣ الذى أشرنا اليه آنفاً : « ان جميع الناس متساوون بطبيعتهم »

يظهر انه انطوى تحت تعطش زعماء الثورة الفرنساوية للمساواة رغبة شديدة في التفاوت وهذا ماحدا نابليون ان يحدث ألقاب شرف واوسمة لهم . و بعد ان بين (تاين) ان نابليون وجد اشد اعوانه اطاعة بين اجلاف الثورة قال :

« اكتشف نابليون تحت كلمتي الحرية والمساواة اللتين كانتا تلوكهما افواههم ميلهم الى السيادة ورغبتهم في الامر والنهي والتفوق ولو مرؤوسين ثم رأى ان اكثرهم يطمع في المال والترف . ولا فرق بين النائب في لجنة السلامة العامة والوزير وبين الوالي ووكيله في العهد الامبراطوري فالرجل لا يتغير وان

غير لباسه ».

وكان اول نتيجة لمبدإ المساواة هو اعلان ابناء الطبقة الوسطى السلطة الشعبية . غير ان هذه السلطة ظلت نظرية ايام الثورة الفرنساوية .

ان مبدأ المساواة هو تراث الثورة الفرنساوية الدائم واما تأثير مبدأ الحرية والاخاء اللذين اكتنفاه في الشعار الجمهوري فضعيف ولم ينفعا ايام الثورة الفرنساوية وفي العهد الامبراطوري الافي تزويق الخطب وما ازداد عملها بعدذلك ابداً فلم يطبق مبدأ الاخوة في أى زمن ولم تبال الامم بمبدإ الحرية الاقليلا وقد تركه العمال فى الوقت الحاضر الى نقاباتهم .

والخلاصة ان الشعار الجمهورى كان ذا تاثير عظيم وان قل تطبيقه فلم يبق من الثورة الفرنساوية في نفوس الشعب سوى ثلاثة الفاظ مشهورة مجملة لانجيلها وقدنشرتها في جميع انحاء اوروبا جيوشها .

الباب الثاني

تأثير العقل والعاطفة والتدين والاجتماع
ايام الثورة الفرنساوية

الفصل الاول

نفسية المجلس التأسيسي

١ – المؤثرات النفسية ايام الثورة الفرنساوية

أثرت في تكوين الثورة الفرنساوية وفي ديمومتها عناصر نفسية وعاطفية ودينية وجموعية تابع كل واحد منها لمنطق خاص ، وقد نشأ عن عدم التفريق بين هذه المؤثرات أن فسر كثير من المؤرخين ذلك الدور تفسيراً سيئاً .

كان عمل العنصر العقلي الذي اتخذ آلة للتعبير والايضاح ضعيفاً . نعم انه اعد الثورة الفرنساوية ولكن اسره لم يستقم الا في اوائلها اى ايام كانت في قبضة ابناء الطبقة الوسطى وقد تجلى تاثيره حينئذ في كثير من الامور كلوائح اصلاح الضرائب والغاء امتيازات الاشراف الخ .

وعند ما تغلغلت الثورة المذكورة في الامة توارى عنصر العقل امام عناصر العاطفة والاجتماع واما عناصر التدين التي هي دعامة

الايمان الثوري فقد حرضت الجيوش على التعصب وسببت انتشار المعتقد الجديد في العالم.

وسنرى ان هذه العوامل بدت على نفسية الافراد واعمالهم ولربما كان المؤثر الديني هو اهمها ولذلك لا يمكن ادراك حقائق الثورة الفرنساوية كما يجب الا اذا اعتبرنا انها تكونت تكون المعتقدات الدينية، وقد يطبق عليها ما قلناه في مكان آخر عن جميع المعتقدات فاذا تصفحنا الفصل الذي بحثنا فيه عن ثورة الاصلاح الديني نرى انه يوجد شبه كبير بينه وبين الثورة الفرنساوية.

سعى الفلاسفة زمنا طويلا لاثبات ما للمعتقدات من القيمة العقلية القليلة وقد اخذوا في هذه الايام يفسرون شأنها تفسيراً اتم واحسن فاضطروا الى الاقرار بانها ذات تأثير كاف لتغيير جميع عناصر الحضارة.

انها تسخر الناس غير مستعينة بالعقل وعندها من القدرة ما يكفي لتحويل الافكار والمشاعر نحو غرض واحد ولا تضاهي قوة العقل المطلق قوتها فليس هو الذى يلقي الحمية في قلوب الناس

ويوضح لنا اللباس الديني الذى لبسته تلك الثورة قوة انتشارها ومالها من النفوذ في الحال والماضي، والمؤرخون الذين عدوا هذا الحادث العظيم كدين جديد قليلون وأظن ان (توكفيل) هو اول

الحادث العظيم كرين جديد قليلون واظن ان (تو كفيل) هو اول من استدل على ذلك حيث قال : « ان الثورة الفرنساوية هي ثورة سياسية سارت على نسق الثورات الدينية وبرزت مصطبغة بشيء من صبغتها ، واذا نظرتم الى وجه الشبه بينها وبين الثورات الدينية ترون انها انتشرت مثلها في اقاصي البلاد وتوغلت بالدعوة والارشاد . إلا ان ثورة سياسية تسعى مثلها في استمالة الناس الى مذهبها وتدعوا الاجانب بهمة الى انجاز ما تأمر به لامر عجيب »

وعندما يعترف بما في الثورة المذكورة من عناصر التدين يسهل ايضاح ما اوجبته من الهياج والتخريب . اثبت التاريخ ان هذين الأمرين ملازمان لتكوين المعتقدات وقد سببت الثورة الفرنساوية ما تطلبه الآلهة المنصورة عادة الى عبادها من العدوان واجتناب التسامح فاقلقت اوروبا مدة عشرين سنة وخربت فرنسا وافنت ملايين كثيرة من الناس واوجبت غزوات عديدة من الاعداء .

ان عنصر التدين هو دعامة المعتقدات ولا تلبث بعض العناصر العاطفية والعقلية ان تتراكم عليه وهكذا يجمع المعتقد بين المشاعر والاهواء والمنافع الصادرة عن العنصر العاطفي ثم يكتنف العقل جميع ذلك ليبرر حوادث لم يكن له يد في وقوعها ابداً

كان كل انسان ايام الثوره الفرنساوية يلبس المعتقد الجديد ثوباً

عقليا مختلفا باختلاف رغائبه فرأت الامم فيها الغاء لما كابدته من سلسلة المراتب والاستبداد الديني والسياسي وظن الكتاب كغوتيه والمفكرون ككانت انهم اكتشفوا فيها انتصار العقل، ونزل الاجانب كهومبولت بلاد فرانسا لاليستنشقوا هواء الحرية ويشاهدوا جنازة الظلم والاستبداد .

لم تدم هذه الاوهام الذهنية طويلا فقد اوجب تمثيل تلك الرواية المحزنة كشف الغطاء بسرعة عن حقيقة ما بنيت عليه من الحقائق .

٢ — زوال العهد السابق — اجتماع المجلس النيابي

قبل ان تخرج الثورات الى حيز العمل تتكون في عالم الفكر وقد بدأت الثورة الفرنساوية التي اعدتها الاسباب المذكورة سابقاً تبرز الى عالم الحقيقة في ايام لويس السادس عشر وكان ابناء الطبقة الوسطى في أيامه كلما ازدادوا سخطاً ولوما يكثرون من مطالبهم التي سماها الناس بالاصلاحات .

نعم اطلع لويس السادس عشر على ما فيها من الفوائد ولكن ضعفه جعله عاجزا عن إلزام الاشراف والاكليروس بها وعن تأييد وزرائه المصلحين كما لزيرب وتورغو .

اوجبت المجاعات شدة بؤس جميع الطبقات وازدياد الضرائب

وما كانت تناله بطانة الملك من الرواتب الجسيمة لم يكن يتفق مع فاقة الناس ابداً . دعي الاعيان ليعالجوا حالة البلاد الماليـة فرفضوا المساواة في الضرائب ولم يسلموا الا باصلاحات زهيده لم يرض برلمان باريس بتسجيلها ففض فشاطرته برلمانات الولايات رأيه ففضت ايضا ولكن لما كانت مستولية على الرأي العام حرضته في كل مكان على مطالبة الحكومة بدعوة المجلس النيابي الذى لم يجتمع منذ قرنين .

(وافقته الحكومة على ذلك فاوفد خمسة ملايين فرنساوي بينهم ١٠٠٠٠٠٠ كهنوتي و ١٥٠٠٠٠٠ شريف الفاً ومئتي نائب منهم ٥٨٧ ممثلون للطبقة الثالثة واكثرهم من القضاة والمحامين والاطباء ومنهم ٣٠٠ ممثلون للاكليروس ثلثاهم يمت الى العوام بروابط النسب ويميلون بقلوبهم الى الطبقة الثالثة ضـد الاشراف والاكليروس)

وقد بدت منذ الاجتماعات الاولى اختلافات روحية بين اولئك النواب المتفاوتين في احوالهم الاجتماعية والنفسيـة فكانت ازياء النواب الممتازين تضاد ملابس وكلاء الطبقة الثالثة القاتمة مضـادة مخزية . ولما ستر نواب الاشراف والاكليروس في الاجتماع الاول رؤوسهم امام الملك حسبما تقتضيه امتيازاتهم اراد نواب الطبقة الثالثة تقليدهم فاحتج الاولون على ذلك وفي اليوم الثـاني حدثت بين الطرفين اختلافات اخرى مصدرها عزة النفس فدعا نواب الطبقة

الثالثة نواب الاشراف والاكليروس المجتمعين في بهوين بعيدين الى الاجتماع سوية كي يدققوا وثائق نيابتهم فرفض الاشراف ذلك وبعد ان استمرت المفاوضة اكثر من شهر اعتبر نواب الطبقة الثالثة أنفسهم ممثلين لـ ٩٥ في المئة من مجموع الامة بناء على اقتراح الشماس (سيايس) وسموا انفسهم بمجلس الامة، وهكذا اخذت الثورة الفرنساوية تسير مائجة.

٣ — المجلس التأسيسي

تتكون قوة المجالس خاصة بسبب ضعف مناهضيها. فلما شعر المجلس التأسيسي بما لقيه من المقاومة الضعيفة واستحوذ عليه بعض الخطباء اخذ منذ البداية يقول ويفعل قول الآمر الناهي وفعله ثم ادعى بان وضع الضرائب امر يتعلق به وحده فتعدى بذلك على حقوق الملك.

(كانت مقاومة لويس السادس عشر ضئيلة فاكتفى باغلاق بهو المجلس النيابي فاجتمع النواب حينئذ في بهو (جودوبوم) حيث اقسموا انهم لا يتفرقون قبل ان يسنوا دستوراً للمملكة. ثم انضم اليهم اكثر نواب الاكليروس وقد نقض الملك قرار المجلس فأمر النواب بالانصراف وعندما دعى رئيس الحجاب المركيز (دودرو يزي) النواب الى العمل بأمر الملك صرح رئيس المجلس «بأن

الأمة وهي مجتمعة لا يمكن ان تتلقى امراً من احد» ثم أجاب (ميرابو) رسول الملك قائلاً: «ان المجلس الذي اجتمع بأمر الأمة لا تفضه الا قوة الحراب» هنالك أذعن الملك وفي اليوم التاسع من شهر حزيران سمى النواب مجلسهم بالمجلس التأسيسي وهكذا اعترف الملك بوجود سلطة جديدة كانت مجهولة في الماضي اي بسلطة الأمة التي يمثلها نوابها فطويت بذلك صحيفة الملكية المطلقة.)

(ولما احس لويس السادس عشر انه في خطر مستمر أقام في اطراف فرساي كتائب من مرتزقة الاجانب فطلب اليه المجلس ان يسحبها فامتنع وعزل نيكر مقيما مكانه المرشال (دوبروغلي) المشتهر بحزمه. ولكن المجلس كان عنده مدافعون ماهرون وقام (كاميل ديمولان) وغيره من الخطباء يعظون الجماعة ويدعونها الى الدفاع عن الحرية ثم دقوا الجرس تهييجاً للناس وجندوا ١٢٠٠٠ مقاتل واستولوا على مستودع البندقيات والمدافع وساقوا عصابات مسلحة في ١٤ تموز الى (الباستيل) فسلم هذا الحصن بعد ان دافع بضع ساعات وقد وجد فيه سبعة سجناء احدهم احمق واربعة منهم متهمون بجرم التزييف.)

كان الباستيل الذى هو سجن كثير من ضحايا الظلم رمزاً للاستبداد الملوكي ولكن لم يوجد ما يجعل الشعب الذى هدمه ان

يتألم منه إذ لم يعتقل فيه سوى الاشراف. وقد استمر تأثير الاستيلاء على تلك القلعة حتى اليوم فقال كثير من كبار المؤرخين كالموسيو رامبو

«ان الاستيلاء على الباستيل لحادث عظيم في تاريخ فرنسا بل وفي تاريخ اوربا إذ فتح دوراً جديداً في تاريخ العالم»

يوجد في هذا القول الساذج شيء من الأفراط فاهمية ذلك الحادث هو اعطاؤه الشعب لأول مرة مثالاً واضحاً على وهن سلطة الملك التي كانت مخيفة، ومتى تزلزلت مكانة مبدأ السلطة اسرع في الانحلال وماذا لا يطلب من الملك العاجز عن الدفاع عن حصنه الخاص إزاء حملات الشعب؟ هكذا اصبح السيد ذو الحول والقوة فيما مضى لا يقدر على شيء.

كان الاستيلاء على الباستيل، مصدراً لحادثة من حوادث العدوى النفسية التي كثر وقوعها ايام الثورة الفرنساوية إذ أخذت علائم التمرد تلوح على مرتزقة الاجانب رغم كون الحادثة المذكورة لا تهمهم وهذا ما جعل لويس السادس عشر يرضى بتسريحهم، ثم استدعى (نيكر) ثانية وذهب الى دار البلدية فاستصوب جميع ما وقع من الامور واستحسن الراية الجديدة ذات الالوان الثلاثة (الازرق والابيض والاحمر) التي جاء بها (لافايت) قائد الحرس الوطني والتي تجمع بين راية الملك وراية مدينة باريس.

ومع انه لايجوز عد الفتنة التي ادت الى الاستيلاء على الباستيل « كحادث عظيم في التاريخ » فانها تدل على الوقت الذى شرع فيه الشعب يقبض على ناصية الحكم فقد اخذ الشعب المسلح بعدها يتدخل في مذاكرات المجالس الثورية ويشدد وطأته عليها .

وقد استوجبت مداخلة الشعب المذكورة المطابقة للمبدأ القائل بسلطته عجب كثير من مؤرخي الثورة الفرنساوية واحترامهم ، ولو بحث هؤلاء ولو بحثاً سطحياً عن روح الجماعات لرأوا ان ما يسمونه بالشعب لم يعبر الاعن ما يريده بعض الزعماء ، اذاً يخطيء من يقول : ان الشعب استولى على الباستيل وهجم على التويلري واحتل مجلس العهد الخ بل يجب ان يقال ان بعض الزعماء جمعوا بواسطة الاندية عصابات من الشعب ساقوها على الباستيل والتويلري الخ . وهذه الجموع نفسها هي التي هجمت ايام الثورة الفرنساوية على اشد الاحزاب اختلافاً ودافعت عنها حسب من يكون على رأسها من الزعماء فالجماعات لا رأي عندها غير رأي رؤسائها .

وبما ان المثل المذكور من اعظم أمثلة التلقين تأثيراً فقد عقب الاستيلاء على الباستيل تخريب حصون اخرى فاعتبر الفلاحون كثيراً من القصور باستيلات صغيرة وطفقوا يحرقونها مقتدين بسكان باريس وكان غضبهم يشتد وقتما يجدون في تلك القصور صكوكاً

إقطاعية .

ومهما بالغت غطرسة المجلس التأسيسي أمام الملك فانه اظهر كجميع المجالس الثورية التي جاءت بعده جبناً عظيماً إزاء الشعب اذ قبل في الليلة الرابعة من شهر اغسطس اقتراح احد الاشراف الكونت (دونواي) القائل بالغاء جميع حقوق الامراء الاقطاعيين راجيا بذلك ختام المشاغبة ومع ان هذا القرار الغى جميع امتيازات الاشراف دفعة واحدة فقد صوت له واعضاء المجلس يعانق بعضهم بعضاً باكين لشدة الفرح ، و يتضح لنا مثل هذا العارض الحماسي عندما نتذكر مقدار ما للانفعالات النفسية من العدوى في الجماعات ولاسيما في المجالس التي استحوذ عليها الخوف .

ولو اقلع الاشراف عن امتيازاتهم قبل بضع سنين لاجتنبت الثورة الفرنساوية ولكن ذلك وقع بعد أوانه ، ولا يفعل ترك الحقوق كرهاً غير تريد مطاليب من تركت لاجلهم فيجب في عالم السياسة كشف عواقب الامور ومنح المطاليب طوعاً قبل ان يحل الوقت الذي تمنح فيه كرهاً .

(تردد لويس السادس عشر شهرين في قبول ما قرره المجلس ليلة ٤ اغسطس ثم ذهب الى فرساي فساق عليه الزعماء عصابة يتراوح عددها بين ٧٠٠٠ و ٨٠٠٠ نسمة مؤكدين لها أنه يوجد في دار

الملك أزودة كثيرة . كسرت هذه العصابة حواجز القصر الملكي وقتلت بعض الحرس وجيء بالملك وجميع اسرته الى باريس بين جماعة تصرخ والناس يحملون على رؤوس حرابهم هامات من قتلوهم من الجنود وقد استمرت هذه السياحة العظيمة ست ساعات وتسمى تلك الحوادث بأيام تشرين الاول .

عظمت شوكة الشعب واصبح الملك في قبضته اي تحت رحمة الاندية وزعمائها وقد استمرت هذه الشوكة الشعبية بعدئذ ما يقرب من عشر سنين فارتكنت عليها الثورة الفرنساوية تقريبا .

ورغم منـاداة المجلس التأسيسي بان الحكم للشعب فقد وهرته الفتن التي وقعت مجاوزة حد ظنونه النظرية وقد حمل انه يوضعه دستوراً يضمن للناس سعادة ابدية يعود الجميع الى النظام .

كان من القوانين الاساسية ونقضها ثم تجديدها شغل المجالس الرئيسي ايام تلك الثورة لاعتقاد الاعضـاء انها قادرة على تحـويل المجتمعات ومن هذه القوانين البلاغ الذى اذاعـه المجلس التأسيسي ملخصا فيه مبادءه في حقوق الانسان ريثما يتم وضع قانون البـلاد الاساسي .

لم يؤثر الدستور والتصـريحات والمناشير والخطب في الفتن الشعبية والانشقاق الذى تفاقم في المجلس التأسيسي وقد عانى هذا

المجلس تسلط الحزب المتطرف المستند الى الاندية وكان اصحاب النفوذ من الزعماء كدانطون وكاميل ديمولان ثم مارا وهبير يهيجون السوقة بخطبهم وجرائدهم فصار الهبوط من المنحدر المؤدي الى التطرف سريعا .

ولم تتحسن مالية البلاد في اثناء هذه القلاقل ولما اعتقد المجلس التأسيسي في نهاية الامر بان الخطابة في الانسانية لا تبدل شيئاً من حالة البلاد المالية التي يرثى لها وشعر باشرافها على الافلاس (اصدر في ٢ تشرين الثاني سنة ١٧٨٩ بالاستيلاء على املاك الكنيسة .)

قدرت محاصيل هذه الاملاك مع الزكاة التي كانت تأخذها الكنيسة من المؤمنين بمئتي مليون وقيمتها بثلاثة مليارات وكانت تلك المحاصيل توزع قبل ذلك على بضع مئآت من الاساقفة واكليروس البلاط الخ . جعلت هذه الاملاك التي سميت فيما بعد بالاملاك الوطنية ضماناً للاوراق النقدية وقد صدر في المرة الاولى من هذه الاوراق ما قيمته اربعمئة مليون فاقبل عليها الجمهور في البداية ولكن مقدارها زيد في دور العهد ودور الدير كتوار زيادة بلغت ٤٥ ملياراً فاصبحت ورقة المئة ليرة لا تساوي سوى بضعة سانتيمات .

وقد أغرت لويس السادس عشر الضعيف حاشيته فحاول —

ولكن بدون طائل — ان يناهض قرارات المجلس التأسيسي. فضه استصوابها . وانتشرت الحركة الثورية — بتأثير العدوى النفسية وما اتى به الزعماء من التلقين — مستقلة عن المجلس التأسيسي حتى انها ثارت عليه في بعض الاحيان (وتكونت في المدن والقرى بلديات ثورية يحفرها حرس وطني محلي وكانت المدن المجاورة تتفق على الدفاع عن نفسها عند الحاجة وهذه المحالفات لم تلبث ان اصبحت محالفة واحدة فارسلت ١٤٠٠٠٠ حارس وطني في ١٤ تموز سنة ١٧٩٠ الى حي (شاندومارس) في باريس حيث اقسم الملك يمين الاخلاص للدستور الذي سنه المجلس الوطني .)

و بالرغم من هذا القسم فان كل ائتلاف بين مبادئ الملكية الارثية والمبادىء التي اعلنها المجلس كان مستحيلا (ولما احس الملك بعجزه فكر في الفرار فقبض عليه في (فارين) وسيق الى باريس اسيراً فأسكن في قصر التويلري) ومع ان المجلس ملكي فقد منع الملك عن التصرف بسلطته آخذاً على عاتقه وحده القيام بامور الحكومة وما وجد ملك في موقف حرج كلويس السادس عشر ايام فراره ولو كان عنده دهاء (ريشليو) لما كفاه خروجه من ذلك المأزق اذ ان الجيش الذى كان يستطيع ان يستند اليه قد تخلى عنه .

لا شك ان اكثرية الامة الفرنساوية الساحقة كانت ملكية في

عهد المجلس التأسيسي الذى هو ملكي ايضاً ولذلك احتمل ان يظل الملك قابضاً على زمام الحكم لو رضي بنظام ملكي دستوري ، ونستدل من ذلك انه لم يكن على لويس السادس عشر الا ان يأتي بعمل قليل ليتفاهم مع المجلس . نعم كان عليه ان يأتي بعمل قليل ولكن هذا العمل متعذر على رجل ذى مزاج مثله ، ولو رضي بتغيير النظام الملكي الذي انتقل له عن الآباء لانتصبت امامه اشباح اجداده واذا فرضنا انه حاول ذلك لاستحال عليه التغلب على اسرته والاكليروس والاشراف والبطانة لان هذه الطوائف القديمة التي استند اليها النظام الملكي كانت ذات قوة تضاهي قوة الملك على وجه التقريب ، والقوة هي التي كانت ترغم الملك على الاذعان وتدلنا استغاثته بالاجنبي على ان اليأس بلغ منتهاه عنده وانه رأى جميع اركانه الطبيعية قد تداعت .

علق الملك والملكة اغرب الآمال على معونة النمسا المزاحمة فرنسا منذ عصور . وهي وان قبلت ان تأتي لاغاثة الملك فذلك لها في نيل غنيمة عظيمة وقد صرح (مرسي) بان ستطلب الالزاس ب ونافار مكافاة .

لما رأى زعماء الاندية ان المجلس ملكي بكل معنى الكلمة ، سلطوا ب فوقعت عريضة تطالب المجلس بان يجمع جميع حدود

مؤسسة لتحاكم لويس السادس عشر، و بما ان المجلس ظل ملكياً رغم كل شيء ورأى ان الثورة الفرنساوية اصبحت ذات صبغة شعبية عزم على القيام بالمدافعة ازاء فتن السوقة فساق بقيادة (لافايت) كتيبة من الحرس الوطني الى حي (شاندومارس) لتشتيت الجماعة المحتشدة هنالك فقتل خمسون من المتظاهرين .

الا ان المجلس لم يصر على المقاومة طويلاً وقد سببت شدة جبانته امام الشعب زيادة تجبره على الملك وانتزاعه كل يوم شيئاً من امتيازاته وسلطته حتى صار موظفاً بسيطاً عهد اليه تنفيذ ما يبلغ من الاوامر .

نعم ظن المجلس انه قادر على القيام باعباء السلطة التي انتزعها من الملك ولكن ذلك فوق طاقته إذ السلطة المقسمة كثيراً تبقى لا عمل لها قال ميرابو :

« لم أر سلطة اشد وطأة من السلطة المعطاة الى ستمئة رجل »

لم يلبث المجلس بعد ان توهم بانه ضم جميع السلطات اليه و بانه سيتصرف فيها على طريقة لويس الرابع عشر ان عجز عن العمل وكانت كلما تضعف قدرته تتفاقم الفوضى وما فتأ الزعماء لحظة عن تهييج الشعب فاصبحت الفتنة قوة البلاد الوحيدة وصار يستولي على المجلس كل يوم فئة من المشاغبين المتجبرين فيملون عليه

متوعدين منذرين . وليست جميع هذه الفتن الشعبية التي اطاعها المجلس خائفاً غريزية بل كانت مظاهر لسلطات جديدة وهي الاندية والهيئة الثورية .

كان النادي اليعقوبي اقوى الاندية وسرعان ما اسس في الولايات خمسمائة فرع لتعمل بامره وقد استمر سلطانه في جميع ايام الثورة الفرنساوية وتسلط على جميع فرانسا بعد تسلطه على المجلس ولم يزاحمه غير الهيئة الثورية التي انحصر نفوذها في باريس . صار الشعب غير راض عن المجلس الوطني لضعفه وعجزه واعترف هذا المجلس بان سلطانه آخذ في التقلص فأسرع في اتمام الدستور الجديد لينفضّ بعد ذلك ، وكان قراره الاخير اخرق اذ صرح فيه بأنه لا يحق لاعضاء المجلس التأسيسي ان يكونوا اعضاء في المجلس التشريعي فحرم بذلك اعضاء هذا المجلس الاخير من تجربة سلفهم

ثم وضع الدستور في ٣ ايلول سنة ١٧٩١ وفي ١٣ من ذلك الشهر رضي به الملك الذي اعاد اليه المجلس سلطته . وقد اقام هذا الدستور حكومة نيابية فعهد بالسلطة التشريعية الى نواب ينتخبهم الشعب و بالسلطة التنفيذية الى ملك يحق له ان يرفض قرارات المجلس ، ثم قسم المملكة الى مديريات بدلا من تقسيمها السابق الى ولايات والغى الضرائب القديمة مقيما مكانها ما هو معمول به الآن من

الضرائب المقررة وغير المقررة .

وقد ظن المجلس المذكور الذي غير تقسيم المملكة وقلب نظامها الاجتماعي القديم انه قادر على تحويل نظامها الديني ايضاً فاراد ان يقبض على ما للبابا من النفوذ بان يجعل الشعب منتخباً لرجال الاكليروس . أثار هذا القانون المدني الاكليروسي مصارعات واضطهادات دينية استمرت حتى عهد القنصولاوابي ثالثا التساوسة ان يقسموا يمين الاخلاص .

لقد نشأ عن الثورة الفرنساوية في دور المجلس التاسيسي الذى استمر ثلاثة اعوام نتائج عظيمة ولربما كان اهمها نقل ثروة اصحاب الامتيازات الى ابناء الطبقة الثالثة لان هذا العمل أوجب ظهور انصار ملتهبين حماسة للنظام الجديد . واذا كانت دعامة الثورة تقضاء الشهوات فانها تنال قوة عظيمة فبعد ان ادرك ابناء الطبقة الثالثة الذين حلوا مكان الاشراف والفلاحون الذين اشتروا الاملاك الوطنية ان اعادة النظام السابق يحرمهم من جميع تلك الفوائد دافعوا عن الثورة الفرنساوية أشد دفاع . وما اتت به نصف المديريات من القيام في وجه الحيف الذي لحق بهاذهب ادراج الرياح إذ تغلب الجمهوريون على كل معارضة وقد بلغت قوتهم مبلغاً اصبحوا به قادرين على الدفاع عن المثل الاعلى الجديد وعن منافعهم المادية معاً وسنرى ان تأثير

هذين العاملين استمر في جميع ادوار الثورة الفرنساوية وأعان على إقامة الامبراطورية.

الفصل الثاني

نفسية المجلس التشريعي

١ — الحوادث السياسية التي وقعت في عهد المجلس التشريعي

لنلخص ما وقع في عهد المجلس التشريعي الذي استمر سنة واحدة من الحوادث السياسية العظيمة قبل ان نبحث عن أوصافه النفسية إذ كان لها شأن كبير في مظاهره الروحية:

لم يفكر المجلس التشريعي الذي كان ملكياً كالمجلس السابق في القضاء على الملكية. وهو وإن ارتاب من الملك فانه كان يود ان يحافظ عليه. إلا ان لويس السادس عشر كان يطلب تدخل الاجنبي و يتردد بين عوامل متناقضة ايام اقامته في قصر (التويلري). لا ريب في انه امدّ صحفاً بالمال لتغير الرأي العام في شانه ولكن كتبتها الغامض امرهم كانوا يجهلون صناعة التأثير في روح الجماعات. فكانت

طريقتهم الوحيدة في الاقناع تهديد جميع انصار الثورة بالصلب والانذار باستيلاء جيش اجنبي على البلاد لانقاذ الملك.

اصبح الملك لا يعتمد الا على ملوك الاجانب واخذ الاشراف يهجرون البلاد افواجاً أفواجاً واضحت بروسيا والنمسا وروسيا تتوعد فرنسا بالاستيلاء عليها والبلاط يروّج دسائس هذه الدول ثم اقترح النادي اليعقوبي ان يناهض تحزب الملوك على فرنسا بعقد تحالف بين الشعوب على ملوكها. وكان الجيرونديون واليعاقبة قابضين حينئذ على زمام الثورة فحثوا الناس على التجنيد فجهزوا ٦٠٠٠٠٠٠ متطوع ثم رضي الملك بان يعين وزارة جيرونديةوقد استحوذت هذه الوزارة على لويس السادس عشر فجعلته يقترح على المجلس شهر الحرب على النمسا فصوت المجلس لذلك حالا.

(غير ان الملك لم يكن مخلصاً في اعلانه الحرب فاطلعت الملكة النمساويين على خطط فرنسا الحربية وعلى مذاكرات مجلس الوزراء كانت فاتحة الحرب مشئومة فتشتتت فرق كثيرة لما هوجمت بغتة فثار سكان الضواحي لتحريض الاندية إياهم ولاعتقادهم ان الملك يتآمر مع الاجنبي فساقهم زعماء اليعاقبة — ولاسيما دانطون — الى المجلس في ٢٠ حزيران حاملين عريضة يتوعدون فيها الملك بالخلع ثم استولوا على قصر (التويلري) وشتموا الملك)

كان القدر يدفع لويس السادس عشر لينال جزاءه وبينما كان وعيد اليعاقبة للملكية يغصب مديريات كثيرة علم الناس بوصول جيش بروسي الى حدود (اللورين) وكان امل الملك والملكة بمعونة الاجنبي باطلا، ولما رأت (ماري انطوانيت) ان بعض الهائجين يسوسون فرانسا بما يلقونه من الرعب ظنت بانها تقدر ايضاً على تخويف سكان باريس وارجاعهم الى إسرة الملك بالوعيد والتهديد (فاسرت (فيرسان) ان ينشر تصريح الدوك (دو برونسويك) الذي هدد فيه باريس «بتخريبها اذا مست عائلة الملك بسوء»). كانت النتيجة خلاف ما توقعت إذ أسخط التصريح المذكور الناس على الملك واعتقدوا بأنه شريك في ذلك فازداد الشعب منه نفوراً.

(ثم حرض (دانطون) وكلاء الأندية فأقاموا في دار البلدية هيئة ثورية وقد سجنت هذه الهيئة قائد الحرس الوطني المخلص الى الملك ثم قرعت الجرس ايقاظاً للناس وأثارت الحرس الوطني وساقته مع السوقة في ١٠ اغسطس الى قصر (التويلري) فتفرقت الكتائب التي استدعاها لويس السادس عشر ولم يبق للدفاع عنه غير جنود اسويسرية وبعض الاشراف فقتل جميعهم تقريباً ولما بقي الملك وحيداً التجأ الى المجلس فطلبت الجماعة اسقاطه فقرر المجلس التشريعي نزع السلطة منه تاركاً امر البت في مصيره الى المجلس القادم اي مجلس العهد.)

٢ = صفات المجلس التشريعي النفسية

يوجد في البحث عن المجلس التشريعي المؤلف من اعضاء جدد فائدة نفسية خاصة فالمجالس التي تجلت فيها صفات الجموع السياسية مثل ذلك المجلس قليلة العدد .

كان عدد نوابه سبعمائة وخمسين منقسمين الى ملكيين متطرفين وملكيين دستوريين وجمهوريين وجيرونديين وموتنتاريين وكانت اكثريته من المحامين ورجال الادب وقد حوى ايضاً قليلاً من الاساقفة الدستوريين وكبار الضباط والقسيسين والعلماء .

ان مبادىء اعضاء هذا المجلس صبيانية فكان اكثرهم مشبعاً بافكار روصو القائلة بالرجوع الى الحالة الفطرية الاولى وكان جميعهم يميل الى اليونانيين والرومانيين الاقدمين مستعينين بافكار قاطون وبروتوس وغراكوس وبلوتارك ومارك اوريل وافلاطون وكانوا يسمون لويس السادس عشر عند ما يريدون شتمه بكاليغولا .

حقاً انهم ثوريون لرغبتهم في القضاء على التقاليد ولكنهم رجعيون لطمعهم في العودة الى ماض عهيد . غير ان النظريات لم تؤثر الاقليلا في سيرهم وكان العقل يظهر في خطبهم دون اعمالهم وقد استولت الوساوس العاطفية والدينية التي بينا قوتها سرات عديده عليهم .

ان صفات المجلس التشريعي النفسية كصفات المجلس التأسيسي ولكنها أشد وتلخص في اربع كلمات وهي سرعة الانفعال وسرعة التقلب والجبانة والضعف ويستدل على سرعة تقلبه وسرعة انفعاله من تحولاته المستمرة في سيره فيوماً كان اعضاؤه يتشاتمون ويتلاكزون ويوماً يتعانقون باكين وقد هتفوا هتافاً شديداً للعريضة التي طلب فيها مجازاة من قالوا باسقاط الملك ثم حيوا الوفد الذي اتى في اليوم ذاته ليلتمس خلعه (واما جبن المجلس وضعفه فكانا شديدين فقد قرر نزع السلطة من الملك رغم كونه ملكياً ولبى طلب الهيئة الثورية في تسليمه مع عائلته اليها لتسجنه في برج (التامبل) وقد ظهر عجزه - كالمجلس التأسيسي — عن التصرف بسلطته ففوض زمامه الى الهيئة الثورية والاندية التي يديرها زعماء نافذون كهبر وطاليان وبوسينيول ومارا وروبسبيير الخ.)

(ظلت تلك الهيئة الثورية دعامة للحكومة حتى الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية (١٧٩٤) وكانت تسير كان ادارة باريس فوضت اليها فهي التي طلبت سجن لويس السادس عشر في برج (التامبل) مع ان المجلس اراد اعتقاله في قصر (لوكسنبرغ) وهي التي ملأت السجون بالمتهمين ثم امرت بذبحهم.

وأمر الفظاظة التي أبادت بها عصابة مؤلفة من ١٥٠ عائلاً ما

يقرب من ١٢٠٠ نسمة في اربعة ايام مشهور . أعطي هؤلاء العائثون ٢٤ ليرة اجرة يومية ودفعهم الى تلك الاعبادة المسماة بمذابح ايلول بضعة اعضاء من الهيئة الثورية . ولقد احتفى (بيطون) رئيس بلدية باريس بهؤلاء القتلة وسقاهم خمراً فاحتج على ذلك بعض الجيرونديين دون اليعاقبة الذين التزموا جانب السكوت .

(تجاهل المجلس في البداية أمر تلك المذابح التي حث على اقترافها كثير من اعضائه) كقوطون و بيوفارين وهو وان قرر ان يؤنبهم عليها في نهاية الامر فانه لم يجرأ على منع استمرارها ، الان شعوره بعجزه اوجب انفضاضه بعد خمسة عشر يوماً من وقوع ذلك الحادث فاسحاً المجال لمجلس العهد .

لا شك في انه أساء الصنع باعماله لا بنياته فمع انه ملكي فقد اقلع عن الملكية ومع انه من المتمذهبين بمذهب الانسانية فقد حدثت مذابح ايلول على مرأى منه ومع انه سلمي فقد رمى بفرنسا في حرب هائلة فاثبت لنا بسيره ان الحكومة الضعيفة تؤدي الى خراب الوطن دائماً .

دلنا تاريخ المجلسين الثوريين الاولين على ارتباط الحوادث بعضها ببعض ارتباطا وثيقا وانها سلسلة من الضرورات التي قد تتصرف بالحلقات الاولى منها ولكن الباقية تتطور مستقلة عن إرادتنا

فقرارات المجلس التأسيسي الاولى وان صدرت عن العقل والارادة فان نتائجها وقعت مستقلة عن كل ارادة وكل عقل وكل تبصر. ومن كان يقدر من رجال عام ١٧٨٩ على طلب قتل لويس السادس عشر اوعلى الاخبار بذلك القتل وبحروب (فانده) وبالهول الاكبر وبالمقصلة وبالفوضى ثم بالرجوع الى التقاليد والى النظام على يد احد الجنود الحديدية.

لربما كان تكوين حكومة الجماعات ونموها اشد الحوادث التي نشأت عن اعمال المجالس الثورية الاولى ظهوراً ويمكن ان نكتشف وراء الحوادث المذكورة سابقا اي الاستيلاء على الباستيل والاستيلاء على قصر فرساي والهجوم على مستودعات التويلري وقتل الحرس السويسري واسقاط الملك واعتقاله سنن روح الجماعات وروح زعمائها.

وسنرى الآن ان سلطة الجماعات سادت شيئا فشيئا فاستعيدت جميع السلطات ثم حلت مكانها في نهاية الامر.

الفصل الثالث

روح دور العهد

١ — قصة دور العهد

ليست وثائق تاريخ العهد النفسية كثيرة فحسب بل تثبت لنا ايضاً انه يستحيل على شهود احد الادوار وعلى تابعيهم الاولين ان يأتوا باحكام صحيحة في ما يشاهدونه من الحوادث وفي من يحيط بهم من الناس .

لم يشرع في الاتيان باحكام عليها مسحة من التدقيق في الثورة الفرنساوية الا بعد مضي اكثر من عصر على نشوبها وان لم تزل هذه الاحكام مشتبهاً فيها . ويتطلب الوصول الى ذلك استخراج الوثائق الجديدة من خزائن الاوراق القديمة وانقشاع غيوم التقصص الحاجبة للحقيقة مع تقادم العهد .

لربما كانت قصة الرجال الذين نعتهم الادباء بـ« غيلان العهد » اشد تلك القصص رسوخاً في النفوس فقد تركت محاربة رجال العهد لفرنسا الثائرة ولأوروبا المدججة بالسلاح في النفوس تأثيراً جعلها بان تظن بان ابطالها مخلوقون من طينة اسمى من طينة البشر .

ان نعت « الغيلان » مقبـول ما دامت حوادث ذلك الدور يخلط بعضها ببعض فتبرز كانها حادثة واحدة ، ولما قيـل بارتباط الحوادث التي وقعت في آن واحد خلطت اعمال الجيوش الجمهورية باعمال جيوش العهد فاوجب تدفق ما نالته الاولى من الغزو والشرف على الثانية تبرير ملاحم الهول الاكبر ووحشية الحرب الاهليـة وتخريب فرنسا ، ولكن الكتلة المتباينة اجزاؤها تفككت ازاء النقد الحديث الثاقب فحافظت جيوش الجمهورية على منزلتها واضاع رجال العهد الذين لم يبالوا الا بالحروب الاهلية اعتبارهم الادبي ، حقاً لم يهتم باسر الجيوش في ذلك الحين سوى عضوين او ثلاثة من لجن المجلس ولم يتم لها النصر الا بفضل عددها ودهاء قوادها وما ادخله الايمان الجديد من الحماسة في قلوبها وسوف نبين في فصل آت خصصناه للبحث عن الجيوش الثورية كيف انتصرت الجيوش المذكورة على اوروبا الشاكية السلاح ، انها سارت مشبعة بمبادئ الحرية والمساواة التي هي انجيل ذلك الزمن ووصلت الى الحدود حيث توقفت مدة طويلة وظلت متمسكة بنفسية خاصة تختلف عن نفسية الحكومة التي جهلت أسرها في البداية وازدرتها في النهاية .

لم يبال رجال العهد بانتصار الجيوش وقد اقتصروا على التشريع صدفة حسب ميل زعمائهم الذين ارادوا تجديد فرنسا بالمقصلة . من

اجل هذه الجيوش المستبسلة صارت قصة العهد تاريخاً مبجلا، وقد أخذ ذلك التبجيل يزول الآن لان البحث المفصل عن نفسية (غيلان العهد) عجل في خفضهم، اثبت هذا البحث انهم كانوا قليلي العقل والذكاء فاعترف اشد الناس دفاعاً عنهم — كالمسيو اولار — بذلك واليك ما قاله هذا المؤلف في كتابه الذي سماه (تاريخ الثورة الفرنساوية):

«ان القول بأن الجيل الذي أتى بين عامي ١٧٨٩ و١٧٩٩ باعمال عظيمة مخيفة هو من الغيلان اي ارفع من الجيل الذي جاء قبله وبعده وهم قد مضى فليس مؤسسوا الاحزاب البلدية واليعقوبية والوطنية التي تمت الثورة الفرنساوية على يدها اسمى من رجال فرنسا في عهد لويس الخامس عشر او لويس فيليب ذكاءً ونبوغاً. وهل اولئك الذين حفظ التاريخ اسماءهم لظهورهم على مسرح باريس اولكونهم اخطاب خطباء المجالس الثورية ذوو شمائل فريدة، نعم يستحق (ميرابو) ان يلقب بخطيب عبقري الى حد معين واما الآخرون كروبسبير ودانطون وفيرنيو فهل هم ابلغ من خطبائنا في الوقت الحاضر مثلا؟ جاء في خواطر مادام رولان التي كتبتها عام ١٧٩٣ اي في عهد (الغيلان): إن فرنسا كانت فقيرة من الرجال ونعجب لوقوع هذا الفقر ايام الثورة الفرنساوية واحتواء البلاد في ذلك الحين على عديمي العقل والذكاء فقط.

وإذا بحثنا عن رجال العهد وهم مجتمعون نرى انهم لم يتصفوا بشيء من الذكاء والفضيلة والشجاعة وان الخوف لم يبد على جماعة كما بدى عليهم وقد انحصرت بسالتهم في خطبهم وفي الحمل على

الممالك البعيدة ، كان هذا المجلس المختال الذى يتوعد الملوك اجبن الجموع السياسية التي عرفها العالم وأشدها خضوعاً فقد انقاد كالعبد الى الاندية والهيئة الثورية وارتجف فرقاً امام الوفود الشعبية التي كانت تستولي عليه كل يوم وعمل بوصايا مثيرى الفتن حتى انه سلمهم أنبل اعضائه ثم اصبح مثالاً مخزياً لتصويته — عملاً بوصايا العوام — لقوانين هي من العقامة بحيث اضطر الى الغائها بعدان تركت الغوغاء بهو الاجتماع .

ان المجالس التي اتت بضعف مثل ذلك قليلة ومن يود ان يبين الدرك الذي تهبط اليه الحكومات الشعبية فليتذكر قصة « العهد »

٢ — تاثير انتصار الديانة البعقوبية

نعد رسوخ الديانة الثورية من أهم الاسباب التي منحت دور العهد صبغته الخاصة وقد كمل في هذا الدور صوغ العقيدة التي كانت في طور التكوين .

وتتركب هذه العقيدة من عناصر مختلفة ويتكون من هذه العناصر — اي الطبيعة وحقوق الانسان والحرية والمساواة والعقد الاجتماعي و بعض المستبدين والسلطة الشعبية — فصول انجيل لا يجادل فيه المؤمنون ، ولها رسل وثيقو الايمان بسلطتهم وقد حاولوا كالمعتقدين في كل جيل ان يسخروا لها العالم بالقوة غير مبالين برأي

من لم يكن على دينهم .

ان الحقد على الخوارج هو — كما بينا في بحثنا عن ثورة الاصلاح الديني — صفة من صفات ارباب المعتقدات الكبيرة و بهذا يتضح لنا السر في عدم تسامح الديانة اليعقوبية ، اثبتت لنا قصة الاصلاح الديني ان الصراع بين المعتقدات القريبة يكون عنيفا ولذلك لايعجب من قتال اليعاقبة من يخالفهم في العقيدة من الجمهوريين الآخرين قتالاً شديداً .

إن الدعوة التي قام بها الرسل الجدد صارمة إذ ارساوا لوعظ سكان الولايات انصاراً غيورين ترافقهم المقصلات . لم يتساهل هؤلاء القضاة في الخطأ وان صغر وكانوا يفعلون حسب رأي روبسبير القائل « ان اقامة الجمهورية لايتم الا بإبادة مخالفيها » ولم يبالوا بما إذا كانت البلاد تأبى التجدد فارادوا تجديدها رغم انفها قال كاربيه:

« اجدر بفرنسا ان تصبح مقبرة من ان لا تتجدد من منهجنا »

كانت السياسة اليعقوبية الصادرة عن الايمان الجديد بسيطة للغاية فهي ضرب من الاشتراكية المسوية يديرها سلطان مطلق غير متسامح مع أية معارضة ، ولم يوجد عند النظريين الذين ساسوا فرنسا فكر عملي ملائم لمقتضيات الاقتصاد والطبيعة الانسان فكانت المقصلة والخطب — ولو صيانية — كافية عندهم . قال تاين :

« ان خطبهم حافلة بالمجردات و باحكام متتابعة في الطبيعة والعقل والامة والجبابرة والحرية وغير ذلك من الامور المشابهة لكرات منفوخة متصادمة في القضاء ولو لم يؤد جميعها الى نتائج عملية مخيفة لاعتقدنا بانها لهو منطقي وتمرينات مدرسية واقوال غريبة وتراكيب خيالية ».

نشأ عن نظريات اليعاقبة استبداد مطلق اذا كان هؤلاء يرون ان على الوطنيين الذين تساووا مقاماً ومالاً ان يطيعوا الدولة الحاكمة طاعة عمياء وما انتحلوه لانفسهم من السلطة اعظم من سلطة الملوك السابقين فقد سعروا السلع وادعوا بانه يحق لهم ان يتصرفوا بحياة الوطنيين واملاكهم ، ثم بلغت ثقتهم بفضيلة المعتقد الثوري مبلغاً جعلهم يعلنون الحرب على الآلهة بعد ان اعلنوها على الملوك فوضعوا تقويماً حذفوا منه اسماء القديسين وأوجدوا آلهة جديدة « آلهة العقل » اخذوا يعبدونها في كنيسة (نوتردام) بطقوس معادلة لطقوس المذهب الكاثوليكي وقد استمرت هذه الديانة حتى أقام روبسبير مكانها ديانة شخصية جاعلاً نفسه حبرها الاعظم .

و بعد ان ساد اليعاقبة وانصارهم على فرنسا خربوها مع ان الاكثرية لم تكن بجانبهم . إن تعيين عددهم بدقة ليس هيناً ولكنه كان قليلا على كل حال وقد قدره تاين بخمسة آلاف في باريس التي كان فيها سبعمئة الف نسمة و بثلاثمئة في بيزانصون التي كان فيها

ثلاثون الف نسمة و بثلاثمئة الف في جميع فرنسا .

ظلوا كما قاله عنهم المؤلف المذكور « فريقاً يسيراً من العائثين ينوء بحملهم عاتق فرنسا » ولسيادتهم عليها رغم عددهم القليل اسباب كثيرة اولها منح ايمانهم اياهم قوة عظيمة ، ثانيها قبضهم على زمام الحكومة بعد ان تعوّد الفرنساويون منذ عصور على اطاعة اولياء الامور ، ثالثها اعتقاد الناس بان اسقاطهم يؤدي الى رجوع العهد السابق الذي يخافه مشترو الاملاك الوطنية ولو لم يعظم استبدادهم لما اقدمت مديريات كثيرة على العصيان .

والسبب الاول للقوة اليعقوبية شديد الاهمية فالغلبة في الصراع بين المعتقدات القوية والمعتقدات الضعيفة لا تكون في جانب الثانية لتكوين المعتقد القوي عزائم متينة تتغلب على العزائم الواهية ، واما علة اندثار اليعاقبة في نهاية الامر فهي ان شدة اضطهاداتهم قد أدّت الى جمع الوف من العزائم الضعيفة في حزمة واحدة لم تلبث ان ظفرت على عزيمتهم القوية . نعم ان الجيرونديين الذين طاردهم اليعاقبة كانوا ذوي عقائد راسخة ولكنه اعترضهم في الصراع الذي التزموا جانبه ما لم يعترض خصومهم من تربية واحترام لبعض التقاليد والحقوق . كتب اميل اوليفيه :

« ان اكثر مشاعر الجيرونديين دقيقة كرمة واكثر مشاعر اليعاقبة غليظة

شرسة طاغية فلو قايسنا بين فيرنيو ومارا لرأينا ان البون بينهما شاسع وانه لا يوجد ما يدني الواحد من الآخر »

لم يلبث الجيرونديون الذين تغلبوا باديء الامر بكفاءتهم وفصاحتهم على مجلس العهد ان استحوذ عليهم المونتانيار ييون الهائجون الذين لا قيمة لهم ولا رأي والذين كانوا لا يعرفون غير إثارة عواطف السوقة .

٣ ـ صفات مجلس العهد النفسية

يوجد عدا الصفات العامة لجميع المجالس صفات اخرى تتكون بتأثير الهيئة والظروف وتمنح كل اجتماع شكلاً خاصاً وما شوهد في المجلس التأسيسي والمجلس التشريعي من الصفات رؤي اشد منه في مجلس العهد .

ضم مجلس العهد سبعمئة وخمسين نائباً ثلثهم كانوا اعضاء في المجلس التأسيسي والمجلس التشريعي وقد نجح اليعاقبة بما أتوا به من ضروب الارهاب ان يسودوا في انتخاباته التي قاطعها ثلاثة ارباع المنتخبين ؛ واذا بحثنا عن مهن نواب مجلس العهد نرى ان اكثريتهم العظمى من رجال القانون اي محامين و كتاب شرعيين ومحضرين وقضاة وبعض رجال الادب .

ان نفسية هذا المجلس ليست متجانسة و بما ان المجلس الذي

يتألف من رجال ذوي صفات مختلفة ينقسم بسرعة الى أحزاب عديدة فان مجلس العهد لم يلبث ان حوى ثلاثة احزاب هي الحزب الجيروندي والحزب الموتتانياري (الجبلي) والحزب البايني (السهلي) ، واما الملكيون الدستوريون فقد زال اثرهم ؛ وكان ينتسب الى كل من الحزب الجيروندي والحزب الموتتانياري مئة عضو ووجد في الحزب الموتتانياري اشد الاعضاء تطرفاً كفوطون وهيرول دوسيشيل ودانطون وكاميل ديمولان ومارا وكولود بو وبيوفارين وباراس وسان جوست وفوشيه وطاليان وكاربيه وربسبيير . وفي الحزب الجيروندي بريصو وبيسيون وقوندورسيه وفيرنيو وقد تألف من الاعضاء الباقين اي من اكثرية المجلس الساحقة ما يسمونه بالحزب البايني (السهلي) كان هذا الحزب متردداً صامتاً مذبذباً خائفاً يتبع كل ناعق ويتقلب مع الزمن وينضم الى اقوى الحزبين المذكورين فبعد ان اطاع الجيروندين اتبع الموتتانيارين عند ما تغلبوا على خصومهم وهذه نتيجة الناموس القاضي على العزائم الضعيفة بالخضوع الى العزائم القوية .

تجلى تأثير المتصرفين بالرجال في مجلس العهد تجلياً ساطعاً فقد سيرته اقلية عنيفة محدودة الذكاء جعلتها عقائدها الراسخة ذات قوة عظيمة .

ان اقلية شرسة متجاسرة تقود اكثرية خائفة سرتابة وهذا يوضح لنا سر ما يلازم المجالس الثورية من التطرف .

انتقل رجال العهد من طور الاعتدال الى طور التسر بالتدريج ثم اخذوا يقتتلون فقتل وهرب من مئة وثمانين جيروندياً كانوا يزيدون في البداية مجلس العهد، مئة واربعون وفي آخر الامر ساد على من استحوذ عليه الخوف فرضي بالذل والاستكانة من النواب روبسبيير الذي هو أشد رجال الهول تعصبا .

كان اصحاب الذكاء والتجربة في المجلس المذكور من الحزب البليني اي من الخمسمئة عضو المترددين المتذبذبين وقد تألفت اللجن الفنية التي تعزى اليها اعمال دور العهد النافعة من ذلك الحزب ، ولم يبال اعضاء الحزب البليني بالسياسة وقد اوجب انهماكهم بامور اللجن عدم ملازمتهم لمجلس العهد ولذلك كانت جلسات هذا المجلس لا تحتوي على اكثر من ثلث النواب ، ومن دواعي الاسف عدم انصاف هؤلاء الاذكياء الصالحين بخلق الثبات والحزم — شأن من هو مثلهم في الغالب — وقد دفعهم الخوف الى استصواب ما كان يمليه عليهم الرؤساء المريعون في الاوامر السيئة .

صوت الحزب البليني الى جميع ما أمر به فاستحسن ايجاد محكمة ثورية ونظام الهول وقد محق المونتانياريون الجيروندين وأباد

روبسبير الهبريين والدانطونيين بموته وساعد جبن اعضائه الحلماء على تسبيب مظالم العهد الهائلة .

كان الخوف الشديد صفة دور العهد البارزة فهو الذي دفع كل فريق لضرب اعناق الفريق الآخر كيلا يسبقه فيضرب عنقه ويسهل ادراك سر هذا الخوف : فقد كان اولئك الاعضاء التعساء يتشاورون بين جلبة الحاضرين وصراخهم ، وكثيراً ما استولت على المجلس وحوش مسلحة بالحراب فجعلت اكثر اعضائه لا يجرأون على حضور الجلسات وان حضروها صدفة فليصمتوا ويصوتوا لما يأمرهم به المونتانياريون الذين كانوا اقل منهم ثلاث مرات .

إن الخوف الذي استولى على المونتانياريين عظيم ، فلم يدعهم التعصب وحده الى إبادة خصومهم بل ان اعتقادهم بخطر محدق بهم دفعهم الى اقتراف ذلك ايضاً وليس قضاة المحكمة الثورية اقل فرقاً منهم إذ حكموا على دانطون وأرملة كاميل ديمولان وآخرين رغم انفهم وما استولى طيف الخوف على المجلس في اي وقت كما استولى عليه عند ما اصبح روبسبير سيد البلاد الوحيد . وقد صدق من قال بان نظرة منه كانت تشنج زملاءه فزعاً فيقرأ على وجوههم « شحوب الخوف او تسليم اليأس »

كان روبسبير يخاف الكل والكل يخاف روبسبير فقد قطع

الرقاب خوفاً من الائتمار به والخوف هو الذي دفع الناس الى تسليمه رقابهم .

ويدلنا ما تركه رجال العهد لنا من الخواطر على شدة فظائع ذلك الدور القاتم . قال تاين :

«عند ما سُئل بارير بعد عشرين سنة عن غاية لجنة السلامة العامة وسيرتها اجاب : [كان همنا الوحيد ان نحفظ حياتنا التي اعتقد كل منا بانها في خطر فكان كل منا يقصل رأس جاره خوفاً من ان يسبقه فيقصل رأسه] »

وعليه فان تاريخ مجلس العهد هو من اشد الامثلة البارزة التي يستشهد بها على شأن الزعماء والخوف على المجالس .

الفصل الرابع

حكومة العهد

١ — شأن الأندية والهيئة الثورية ايام العهد

قاد زعماء الاندية والهيئة الثورية مجلس العهد في جميع ايامه وقد بينا آنفاً تأثير هؤلاء على المجالس السابقة ولكنه عظم أمر هذا التاثير في مجلس العهد وما تاريخ هذا المجلس في الواقع سوى تاريخ الاندية والهيئة الثورية التي تغلبت عليه . ولم تستعبد الاندية مجلس العهد وحده بل استعبدت فرنسا جميعها فكان ما في الولايات من الاندية الكثيرة التي يسوسها نادي العاصمة يراقب القضاة ويشي بالمشتبه فيهم وينفذ جميع الاوامر الثورية .

وعندما تبتُ الاندية او الهيئة الثورية في بعض الامور كانت تبعث بها الى المجلس ليصوت لها فاذا خالف المجلس في ذلك كانت تسوق اليه وفودها اي عصابات مسلحة من الرعاع حاملة اوامر لا مناص من العمل بمقتضاها وقد بلغ شعور الهيئة الثورية بقوتها مبلغاً دفعها مرات عديدة الى مطالبة مجلس العهد بطرد من كانت تمقته من النواب .

كان رجال مجلس العهد متعلمين واما اكثر اعضاء الهيئة الثورية والاندية فمن صغار التجار والفعلة والعمال وغيرهم ممن ائتمروا بأمر الزعماء كدانطون وكاميل ديمولان وروبسبير الخ ، وقد كان تأثير الهيئة الثورية في باريس أشد من تأثير الاندية اذ جمعت لنفسها جيشاً ثورياً واوجدت تحت إمرتها ثماني واربعين لجنة من الحرس الوطني لا تطلب غير القتل والتخريب والنهب . والنظام الذي سحقت به الهيئة الثورية باريس هائل مثال ذلك تفويضها السكاف شالاندون ان يراقب جزءاً من العاصمة ويبعث الى المحكمة الثورية اي الى المقصلة جميع من يشتبه فيهم .

نعم ناهض مجلس العهد الهيئة الثورية قليلا في بداية الأمر ولكنه لم يقاومها زمناً طويلا ، وقد بلغ الصراع بين الطرفين غايته عند ما بعث (هيبر) — الذي هو روح الهيئة الثورية — الى مجلس العهد الذي اراد ان يقبض عليه عصابات قوية تطلب بطرد من قال بسجنه من الجيرونديين أبى المجلس المذكور ذلك فحاصرته الهيئة الثورية في ٢ حزيران سنة ١٧٩٣ بجيشها الثوري الذي قاده (هانريو) فارتعدت فرائص هذا المجلس فرقاً فسلم سبعة عشر عضواً من اعضائه وعلى اثر ذلك ارسلت الهيئة الثورية وفداً ليشكره بسخرية .

خضع مجلس العهد بعد سقوط الجيرونديين الى اوامر الهيئة

الثورية صاحبة الحول والقوة خضوعا تاما وقد ارغمته هذه الهيئة على الرضى بجمع جيش ثوري تصحبه محكمة ومقصلة يطوف في فرنسا و يقتل جميع المشتبه بهم .

ولم يتخلص مجلس العهد من رقبة الهيئة الثورية والمنتدى اليعقوبي الا في اواخر ايامه اي بعد سقوط روبسبير فاغلق المنتدى المذكور وقصل رقاب اعضائه النافذين .

استمر الزعماء على تحريض السوقة ضد المجلس المذكور رغم هذه العقوبات الصارمة وقد تكرر حصاره في الشهر التاسع والسابع من السنة الجمهورية فاكرهته العصاة على التصويت لاعادة الهيئة الثورية ودعوة مجلس جديد ، ولكنه الغى هذين القرارين بعد انسحابهم ولما استحيى من جبنه استدعى كتائب لتنزع السلاح من الضواحي فقبضت هذه الكتائب على عشرة آلاف شخص ثم اعمل السيف في رقاب ستة وعشرين زعيما من زعماء الفتنة وقصلت اعناق ستة نواب تواطؤوا عليها .

وفي الواقع ان مجلس العهد لم يكن ميالاً الى المقاومة الا قليلا وكان حين لا تسيره الاندية والهيئة الثورية يخضع الى لجنة السلامة العامة و يصوت لجميع اقتراحاتها بدون جدال قال و يليام :

«ان مجلس العهد الذي لم ينطق بكلمة اقل من استدعاء جميع امراء اوربا

وملوكها ليتقاضوا أمامه مقيدين كان اسيراً في محكمته الخاصة لعصابة من المرتزقة»

٢ = حكومة فرنسا ايام العهد

كانت باكورة اعمال مجلس العهد عند اجتماعه في ايلول عام ٧٩٢ الغاء الملكية ثم اعلن الجمهورية رغم تردد عدد كبير من اعضائه العالمين بان الولايات ملكية . ولما اعتقد بان هذا الاعلان يحول العالم المتمدن وضع تقويماً جديداً قانعاً بان السنة الأولى من هذا التاريخ هي فجر لعالم سيسود عليه العقل وكانت محاكمة لويس السادس عشر التي دبرتها الهيئة الثورية ولم ينزع اليها مجلس العهد فاتحة تلك السنة .

ساد الجيرونديون الذين كانوا معتدلين بالنسبة لغيرهم على هذا المجلس في بداية الامر فانتخب رئيسه وكتبته منهم ولم يكن لروبسبيير الذي صار بعدئذ سيد المجلس المطلق سوى نفوذ ضئيل في ذلك الحين إذ لم ينل سوى ستة اصوات في انتخاب الرآسة إزاء بيسون الذي نال مئتين وخمسة وثلاثين صوتاً .

إذاً كانت سلطة المونتانياريين صغيرة في البداية ولكنها عظمت بعد ذلك فلم يبق للمعتدلين مكان في مجلس العهد . وقد جعل المونتارييون المجلس الذي هم اقلية فيه ان يتهم لويس السادس عشر فتم لهم بذلك انتصار على الجيرونديين وقضاء على جميع الملوك وفراق بين النظام

الجديد والنظام القديم .

لقد دبروا الامور ببراعة لاحداث هذه التهمة إذ أمطروا على المجلس عرائض من الولايات طالبة محاكمة الملك وارسلوا اليه بعثة من الهيئة الثورية الباريسية لمثل ذلك الغرض . وقد اذعن مجلس العهد الى ذلك فاتهم الملك ولم يجرأ على المقاومة سائراً على سنة المجالس الثورية التي تخضع امام الانذار والوعيد وتفعل خلاف ما تبغي :

ولم يرد الجيرونديون اعدام الملك وهم منفردون ولكن الخوف دفعهم الى الحكم عليه بالقتل وهم مجتمعون وقد صوت الدوك (دورليان) خال لويس السادس عشر لذلك طامعاً في نجاة نفسه ولو كان عند لويس السادس عشر قدرة يكشف بها المستقبل كالقدرة التي نعزوها الى الآلهة لرأى وهو صاعد الى المقصلة ان نصيب اكثر الجيرونديين الذين لم يستطيعوا لضعفهم ان يدافعوا عنه سيكون مثل نصيبه .

واذا نظرنا الى قتل الملك من حيث فائدته لرأينا انه عمل اخرق أتت به الثورة الفرنساوية لانه اوجب حرباً اهلية واقام اوروبا ضدنا ثم سبب في مجلس العهد منازعات ادت الى انتصار المونتانياريين وطرد الجيرونديين .

ولم تلبث الوسائل التى استعان بها الموتنانيار ييون ان بلغت من الظلم مبلغاً اوجب عصيان ستين مديرية في الغرب والجنوب وقد كاد هذا العصيان الذي كان يقوده كثير من النواب المطرودين ان ينجح لو لم ينشأ عن اشتراك الملكيين فيه خوف الناس من رجوع العهد السابق ، دامت الحرب الاهلية التي هاج سكانها على الصورة السابقة في اكثر ايام الثورة الفرنساوية وكانت في غاية التوحش فكان الشيوخ والنساء والاطفال يقتلون والقرى والحصائد تحرق وقد قدر المؤلفون عدد القتلى في (فانده) وحدها من خمسمائة الف الى مليون .

ثم عقبت الحرب الاهلية حرب مع الاجنبي وقد ظن اليعاقبة انهم يدرأون هذه الاضرار بوضعهم دستوراً جديداً ، ولا غرو فان فمن تقاليد المجالس الثورية ان تعتقد بما في المراسيم من الفضيلة الساحرة ، ولم يؤثر فشل التجارب الماضية الى عقيدة المتمنطقين المذكورة في فرنسا ابداً. قال المسيو رامبو احد ~~كبار~~ المعجبين بالثورة الفرنساوية :

« ان الايمان القويم هو الذي دعم رجال العهد في هذا العمل الشاق اذ اعتقد أنهم بصوغهم مبادئ الثورة الفرنساوية في قالب قانون يدهشون خصومهم فيهدونهم وان العدل يخمد تأثر العصاة ».

سن مجلس العهد دستورين احدهما عام ١٧٩٣ اي في السنة الاولى من الجمهورية والثاني عام ١٧٩٥ اي في السنة الثالثة منها فأما الدستور الاول فلم يطبق ابداً واما الثاني فقد اوجد حكومة الدير كتور .

وكان المجلس المذكور يحتوي عدداً غير يسير من الفقهاء وارباب الاشغال وقد ادرك هؤلاء انه يستحيل على مجلس كثير العدد ان يدير حكومة فقسموه الى لجن مستقلة كلجنة الاشغال ولجنة التشريع واللجنة المالية واللجنة الزراعية واللجنة الفنية الخ ثم صارت هذه اللجن تهيء لوائح قانونية ليصوت لها المجلس في جلساته العامة . والفضل يرجع الى هذه اللجن في جعل اعمال المجلس غير هادمة بالمرة فقد أتت بامور كثيرة النفع كانشاء المدارس العظيمة وتأسيس المقياس المتري ثم كان اكثر اعضاء المجلس يفرون اليها ليتنحوا عن المخاصمات السياسية التي ربما يعرضون حياتهم فيها للهلاك .

ووجد على رأس لجن الاشغال المذكورة لجنة السلامة العامة التي اسست في نيسان عام ١٧٩٣ فكان عدد اعضائها تسعة وقد أدارها في بادىء الامر دانطون ثم انتقلت إدارتها في شهر تموز من السنة المذكورة الى روبسبيير وقد تدرجت في ابتلاع جميع السلطات كتسيير الوزراء والقواد فأدار فيها كارنو امور الحربية وكامبون

امورَ المالية وسان جوست وكالوديربوا دفة السياسة.

ان القوانين التي صوت لها المجلس بتأثير الوفود المستولية عليه ظاهرة الخطل خلافاً للقوانين السديدة التي حررتها اللجنة الفنية، ونذكر من بين القوانين القليلة النفع للجمهور قانون الكمية الكبرى الذي صوت له مجلس العهد في ايلول سنة ١٧٩٣ فلم ينشأ عن هذا القانون الذي امر بتسعير الاقوات سوى قحط مستمر وهدم لقبور الملوك في دير (سان ديني) ومحاكمة للملكة وحرق لمقاطعة (فانده) وتأسيس للمحكمة الثورية الخ.

بدأ في ايلول سنة ١٧٩٣ دور الهول الذي نالت بحكومة العهد اكبر قوة واستمر مدة عشرة أشهر وانتهى بقتل روبسبير، نعم اقترح بعض اليعاقبة كدانطون وكاميل ديمولان وهيرول وشيشيل ان يعامل المتهمون بالرأفة الان هذا الاقتراح اوجب قطّ رقاب المقترحين بالمقصلة وانما كلال الرأي العام من ذلك الدور المخزي هو الذي قضى عليه، وقد أدت المنازعات المتوالية بين احزاب المجلس وسيره سيراً متطرفاً الى اسقاط اصحاب الشأن من اعضائه بالتدريج

وبينما كان يفكك المجلس المذكور اوصال فرنسا ويخربها كانت جيوشنا تحرز نصراً مبيناً، فقد استولت على الضفة اليسرى من نهر (الرين) وعلى البلجيك وعلى هولندة ثم قررت معاهدة (بال) هذه

الفتوحات . قلت سابقاً – وسأعود الى ذلك قريباً – انه يجب ان يفرق بين اعمال جيوش الجمهورية وبين اعمال مجلس العهد تفريقاً تاما وليس هذا التفريق – المنسى الآن – على المعاصرين بالامر العسير .

كان مجلس العهد هدفاً للاحتقار عندما غاب في ٢٦ تشرين الاول سنة ١٧٩٥ عن الوجود اي بعد قبضه ثلاث سنين على زمام الامور ولما صار لعبة تعبث بها الاهواء لم يفلح في تهدئة الفتنة في فرنسا وقد قذف بها في بحار الفوضى . لخص المفوض السويدي البارون (درنيكمان) رأي الناس في ذلك المجلس بعبارة جاءت في احدى رسائله واليك اياها :

« انني لا أرجو ان لا تتحكم في امة من الامم جماعة من الفجرة السخفاء مثل التي تحكمت في فرانسا منذ بداية حريتها الحديثة »

٣ – خاتمة العهد – منشأ حكومة الديركتوار

وضع مجلس العهد الذي لم يغير عقيدته في تأثير القوانين دستوراً جديداً في اواخر ايامه (دستور السنة الثالثة) ليحل مكان دستور عام ١٧٩٣ الذي لم يطبق ابداً . جاء في هذا الدستور انه سيقوم بالسلطة التشريعية مجلسان : مجلس شيوخ مؤلف من مئتين وخمسين عضواً ومجلس شبان مؤلف من خمسمئة عضو وانه سيعهد بالسلطة

التنفيذية الى هيئة تسمى بالدير كتوار مركبة من خمسة اعضاء يرشحهم مجلس الخمسمئة و يعينهم مجلس الشيوخ على ان تجدد هذه الهيئة بانتخاب عضو واحد منها كل سنة، وقد قضى مجلس العهد ان يكون ثلثا اعضاء المجلس الجديد من اعضائه الا ان هذا القرار المدبر لم ينفذ إذ لم يوال اليعاقبة سوى عشر مديريات وقد حكم مجلس العهد على جميع المهاجرين الى البلاد الاجنبية بالنفي المؤبد وذلك ليقصي الملكيين عن الانتخابات .

لم يؤثر اعلان هذا الدستور في الجمهور خلافاً للمنتظر إذ لم يقال شيئاً من الفتن الشعبية المتعاقبة ومن أهمها الفتنة التي توعدت في ٥ تشرين الأول سنة ١٧٩٥ مجلس العهد، فقد قذف الزعماء بجيش عليه فعزم هذا المجلس على الدفاع إزاء الفتن المذكورة فاستحضر كتائب وسلم قيادتها الى باراس ، وعهد الى بونابارت الذي أخذ يظهر من عالم الخفاء أمر قمعها وقد تم ذلك على يده بسرعة فلما أطلق الرصاص على العصاة بالقرب من كنيسة (سان روق) فروا تاركين بضع مئات من القتلى ، وهذا العمل الحازم الذي لم يكن لمجلس العهد عهد بمثله صدر عن سرعة حركات الجيش . وكان قمع الفتنة المذكورة آخر اعمال مجلس العهد المهمة ثم صرح هذا المجلس في ٢٦ تشرين الاول سنة ١٧٩٥ ان نيابته قد انتهت مسلماً الامور الى حكومة

الدير كتوار .

اظهرنا كثيراً من الدروس النفسية التي أتت بها حكومة العهد وأهمها عجز الضغط والظلم عن التغلب على النفوس طويلاً فلم يكن عند اية حكومة من وسائط التحكم مثل ما عند حكومة العهد ولكن رغم المقصلة الدائمة والمفوضين المرسلين الى الولايات مع الجلاد والقوانين الصارمة كان مجلس العهد يضطر دائماً الى مكافحة الفتن والمعاصي والمؤامرات ، وكانت المدن والمديريات وضواحي باريس تتمرد بلا انقطاع رغم تساقط الرؤوس بالالوف .

حارب مجلس العهد — الذي ظن انه الآمر الناهي — قوى خفية رسخت في النفوس رسوخاً لا تزحزحه جحافل الضغط والاكراه وسبب ذلك انه لم يدرك شيئاً من أمر تلك القوى التي تم لها النصر في نهاية الامر .

الفصل الخامس

مظالم الثورة

١ ـ الاسباب النفسية لمظالم الثورة

بينا في غضون الفصول السابقة انه سيتكون من المبادي، الثورية ايمان جديد وهذه المبادئ التي قوامها العاطفة والانسانية وان كانت تمجد الحرية والاخاء فان بينها وبين الافعال تناقضاً تاماً وذلك كما يلاحظ في كثير من الاديان التي لم تسمح للناس ان يتمتعوا بالحرية فعلا والتي أحالت مذابح فظيعة مكان الاخاء. وينشأ التباين الواقع بين المبادىء والعمل عن عدم التسامح الملازم لجميع المعتقدات. نعم قد يأمر الدين بالرأفة والحلم ولكن لما كان انصاره يريدون الزام الناس به قسراً فان أمره يؤول الى اقتراف المظالم. لذلك كان ناموس انتشار المعتقدات علة المظالم في الثورة الفرنساوية وما الهول الاكبر الذي وقع ايام هذه الثورة الامن نوع محكمة التفتيش والحروب الدينية والسان بارتلمي والغاء مرسوم (نانت) واضطهاد البروتستان في جنوب فرنسا واضطهاد انصار (جانسينيوس) فالكل صادر عن منبع نفسي واحد

وليس لويس الرابع عشر ملكا ظالماً غير ان ايمانه دفعه الى اجلاء مئات

الالوف من البروتستان عن فرنسا بعد ان قتل وسجن منهم عدداً كبيراً ولا تنشأ وسائل الاقناع التي يتذرع بها جميع المعتقدين عن خوف يلقيه الخوارج في قلوبهم إذكان البروتستان وانصار (جانسينيوس) قليلي الخطر في عهد لويس الرابع عشر وانما يصدر عدم التسامح عن غضب رجل ظان انه متمسك بالحقائق الناصعة على اناس يعتقد بانكارهم اياها عن سوء نية وكيف يطيق ذلك الرجل الضلالة وهو قادر على إزالتها؟

هكذا تعلل المعتقدون في كل جيل وهكذا تعلل لويس الرابع عشر ورجال الهول الاكبر. فقد اعتقدهؤلاء الرجال انهم على حق وان نصر هذا الحق يجد دالبشر وهل كانو يستطيعون ان يتساهلوا مع خصومهم اكثر من تساهل الكنيسة والملوك مع الخوارج ؟

ان الهول طريقة عدها جميع المعتقدين ضرورية منذ الاجيال الاولى وعليها قامت جميع الشرائع الدينية فقد رمت هذه الشرائع الى تهويل الناس بعذاب أبدي في الجحيم ليحافظوا على أوامرها ويجتنبوا نواهيها.

وعليه فان رسل المعتقد اليعقوبي ساروا على طريقة آبائهم واستعانوا بمثل وسائلهم ولو وقع نظير تلك الحوادث اليوم لصدر عنها من الامور مايشابهها ولو يتم النصر غداً لمعتقد جديد كالاشتراكية لاتخذ طرقاً في الدعاية مشابهة حتما لطرق محكمة التفتيش ومحكمة الهول الاكبر.

يكون اطلاعنا على الهول اليعقوبي ناقصاً اذا اعتبرناه ناتجاً عن

فتنة دينية فحسب ويتم هذا الاطلاع إذا ادركنا انه انضم الى هذا المعتقد المنتصر منافع ذاتية كثيرة مستقلة عنه، نعم أدار الهول الاكبر قليل من الرسل المتعصبين ولكنه وجد بجانب هؤلاء المتحمسين الذين رأوا بعقلهم الضيق ان يجددوا الكون كثير من الرجال لم ينظروا الى المعتقد المذكور الا كوسيلة للاثراء وهذا الخلق هو الذي جعلهم يلتحقون بعدئذ بالقائد الاول الظافر وقتما تركهم يتمتعون بما استلبوه.

كتب البير صوريل :

«اقبل رجال الثورة الفرنساوية على الهول لانهم رأوا انه يقيهم قابضين على زمام السلطة وانهم لا يستطيعون حفظ مناصبهم بغيره وهم على رغم ادعائهم بأنهم ما أتوا به الا لسلامة الدولة لم ينظروا في الحقيقة الا الى سلامة انفسهم. وهو قد كان وسيلة قبل ان يصير نظاما حكوميا وما ابتدع النظام الا ليبرر الوسيلة».

وبناء على ما تقدم فانه يمكننا ان نرتضي ما جاء في مؤلف إميل اوليفيه عن الثورة الفرنساوية من الحكم على الهول الاكبر واليك اياه :

«ان الهول الاكبر مفرق بين الناس مؤدٍ الى سلب الاموال وهو اكبر مشروع لصوصي حدث وما أتت بمثله اية عصابة من الاشقياء».

٢ — محاكم الثورة

كانت محاكم الثورة ايام الهول الاكبر واسطة تأثير وقد انشأت في فرنسا محاكم ثورية عدا محكمة باريس التي سعى في تأسيسها دانطون

ثم ساقته بعد عام الى المقصلة قال تاين :

«كانت ١٨٧ محكمة ومنها ٤٠ محكمة تحكم بالقتل في جميع اجزاء البلاد وتنفذ احكامها في مكان الحكم حالا . وقد بلغ عدد من حكمت عليهم محكمة باريس بالاعدام ٢٦٢٥ نسمة وما كان قضاة الولايات اقل نشاطاً في الحكم من قضاة باريس اذ قصلوا في مدينة (اورانج) الصغيرة رأس ٣٣١ نسمة وفي مدينة (آراس) رأس ٢٢٣ رجلا و ٩٣ امرأة وفي مدينة [ليون] رأس ١٠٦٨٤ نسمة ويقدر مجموع القتلى بـ ١٧٠٠٠٠ شخص منهم ١٢٠٠ امرأة وكثير منهن كن فوق الثمانين » .

ولا يغيبن عن بالنا انه عدا من ذبحته محكمة باريس الثورية من الضحايا البالغ عددهم ٢٠٦٢٥ نسمة قد قتل جميع المتهمين قبل تأليفها — اي في ايام ايلول — بدون محاكمة .

ان محكمة باريس الثورية — التي كانت آلة بيد لجنة السلامة العامة — اقتصرت كما اشار (فوكية تنفيل) في قضيته على تنفيذ ما تلقته من الاوامر وهي وان سارت بادئ الامر حسب القانون ظاهراً فان ذلك لم يلبث ان اهمل فالغي الاستجواب والدفاع والشهود وصارت البينة الادبية اي الشبهة كافية للحكم واصبح الرئيس يكتفي بطرح سؤآل مبهم على المتهم ثم اقترح (فوكية تنفيل) ان تنصب المقصلة في دائرة المحكمة كي تنفذ الاحكام حالاً

كانت المحكمة المذكورة ترسل جميع المتهمين — الذين قبض

عليهم لما بين الاحزاب من حقد — الى المقصلة على السواء وسرعان ما صارت هذه المحكمة آلة لظلم روبسبير السفاك . وعندما حكمت على دانطون احد مؤسسيها بالقتل سأل الله والناس العفو قبل ان يصعد الى المقصلة لمعاونته على ايجادها . انها لم تصفح عن احد سواء أكان الداهية (لافوازية) ام الحكيم (لوسيل ديمولان) ام النبيل الفاضل (مالزيرب) :قال بنيامين تونسطان مشيراً اليها:

« قتل كثير من اصحاب القرائح السامية بيد ادنى الناس واشدهم غباوة »

ويجب في تبرير ما اقترفته المحكمة الثورية ان نعود الى ماابيناه عن ما عند اليعاقبة الذين اسسوها وأداروها من النفسية الدينية فهي في ذاتها وغايتها كمحكمة التفتيش وقد ظن روبسبير وسان جوست وقوطون انهم يحسنون للجنس البشري بقضائهم على الخوارج وعلى اعداء معتقدهم الذي سيجدد العالم فيما يحسبون .

لم يكن الذين قتلوا ايام الهول الاكبر من الاريسطوقراطيين والاكليروس فحسب بل قصلت رؤوس اربعة آلاف من الفلاحين وثلاثة آلاف من العمال واذا اعتبرنا ما يورثه اعدام رجل واحد من الانفعال في النفوس فاننا نعتقد ان قتل كثير من الناس يؤثر فيها تأثيراً عظيما . غير ان العادة اكلت الحواس فلم ينتبه الناس كثيراً الى ما وقع وكانت الامهات يقدن اولادهن ليشاهدوا قصل الرؤوس كما

يقدمهم اليوم الى دور الالعاب ، وقد اوجبت مناظر القتل الكثيرة عدم اكتراث الناس بالموت فصعد الجميع الى المقصلة رابطي الجأش وعلا الجيرو نديون درجاتها وهم يغنون نشيد (المارسلياز).

نشأ هذا التسليم عن ناموس العادة المسكن لانفعالات النفس ودليلنا على ان منظر المقصلة لم يرهب احداً ما وقع من الفتن الملكية العديدة فكانت تحدث كان الهول لم يهل انساناً ولا يصير الهول طريقة نفسية شافية الا اذا قصر دوامه فالهول الحقيقي يكون في الوعيد والانذار اكثر من التنفيذ.

٣ — الهول في الولايات

لم يكن ما قامت به محاكم الثورة من القتل في الولايات الا بعضاً من المذابح التي وقعت ايام الهول الاكبر إذ عدا ذلك كانت الجيوش الثورية المؤلفة من قطاع الطرق واللصوص تجول في فرنسا ناهبة قاتلة وقد اجاد (تاين) في بيان سيرها بالعبارة الآتية :

«عندما كسر الناس مجهولون في بيدوان التي يقدر سكانها بالفي نسمه شجرة الحرية هدم فيها وحرق ٤٣٣ بيتاً وقطعت رؤوس ١٦ شخصاً بالمقصله وقتل ٤٦ نسمة رمياً بالرصاص وطرد من بقي فيها فاضطروا كي يعيشوا الى قطع السبل في الجبال والى تحت الكهوف لتكون لهم اكنة»

وما كان نصيب من ارسلوا الى محاكم الثورة خيراً من ذلك

فلما الغيت ظواهر المحاكمة اغرق (كاريه) وقتل رميا بالرصاص في (نانت) وحدها ما يقرب من خمسة آلاف نسمة من الذكور والاناث والولدان راكباً متن هواه .

وقد وردت تفاصيل هذه الملاحم في جريدة المونيتور بعد الردة التي وقعت في الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية وها انا اذكر شيئاً منها : جاء في العدد الصادر في ٢٢ كانون الاول سنة ١٧٩٤ من الجريدة المذكورة قال توما :

« شاهدت بعد الاستيلاء على نوار موتيار رجالاً ونساء وشيوخاً يحرقون احياء ونساء وبنات يتراوح عمرهن بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة ينتهكن ثم يقتلن واولاداً يبعجون بالحراب ويطرحون على الالواح بجانب امهاتهم »

وجاء في العدد المذكور شهادة لجوليان حدث فيها كيف كان كاريه يرغم ضحاياه على حفر قبورهم ليدفنهم فيها احياء ، وجاء في عدد ١٥ تشرين الاول سنة ١٧٩٤ تقرير لمير لان دوتيونفيل اثبت فيه ان ربان سفينة الديستان تلقى امراً ليحملها احدى واربعين ضحية « منهم اعمى بلغ الثامنة والسبعين واثنتا عشر امرأة واثنتا عشرة بنتاً وخمسة عشر صبياً منهم عشرة تتراوح اعمارهم بين السادسة والعاشرة وخمسة دون سن الفطام » وورد في العدد الصادر منها في ٣٠ كانون الاول ان محاكمة كاريه اثبتت « انه امر بقتل النساء

والولدان اغراقاً ورمياً بالرصاص وانه أوصى القائد هوكس بابادة جميع سكان فانده واحراق مساكنهم.»

وكان كاريية يشعر كجميع السفاكين بلذة عظيمة عندما يشاهد ضحاياه يتوجعون، جاء في عدد جريدة المونيتور الصادر في ٢٢ كانون الاول سنة ١٧٩٤ ما نصه قال كاريه:

«انني لم اضحك في المديريات التي طاردت فيها القساوسة ضحكي حينما كنت أرى تغضن وجوه هؤلاء عند موتهم ولم اشعر بلذة مثل تلك اللذة»

اقيمت الدعوة على كاريه ارضاء للردة التي حدثت في الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية ولكن ما وقع في (نانت) من المذابح وقع مثله في مدن كثيرة فقد اوجب فوشية (قتل الفي نسمة في مدينة ليون و بلغ القتل في مدينة طولون مبلغا اصبح به عدد سكانها سبعة آلاف نسمة في بضعة شهور بعد ان كان تسعة وعشرين الفا.

ان لجنة السلامة العامة هي التي كانت تحرض كاريه وفيرون وفوشيه وغيرهم من المشئومين وهذا ما يخفف تبعة هؤلاء. قال كاريه في قضيته:

«اعترف بانه كان يقتل كل يوم من ١٥٠ الى ٢٠٠ مسجون رمياً بالرصاص ولكن اللجنة هي التي امرت بذلك. ولما كنت اخبر مجلس العهد بان الاشقياء يقتلون بالمئات كانت تدوي قاعته تصفيقاً فيأمر بان ينشر الخبر في الجريدة الرسمية

وماذا نعمل هؤلاء النواب الذين يتحاملون الآن علي ؟ كانوا يصفقون لي ولماذا تركوا لي منصبي ؟ لانني كنت وقتئذ منقذ الوطن واما الآن فانا رجل سفاك »

ومن دواعي الاسف ان كاريه جهل — كما نفهم من خطابه المذكور — ان الذين سيروا مجلس العهد هم سبعة اشخاص او ثمانية الا ان استصواب مجلس العهد الذي استحوذ عليه الرعب لجميع ما امره به اولئك السبعة او الثمانية يجعل الجواب على ما أدلى به كاريه من الحجة متعذراً . نعم انه استحق القصل ولكن جميع اعضاء مجلس العهد كانوا يستحقونه ايضا لاستحسانهم ما وقع من الملاحم، ويثبت لنا دفاع كاريه القائم على رسائل اللجنة الهائج اعضاؤها ان ما حدث ايام الهول من الاضطهاد ناشيء عن خطة مرتبة وليس كما ادعى البعض عن مساع شخصية .

ولم تقض حاجة التخريب ايام الهول بقتل النفوس فقط بل تناولت الاشياء ايضا ومتى يقبض المؤمن الحقيقي على زمام السلطة يقض على اعداء ايمانه وعلى التماثيل والمعابد والشعائر الدالة على المعتقد المنكوس ، ومن الامور المعلومة ان الامبراطور تيودوز الذي اعتنق النصرانية امر بهدم اكثر المعابد التي اقيمت على ضفتي النيل منذ ستة آلاف سنة ولذلك لا نعجب لتعدي زعماء الثورة الفرنساوية على المباني والآثار الفنية التي عدوها بقايا ماض ممقوت .

كسرت التماثيل والمخطوطات وزجاج النوافذ والتحف الفاخرة

وعند ما ارسلت حكومه العهد (فوشيه) الذي نال ايام نابليون لقب (دوك) وصار وزيراً في عهد لويس الثامن عشر — لينوب عنها في (نيافر) امر بهدم ابراج القصور ونواقيس الكنائس لأنها مما يأباه مبدأ المساواة وتناولت يد الهدم القبور ايضا فقد جاء في تقرير (باريز) لمجلس العهد ان القبور الملوكية الفخمة في (سان ديني) ومنها ضريح هنري الثاني العجيب الذي صنعه (جرمان بيلون) دكت وفرغت النواويس و بعثت جثة (تورين) الى المتحف كشيء نادر الوجود بعد ان اقتلع احد الحراس جميع الاسنان منها ليبيعها وقد نتف شارب هنري الرابع ولحيته .

إن رضاء ارباب العقول النيرة بتخريب ميراث فرنسا الفني لأمر يؤسف له ولكننا إذا تذكرنا ان اسوأ المظالم تنشأ عن المعتقدات القوية وان رجال الفتن كانوا يغيرون كل يوم على مجلس العهد فيرغمونه على الخضوع نرى له عذراً في ذلك . ولا تدلنا قصة هذا التخريب على ما للتعصب من القوة فقط بل تدلنا ايضاً على ما يؤول اليه امر الطليقين من الزواجر الاجتماعية وامر الامة التي يقبض هؤلاء على ناصيتها .

الفصل السادس

جيوش الثورة الفرنساوية

١ - المجالس الثورية والجيوش

لو اقتصر ما نعلمه عن المجالس الثورية — ولا سيما مجلس العهد على ما يقع فيها من الانشقاق وعلى ضعفها وعلى ما تأتي به من الاضطهاد لكانت ذكراها سيئة ، غير انه يوجد لذلك العهد الدامي نفوذ — على جميع الناس ومنهم اعداؤه — ناشيء عن انتصار الجيوش إذ وقتما تخلى مجلس العهد عن الحكم كانت فرنسا مفتتحة بلاد البلجيك والبلاد الواقعة على ضفه الرين اليسرى .

اذا نظرنا الى حكم العهد في مجموعه يصبح من العدل انه يعزى اليه ما نالته جيوش فرنسا من الانتصار واما اذا فرقنا بين اجزائه يظهر لنا ان هذه الاجزاء مستقل بعضها عن بعض استقلالا تاماً ، اذ نشاهد حينئذ انه لم يكن لمجلس العهد سوى نصيب ضئيل في الوقائع الحربية وان الجيوش المرابطة في الثغور والمجالس الثورية في باريس هما عاملان اثر احدهما في الآخر تأثيراً قليلاً ونظرا في الامور نظراً متباينا .

تبين لنا ان حكومة العهد كانت ضعيفة وانها كانت تبدل رأيها حسب ما تقتضيه تحريضات الشعب فاصبحت مثلاً للفوضى و بما انها صارت منقادة غير قائدة فكيف تستطيع ان تسيطر على الجيوش ؟

اوجب انهماك مجلس العهد في المنازعات ترك جميع امور الحرب الى لجنة كان يسيرها كارنو وحده وأهم ما قامت به هذه اللجنة هو امداد الجيوش بالميرة والعدد و ينشأ فضل كارنو عن قيادته ٧٥٢٠٠٠٠ جندي مرابطين في المراكز الحربية وعن ايعازه الى القواد بالهجوم وعن توطيد دعائم النظام في الجيوش .

ولم يفعل مجلس العهد في الدفاع عن البلاد غير امره بالنفير العام ولا تستطيع اية حكومة ان تفعل خلاف ذلك ازاء اعداء فرنسا الكثيرين المتوعدين اياها وبعد ان ارسل المجلس المذكور الى الجيوش وكلاء ليقصلوا رقاب بضعة قواد عدل عن ذلك . حقاً ان تدخل هذا المجلس في امور الجيوش يسير للغاية وقد خرجت وحدها ظافرة بفضل عددها وحماستها وخطط رسمها قواد شباب مستقلون عنه .

٢ — مقاتلة اوروبا للثورة الفرنساوية

نرى — قبل بيان العوامل النفسية التي ساعدت على انتصار جيوش الثورة — ان الالماع الى روح المقاتلة التي تأصلت في اوروبا واستفحلت ضد الثورة الفرنساوية لا يخلو من فائدة :

نظر ملوك الاجانب في اوائل الثورة المذكورة الى المصاعب التي كانت تلقاها الملكية الفرنساوية المزاحمة لهم بعين الرضا ، إذ لما ظن ملك بروسيا ان فرنسا ضعفت فكر في توسيع ملكه على حسابها فاقترح على امبراطور النمسا ان يعين لويس السادس عشر تلقاء منحه ولاية الفلاندر والالزاس تعويضاً له فوقع ذانك الملكان في شباط سنة ١٧٩٢ معاهدة ضد فرنسا ، إلا ان الفرنساويين سبقوا في الهجوم فاعلنوا الحرب على النمسا بدعوة الحزب الجيروندي .

ومع انه لم يقتل في المعركة سوى ثلاثمائة فرنساوي ومئتي بروسي فانها كانت ذات نتائج عظيمة الشأن لان ردجيش اشتهر باستحالة قهره اورث في قلوب الكتائب الثورية الفتية جسارة كبيرة فاخذت هذه الكتائب تهاجم العدو على طول الجبهة ولم تمض بضعة اسابيع حتى طرد جنود (فالمي) النمساويين من الباجيك فاستقبلهم الناس فيها كمنقذين .

ولكن نطاق الحرب اتسع كثيراً ايام العهد إذ نشأ من تصويت مجلس العهد عام ١٧٩٣ لالحاق بلاد الباجيك بفرنسا حرب مع انكلترا استمرت اثنين وعشرين سنة .

اجتمع مندوبو انكلترا وبروسيا والنمسا في (أنفرس) وتعاهدوا على تقسيم فرنسا على ان تنال بروسيا ولايتي الالزاس واللورين

وان تنال النمسا ولايتي الفلاندر والأرتوا وان تنال انكلترا مرفأ (دونكيرك) وقد اقترح سفير النمسا ان تقمع الثورة الفرنساوية بالارهاب « و باستئصال شأفة قادة الامة الفرنساوية » . لا يوجد امام مثل هذه التصريحات سوى الانتصار او الفناء ولا وسط. وهذا ما جعل فرنسا اثناء المحالفة المذكورة التي استمرت من عام ١٧٩٣ الى عام ١٧٩٧ ان تحارب في جميع تخومها اي من جبال البيرنة حتى المديرية الشمالية (النور).

انها اضاعت في البداية جميع فتوحاتها السابقة وحلت بها نوازل كثيرة لاستيلاء الاسبان على مدينتي (بيربنيان) و(بايون) والانكليز على مدينة (طولون) والنمساويين على مدينة (فالانسيان) فاضطر مجلس العهد عام ١٧٩٣ الى الامر بتجنيد جميع الفرنساويين المتراوحة اعمارهم بين الثامنة عشرة والاربعين وساق الى الحدود تسعة جيوش حاوية ما يقرب من ٧٥٠٠٠٠٠ جندي وقد مزجت كتائب الجيش الملكي السابقة بكتائب المتطوعين وكتائب المجندين .

دحر الحلفاء ورفع الحصار عن (موبوج) بعد الانتصار الذي وقع في (فاتيني) على يد المارشال (جوردان) ثم انقذ (هوش) ولاية اللورين فاخذت فرنسا تهاجم فاستردت الباجيك وضفة الرين اليسرى ثم ضرب المرشال « جوردان » النمساويين في « فاوروس » ملقياً

اياهم خلف الرين مستولياً على «قلونيا» و« كوبلنز » وقد احتلت هولندا فاضطر ملوك الحلفاء الى طلب الصلح معترفين لفرنسا بفتوحاتها .

ومن دواعي انتصار فرنسا ان اعداءنا لم يعيروا قضيتنا ما تستحقه من الاهتمام لاشتغالهم بتقسيم بولونيا الذي امتد منذ سنة ١٧٩٣ حتى سنة ١٧٩٥ ، كان كل منهم يريد ان يحضر القسمة لينال اكثر من غيره ولهذا تقهقر ملك بروسيا عام ١٧٩٢ بعد واقعة « فالمي » . حقاً ان تردد الحلفاء وسوء ظن بعضهم ببعض افادنا كثيراً فلو زحف النمساويون في صيف عام ١٧٩٣ علي باريس لكنا كما قال القائد تيابول :

« خسرنا مئة وربحنا واحداً فهم الذين انقذونا بمنحهم ايانا وقتاً كافياً لجمع الجنود واختيار الضباط والقواد».

لم يبق لفرنسا بعد معاهدة « بال » عدو ذو شأن في اوروبا سوى النمسا ولذلك ساقت حكومة الديرا كتوار جيشاً على مقاطعة « ميلانة » الايطالية التابعة للنمسا وفوضت الى بونابرت ان يهاجمها وقد ارغم هذا الاخير دولة النمسا بعد وقائع دامت حولا كاملا — اي من شهر نيسان عام ١٧٩٦ الى شهر نيسان عام ١٧٩٧ — ان تلتمس الصلح من فرنسا .

٣ - في العوامل النفسية والعوامل الحربية
التي اوجبت انتصار جيوش الثورة

يجب لادراك السبب في انتصار جيوش الثورة ان نذكر مقدار ما كان عند جنودها الحفاة العراة من الحماسة الشديدة ومن الصبر على المكاره ومن جحود النفس ، فهم لما أشبعوا بالمبادئ الثورية شعروا بانهم رسل لدين جديد اوحي به لتجديد العالم ، ويذكرنا تاريخهم بتاريخ قبائل جزيرة العرب التي استولى عليها المثل الاعلى الذي جاء به محمد (« صلى الله عليه وسلم ») فتحولت الى جيوش مخيفة فتحت جزءاً من العالم الروماني القديم باسرع مايمكن .منح مثل هذا الايمان جنود الجمهورية بطولة و بسالة لا تزعزعهما اية قارعة فانقذوا الوطن من العدو وصاروا يحاربونه حرب استيلاء يوم حلت مكان مجلس العهد حكومة الديراكتوار ولم يبق في فرنسا جمهوريون سوى الجنود .

و بما ان الايمان امر سار ظهرت الثورة الفرنساوية كعهد جديد، استقبل كثير من الامم المحتلة بلادها والمضغوط عليها من ملوكها غزاة فرنسا كمحررين لها فقد هرع سكان سافوا لرؤية الجنود الفرنساويين واستقبل الناس في مايانس هؤلاء الجنود بحماسة وزرعوا اشجار الحرية واسسوا مجلس عهد شبيه بمجلس باريس .

وكان يتيسر النصر لجيوش الثورة الفرنساوية كلما تصادمت مع امم اذلها جور الملوك المستبدين ولم يكن عندها خيال ذاتي تذب عنه ولكنه يتعسر عند تصادمها مع اناس اولي خيال وثيق كخيالها . ان خيال الحرية والمساواة الجديد القادر على استمالة الشعوب العاطلة من العقائد المتينة والرازحة تحت استبداد امرائها لا يؤثر بحكم الطبيعة في اناس ذوي خيال قوي رسخ في نفوسهم منذ عهد طويل . وهذا هو سر محاربة سكان مقاطعتي « بريتانيا » و « فاندة » الذين كانوا ذوي مشاعر دينية وملكية متأصلة الجيوش الجمهورية وانتصارهم عليها سنوات كثيرة . وقد عمت فتن هاتين المقاطعتين عشر مديريات فجمعتا ٨٠،٠٠٠ مقاتل .

وبما ان الرحمة لا محل لها في تنازع ما تباين من الخيالات اي المعتقدات التي ليس للعقل شأن فيها فان الصراع الذي وقع في (فاندة) لم يلبث ان اتصف بقسوة لا تحدث الا في الحروب الدينية وقد استمر هذا الصراع حتى آخر عام ١٧٩٥ وهو الزمن الذي وطد فيه هوش دعائم السلام في (فاندة) وما خمدت الفتنة فيها الا بابادة جميع العصاة تقريباً . قال (مولنياري):

« أصبحت فاندة بعد حرب اهلية استمرت عامين قاعاً صفصفاً . وقد هلك فيها ما يقرب من ٩٠٠،٠٠٠ نسمة من رجال ونساء وصبيان وشيوخ وصار الافراد

القلائل الذين ظلوا احياء بعد تلك المذابح لا طعام عندهم ولا مأوى لهم لان الحقول خربت والحظائر هدمت والبيوت حرقت »

واذا صرفنا النظر عما عند جنود الثورة الفرنساوية من الايمان الذي يتعذر معه قهرهم نرى انهم فاقوا سواهم بقادتهم النوابغ الذين انجبتهم ساحات الوغى . اوجبت هجرة اكثر رؤساء الجيش الذين هم من طبقة الاشراف الى البلاد الاجنبية ايجاد فريق جديد من الضباط فسنحت لاصحاب الكفاآت الحربية الغريزية فرصة يبدون بها ما عندهم من المواهب فاجتازوا جميع المراتب في بضعة اشهر . مثل ذلك (هوش) الذي كان في سنة ١٧٨٩ عريفاً صار قائد فرقة ثم قائد جيش في الخامسة والعشرين من عمره . وكانت فتوة هؤلاء القواد تمنحهم روحاً هجومية لاعهد للجيوش المعادية بها . ولما نشأ تقدمهم عن مالهم من المزايا ولم تقيدهم التقاليد والتطبع في العادات أبدعوا فناً حربياً ملائماً لمقتضيات الزمن بسرعة .

لا تقدر الجنود غير المجربة على الحركة إزاء كتائب اتخذت الجندية مهنة لها وتدربت على الطرق المستعملة منذ حرب السبع سنين . الا ان قيام جموع كثيرة بالهجمات قد ذلل هذا المانع . فالعدد الكبير هو الذي مكن القواد من القيادة وهو الذي كان يسد الفراغ الناشيء عن طريقة الهجوم المذكورة الشافية على ما بها من قسوة .

كانت الجموع الكثيفة عند مهاجمتها العدو بالحراب تهزم كتائبه المتعودة على طرق تدارى بها حياة الجند وجعلت بطاءة اطلاق الرصاص في ذلك الوقت فن فرنسا الحربى اسهل استعمالاً وبه تم النصر لها غير انه اهلك كثيراً من ابنائها وقد قدر العارفون ان الجيش الفرنساوي ترك في ساحة الحرب منذ عام ١٧٩٢ حتى عام ١٨٠٠ اكثر من ثلث جنوده (اي ٧٠٠٠٠٠٠ قتيل من مليوني مقاتل)

لنثابر على استخراج النتائج من الحوادث التي بحث عنها في هذا الكتاب بحثاً نفسياً .

يدلنا البحث عن الجموع الثورية في باريس وفي الجيوش على ما لهذه الجموع من الاطوار المختلفة . ولكنه يسهل شرح هذه الاطوار فقد اثبتنا ان الجماعات لما كانت عاجزة عن التعقل فانها تسير كما تحرض وهذا ما يجعلها متقلبة . ورأينا ايضاً انها ذات بطولة متناهية وان مزية محبة الغير تكون نامية عندها في الغالب وانه يسهل علينا ان نجد بينها الوفاً من الرجال مستعدين لتضحية انفسهم في سبيل احد المعتقدات

تؤدي مثل هذه الصفات النفسية المختلفة الى اعمال متباينة متناقضة حسب الظروف والدليل على ذلك ما ورد في قصة دور العهد وجيوشه . اثبتت هذه القصة ان جموعاً مركبة من عناصر متقاربة قد سارت في باريس وفي الثغور سيراً مختلفاً اختلافاً يجعل الانسان

يظن بانها ليست من شعب واحد .

كانت الجموع في باريس مضطربة قاسية سافكة للدماء متقلبة في رغائبها تقلباً يستحيل ان يستقيم معه أمر اية حكومة واما حال الجموع في الجيوش فكانت خلاف ذلك لان اختلاط هذه الجموع بالجند اي بفريق الامة الذي شب على حب النظام من فلاحين وعمال وترويضها بالتعليم الحربي واجتذابها بالحماسة المعدية اوجب اصطبارها على ضنك العيش واستخفافها بالمهالك وساعد على تكوين فئة عجيبة انتصرت على اشد جيوش اوروبا سطوة .

يستشهد بمثل هذه الامور في اثبات تأثير النظام فهو يحول الرجال ولا تلبث الامم التي تحرر منه ان تصبح قبائل متبربرة .

لا تزال هذه الحقيقة تغيب عن بال اولياء الامور ويؤدي جهلهم بنواميس الجماعات الاساسية الى العمل بما تضعه الجموع من الخطط بدلاً من ان يقودها .

الفصل السابع

نفسية زعماء الثورة الفرنساوية

١ — نفسية رجال الثورة الفرنساوية

شأن الاخلاق الشديدة والاخلاق الضعيفة

لما كان الانسان يمتاز بذكائه ويسير بخلقه وجب في اكتناه امره ان يفرق بين هذين العنصرين ، وللخلق المقام الاول في الادوار العظيمة والحركات الثورية معدودة من تلك الادوار بحكم الطبيعة

وبما اننا وصفنا في كثير من الفصول السابقة ما يسود ايام الفتن من النفسيات المختلفة فاننا لا نرجع الى ذلك الآن ، وتلك النفسيات تغير ذاتية الانسان الموروثة والمكتسبة .

رأينا ما لعنصر التدين من الشأن في النفسية اليعقوبية وما ادخله في قلوب اشياع الايمان الجديد من التعصب الشديد ورأينا ايضاً ان جميع اعضاء المجالس ليسوا متعصبين وان المتعصبين كانوا اقلية فيها وان اكثرية الاعضاء في مجالس الثورة الفرنساوية مطبوعون على الحياء والاعتدال والمحايدة وان الخوف هو الذي جعلهم يصوتون قبل الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية مع القساة المتطرفين .

ان اصحاب الاخلاق المحايدة الذين يتبعون في جميع الادوار —

ثورية كانت او غير ثورية - اكثر المحرضات تناقضاً هم الاكثر عدداً في كل زمان ولا فرق بينهم و بين القساة من حيث الخطر لان قوة هؤلاء تعتمد على ضعف اولئك .

يشاهد في جميع الثورات ولا سيما في الثورة الفرنساوية اقلية همي مع ضيق عقلها حازمة تتغلب على اكثرية ساحقة متصفة بسمو المدارك و بفقدان الخلق معاً . و يظهر بجانب الدعاة المتعصبين وبجانب ضعيفي الاخلاق ايام الثورات اناس لا يهمهم سوى الاستفادة منها . وما اكثر من ظهر ايام الثورة الفرنساوية من افراد هذا النوع الذين لا غاية لهم سوى الانتفاع من الظروف ليغتنوا ونعد منهم باراس وطاليان وفوشيه و باريز الذين انحصرت سياستهم في خدمة القوي ضد الضعيف .

والواقع ان عدد هؤلاء الطامعين في بداية الثورة المذكورة كان عظيما وهذا ما دعا كاميل ديمولان ان يكتب عام ١٧٩٢:

«ان مصدر الثورة الفرنساوية هو ما كان عند كل واحد من خلق الاثرة وخلق العجب».

و يتكون من اضافة الملاحظات السابقة الى ما ذكرناه في فصل آخر عن الاطوار النفسية ايام الانقلابات السياسية فكر عام في خلق رجال الثورة الفرنساوية وسنطبق الآن ما بيناه سابقاً من المبادئ

على مشاهير الثورة المذكورة .

٢ – نفسية النواب وقت بعثهم

ان المسير لاعضاء مجلس العهد في باريس والضابط لهم والمحرض اياهم هو تأثير رفقائهم وتأثير البيئة . ويجب في الحكم عليهم ان نبحث عنهم وحبلهم على غاربهم اي وهم احرار لا رقيب عليهم وهذه هي حال النواب الذين بعثهم المجلس المذكور الى المديريات .

كان هؤلاء النواب ذوي سلطة مطلقة ولم تضايقهم مراقبة وقد الزم الموظفون والقضاة باطاعتهم فكان الواحد منهم ايام بعثته «يسخر الناس ويسجنهم ويضبط اموالهم كما يريد وما اشبهه بالباشا في المقاطعة التي ولي امرها» .

ولما عدا اولئك النواب أنفسهم من الباشوات صاروا يخرجون الى الناس « محمولين في عجلات يجرها ستة احصنة والحرس يحيط بهم من كل جانب ويجلسون حول موائد فاخرة ذات ثلاثين طقماً ليأكلوا عليها مع موكب من المهرجين والبطائن والخفراء» وقد «شابهت ابهة كولودير بوا في ليون ابهة سلاطين الترك فاصبح لا يقابله احد الا بعد ثلاث طلبات وكان يتقدم قاعة استقباله حاجز لئلا يتمثل امامه امرء على بعد يقل عن خمس عشرة خطوة » ولا يعسر علينا تصور زهو اولئك الحكام المطلقين عند دخولهم المدن والحرس محدقة بهم،

اولئك الحكام الذين كانت اشارة منهم تكفي لقطع الرؤوس .

لم يلبث صغار المحامين العاطلون عن العمل والاطباء المبتذلون والحوارنة المعتزلون والاغبياء المجهولون وغيرهم ممن لم يبتسم لهم ثغر الدهر في الماضي ان صاروا معادلين لاشد من عرفهم التاريخ من الجبابرة وكانوا بقصلهم الرقاب و باغراقهم الاحياء وقتلهم رمياً بالرصاص وهم راكبون متون اهوائهم يشعرون بالارتقاء من مستوى وضيع الى درجة مشاهير الملوك .

ولم يسبق نيرون وهليوغابال في الظلم والاستبداد نواب العهد أبداً لزجر القوانين والعادات اياهما ولو قليلا واما اولئك النواب فلم يردعهم رادع . قال تاين:

« نظر فوشيه من نافذته والنظارة في يده الى ذبح ٢١٠ من سكان ليون وكان كولو ولابورت وفوشيه يقصفون ايام القتل بالرصاص وقد نهضوا عند سماعهم اطلاق النار هاتفين فرحاً محركين قلانسهم ».

ونذكر من بين نواب البعثة السفاكين الكاهن (لوبون) الذي خرب اراس وقامبري عند ما اصبح ذا سلطة قوية ، فمثله ومثل كاريبه يثبتان ما يؤول اليه امر الانسان عند ما يتخلص من نير التقاليد والقوانين وقد بلغ منه حب سفك الدماء واقتراف المظالم مبلغاً أدى الى نصبه المقصلة تحت نوافذ بيته ليتمتع مع زوجته واعوانه

بمنظر الذبح ، وقد اقام على قائمة المقصلة مقصفاً ليشرب منه الثائرون وكان الجلاد يركم في الطريق اجساد القتلى عارية على اوضاع مضحكة ليضحك منها الثائرون ، وقد انحصر دفاع الكاهن المذكور بقوله لم يفعل ما فعله الا لتنفيذ ما أمر به ، و الامور التي أنب عليها مؤخراً وان كانت معلومة لدى مجلس العهد فان هذا المجلس لم يعزره عليها .

اشرت آنفاً الى الخيلاء التي اشتملت على هؤلاء النواب الذين اصبحوا فجأة ذوي سلطة فاقت على سلطان اشد المستبدين ولكن الاشارة الى ذلك لا تكفي لايضاح فظاعتهم ولهذه الفظاعة اسباب مختلفة : منها انه لما كان مفوضو مجلس العهد رسلا لايمان شديد فانهم كرجال محكمة التفتيش لم يرحموا ضحاياهم وقد اصبحوا بتخلصهم من زواجر التقاليد والقوانين قادرين على ارخاء الاعنة لما تركته الهمجية الاولى فيهم من الغرائز الوحشية .

نعم ان الحضارة تقيد هذه الغرائز ولكنها لا تميتها ابداً والحاجة الى القتل في نفوس الصيادين دليل دائم على ذلك ، بين المسيو كونيسي كارنو صولة هذا الميل الفطري المثيرة في كل حياد عند مطاردته فريسته خلق القسوة في السطور الآتية :

« ان حب القتل للقتل ذاته خلق عام وهذا الخلق هو علة

الكلف بالصيد فنحن نستمر على الاتيان بعمل كانت ضرورة العيش ترغم اجدادنا الهمج على فعله ولا يوجد ما يبرره في الوقت الحاضر ونعجز عن كسر سلاسل العبودية المقيدة لنا منذ القديم وعن نزع التلذذ بسفك دماء الحيوانات التي تنسى عاطفة الشفقة عليها وقتما يستولي علينا حب الصيد فنسقط اكثر الحيوانات دعة وظرافة — ومنها الطيور المغردة الناشرة في الكون سحر الربيع — رمياً بالرصاص او نخنقها بحبائلنا من غير ان تعكر رعشة رحمة ما تجده من اللذة عند مشاهدتها مضرجة بالدماء راقصة من الالم محاولة الفرار على ارجلها المكسورة او محركة اجنحتها المهيضة . وسبب ذلك هو الخلق المهيمن الموروث عن الاجداد والذي لا يقدر على مقاومته افضل الناس .

ولا يتسلط هذا الخلق الموروث السفاح في الاوقات الاعتيادية إلا على الحيوانات حذراً من بطش القانون . فمتى بطل عمل هذه القوانين لا يلبث ان يتسلط على الانسان ايضاً وهذا هو علة تلذذ رجال الهول بذبح الناس وما قاله كاريبة عن الفرح الذي كان يجده في نفسه عند رؤية وجوه ضحاياه ساعة هلاكهم لكلام ذو معنى . والخلاصة ان الوحشية عند كثير من اهل الحضر غريزة مزجورة ولكنها ليست مبادة .

٣ - دانطون وروبسبير

ان دانطون وروبسبير اكثر رجال الثورة الفرنساوية نفوذاً وسأتكلم قليلاً عن الاول لنفسيته البسيطة المعروفة، كان خطيب منتديات محرضا ذا صولة مهيجاً للشعب وهو وان كان قاسياً في خطبه فان نتائجها كانت تحزنه في الغالب وقد نال درجة رفيعة منذ البداية ايام وجود روبسبير - خصمه في المستقبل - في الصف الاخير، نعم جاء وقت اصبح دانطون فيه روح الثورة الفرنساوية ولكنه كان عاطلا من خلق العناد ومن الثبات في سيره ذا حاجات لم يوجد عند روبسبير مثلها، وقد انتصر تعصب هذا الاخير المستمر على مجهودات الاول المتقطعة غير ان سوق روبسبير الذى هو شاحب المنظر مفسد قليل الذكاء لدانطون الخطيب المؤثر الى المقصلة امر لم يخطر ببال احد .

لا يزال امر روبسبير - الذي هو اكثر رجال الثورة الفرنساوية تأثيراً غامضا - وان بحث عنه اكثر من غيره فمن الصعب اكتناه نفوذه الذي ملك به حق الاحياء والاماتة نحو مناهضي الثورة الفرنساوية وزملائه المعاضدين لها معا .

لا جرم ان أمر روبسبير لا يكتنه بان يقال كما ذكر تين انه معجب بنفسه غارق في بحار المجردات او كما وصفه ميشيليه بأن مبادئه

علة نجاحه او كما قال عنه معاصره ويليام :

« ان سر قبضه على زمام الحكم هو اتخاذه اهل النقائص ومقترفي الجرائم رقاة لطمعه » .

ويستحيل ان تكون فصاحته سبب نجاحه إذ انه كان يقرأ بصعوبة - ونظارته تحجب عينيه - خطبه التي هي كناية عن مجردات باردة مبهمة، وكان ثمة في مجلس العهد خطباء يفوقونه بلاغة كدانطون والجيرونديين ولكنه هو الذي ابادهم جميعاً .

اذاً ليس عندنا ايضاح كاشف لسلطة هذا الحاكم المطلق الذي لم يكن له نفوذ في المجلس الوطني فاصبح بالتدريج سيد اليعاقبة ومجلس العهد ، ولما صار ركنا من اركان لجنة السلامة العامة اضحى كما قال بيوفارين : «أهم رجال فرنسا» . لا شك في اعانة الظروف له كثيراً فقد نظر اليه الناس كسيد محتاجين اليه وهذا هو علة ارتقائه السريع الذي نسعى في بيانه . واني لأظن انه كان ذا سحر ذاتي لا عهد لنا به اليوم ، وبهذا الظن يمكن شرح ما ناله من النجاح عند النساء ، فكانت المسالك ايام القائه خطبه « تكتظ بالنساء ويتراوح عدد اللواتي يجلسن على مقاعد الاستماع بين السبعمئة والثمانمئة وكن يصفقن له هائجات النفس وعند ما يخاطب اليعاقبة كان شهيق الحنو والهتاف يسمع من كل جانب وتكاد الضوضاء تضعضع اركان بهو

الاجتماع ».

وقد ارسلت اليه ارملة حديثة السن اسمها مادام روشالابر التي قُدر دخلها باربعين الف فرنك رسائل فاتنة تدعوه فيها الى الاقتران بها .

وليس خلق روبسبيير سبب استمالة الناس اليه لانه كان سوداوي المزاج ضعيف الذكاء عاجزاً عن فهم الحقائق غائصاً في بحر من المجردات ما كراً مداجياً ووسمه البارز هو كثرة إعجابه بنفسه ولم يفارقه ذلك حتى آخر يوم من حياته . ولما كان حبراً لايمان جديد اعتقد بان الله ارسله الى الارض ليوطد عليها دعائم الفضيلة . وقد كتب اليه « انه هو المسيح الذي وعدالله الناس بارساله لاصلاح كل شيء ».

كان يدعي بانه من ارباب البيان ولذلك كان ينقح خطبه طويلا وقد أدى حسده الخطباء والادباء امثال كاميل ديمولان الى قتلهم . وما اعظم استخفافه بزملائه فلما خلى الى باراس ساعة ترقشه وفرغ من حلق لحيته بصق نحوه كأنه غير حاضر ولم يجبه على اسئلته تكبراً ، وليس ازدراؤه ابناء الطبقة الوسطى والنواب باقل من ذلك والجمهور وحده هو صاحب الخطوة عنده قال :

« لامناص من الخضوع امام الجمهور الحاكم عند ما يتصرف بامور السلطة

وكل ما يفعله الجمهور فضيلة وحقيقة وليس فيما يعد ظلماً او ضلالا او جرماً ».

كان روبسبيير مولعاً بالاضطهاد وليس قيامه بأمر الرسالة هو السبب الوحيد في قطعه كثيراً من الرؤوس بل ان اعتقاده بانه محاط بالأعداء والمؤتمرين اوجب ذلك ايضا. قال الموسيو صوريل : «مهما بلغ جبن زملائه امامه فان خوفه منهم اعظم » .

ان حكمه المطلق الذي استمر خمسة اشهر لمثال بارز على ما لبعض الزعماء من السلطان . فاذا اهلك جبار قابض على زمام جيش ايا شاء فليس في ذلك ما يعسر فهمه واما اذا استطاع رجل وحده ان يرسل عدداً كبيراً من امثاله الى المقصلة فهذا امر لا يسهل ايضاحه وعلى نسبة ايداعه اشهر النواب ككاميل ديمولان وهيبرت ودانطون وغيرهم الى المحكمة الثورية ومنها الى المقصلة كانت قدرته تعظم وقد سقط اكثر الجيروندين صيتاً امامه ثم اختلف مع الهيئة الثورية المريعة فقصل رقاب رؤسائها واقام مقامها هيئة ثورية جديدة منقادة لأوامره .

أراد ان يتخلص بسرعة ممن لا يروقون في عينه فجعل المجلس يوافق على قانون الشهر التاسع من السنة الجمهورية ذلك القانون الذي يسمح بقتل الناس عند الشبهات و بفضله قطع روبسبيير في باريس ١٠٣٧٣ رأساً في تسعة واربعين يوماً ، وقد كف زملاؤه

عن النوم في بيوتهم فرقاً منه وصار عدد من يحضر الجلسات من النواب لا يزيد على المئة.

سببت زيادة اعتماده على نفسه وعلى جبانة اعضاء مجلس العهد هلاكه فلما أراد ان يحملهم على ان يصوتوا لقانون يجوّز سوق النواب الى المحكمة الثورية ومنها الى المقصلة من غير ان يأذن المجلس بذلك اي بناء على قرار اللجنة التي يدير امورها ائتمر كثير من اعضاء الحزب المونتانياري (الجبلي) والبليني (السهلي) به ليسقطوه. فاتهمه طاليان — الذي احس بدنو أجله و بانه ليس لديه ما يخسره — بالبغي والجبروت فاراد رو بسبير ان يدافع عن نفسه بتلاوته خطاباً مكث في تهذيبه طويلاً ولكنه ادرك بعده أنه وإن امكن إبادة الناس باسم العقل، فان العقل لا يقود المجالس. خنق صراخ المؤتمرين صوته فكفى لانتكاسه تكرير كثير من الاعضاء الحاضرين بتأثير العدوى النفسية كلمة « فليسقط الظالم » وقد أمر المجلس باتهامه حالا.

ثم رأت الهيئة الثورية انقاذه ولكن مجلس العهد صرح بانه لا يستحق حماية القانون، كتب و يليام:

« كان تأثير كلمة « عدم استحقاق حماية القانون » في الفرنساوي كتأثير كلمة الوباء لان من تقال فيه تلك الكلمة كان يحرم مدنياً و يعده الناس مدنساً لمن يمر بالقرب منه. وهكذا اثرت هذه الكلمة في المدفعية التي تسدد قنابلها الى مجلس العهد فلما سمعت بانها قيلت ضد الهيئة الثورية ادارت افواه مدافعها حالا ».

أعدم روبسبير قصلا في اليوم العاشر من الشهر الحادي عشر للسنة الجمهورية مع عصابته البالغ عددها ٢١ رجلاً ومنهم سان جوست ورئيس المحكمة الثورية ورئيس البلدية ثم اعدم في غد ذلك اليوم سبعون يعقوبياً وفي اليوم الثالث ١٣ يعقوبياً فانقضى بذلك دور الهول الذي استمر عشرة شهور.

ان انهيار البنيان اليعقوبي في الشهر المذكور لاحدى الحادثات النفسية الغريبة التي وقعت ايام الثورة الفرنساوية وما خطر على قلب احد المونتانياريين الذين اسقطوا روبسبير بان دور الهول سينتهي بهذا السقوط، نعم قضى طاليان و باراس وفوشيه الخ على روبسبير كما قضوا سابقا على هيبرت ودانطون والجيروندين وغيرهم ولكنهم لما علموا بان الجماعة ارادت بهتافها لاعدام روبسبير زوال دور الهول ساروا كانهم يريدون ذلك، ثم ان الحزب البليني (السهلي) - اي اكثرية المجلس الساحقة - الذي قتل روبسبير كثيراً من اعضائه ثار على الدور المذكور الذي هتف له زمنا طويلا رغم مقته اياه وليس من هو اشد هولا ممن زال عنهم الخوف بعد استيلائه عليهم فقد اضطهد الحزب البليني الحزب المونتاياري والقى في قلوب اعضائه الرعب انتقاما.

لم يصدر تدلل زملاء روبسبير في مجلس العهد له عن ميل له

ولكن هذا الحاكم المطلق أخافهم كثيراً فكانوا يخفون حقداً شديداً خلف ما كان يدفعهم الخوف الى اظهاره من علامات الاعجاب والحماسة ويظهر ذلك من مطالعة ما نشره كثير من النواب بعد اعدامه من التقارير في الاعداد الصادرة في ١١ و ١٥ و ٢٩ اغسطس سنة ١٧٩٤ من جريدة المونيتور وأخص بالذكر منها التقرير الباحث عن مؤآمرة الحكام الثلاثة روبسبيير وقوطون وسان جوست فلم يشتم عبد سيده بعد سقوطه مثلما شتم روبسبيير وعصابته في التقارير المذكورة، ويستدل منها « ان هؤلاء الغيلان جددوا عهد مجازر «ماريوس وسيللا» وقد وصف فيها روبسبيير بالعاتي المخيف وبانه لا يحجم عن ان يطلب مثل كاليغولا الى الشعب الفرنساي ان يعبد حصانه اذا وجد الى ذلك سبيلا وبانه كان يبحث عن السلامة في قتل جميع من يشتبه بهم.

الا انه فات هذه التقارير ان تذكر ان سلطة روبسبيير لم تستند الى جيش قوي كسلطة ماريوس وسيللا التي اشير اليها بل الى رضاء اعضاء مجلس العهد عنه، فلولا جبن هؤلاء الشديد لماطالت سلطة روبسبيير يوماً واحداً.

حقاً ان روبسبيير مثال لاكبر جبابرة التاريخ ولكنه يمتاز عنهم بكونه جباراً بلا جنود، ويمكن تلخيص مبادئه بان يقال انه كان

متشرباً اكثر من جميع الناس - ما عدا سان جوست على ما يحتمل - بالعقيدة اليعقوبية رغم منطقها الضيق وتصوفها الشديد وتصلبها العظيم ، ولا يزال يوجد مادحون له الآن فقد نعته المسيو هاميل « بالشهيد » واقترح بان يقام له تمثال واني لا كتتب بذلك طائعاً لانني اعد ان تخليد الآثار الدالة على عمى الجماعات وعلى تذلل المجالس امام زعيم يعرف كيف يقودها لايخلو من فائدة فسوف يذكرنا تمثاله بهتاف الاعجاب والحماسة الذي اتى به مجلس العهد ولما تهدده به من التدابير قبل اسقاطه بقليل .

٤ - فوكيه تنفيل - مارا - بيوفارين الخ

جمعت في بحث واحد بضعة ثوريين اشتهروا بميلهم الى سفك الدماء ولهؤلاء عواطف اخرى مشددة في فظاعتهم كالخوف والحقد

ان ذكر فوكيه تنفيل النائب العام في المحكمة الثورية ان أشد الذكريات شؤماً وقد اوردت هذا النائب الذي اشتهر بادي الامر بحامه ثم اصبح رجلا سفاحاً تشمئز من ذكره النفوس مثلا في مؤلفات أخرى لأبين ما يطرأ على بعض الاخلاق من التحولات ايام الثورة . كان معدماً وقت سقوط الملكية منتظراً كل شيء من نشوب ثورة اجتماعية ليس عنده مايخسر فيها وهو من فصيلة الرجال المتأهبين لمعاضدة الفتن في كل حين . قلده مجلس العهد مقاليد اموره فاصبح

في يده مصير ما يقرب من ألفي متهم ومنهم الملكة ماري انطوانيت والجيروندييون ودانطون وهيبرت الخ ، وكان يعدم جميع المتهمين المرفوعة اسماؤهم اليه و يخون حماته السابقين بدون تردد وكان عند ما تزول سلطة احدهم ـ ككاميل ديمولان او دانطون او غيرهما ـ لا يتأخر عن طلب عقابهم .

ان روح فوكيه تنفيل لأنذل روح اظهرتها الثورة الفرنساوية وقد كان في الاوقات الاعتيادية مشتغلا بقواعد مهنية وليس له شأن أكبر من شأن قاض هادئ مجهول امره وما اشبه نائبه « جلبر لياندون » به كما قال المسيو دوريل عنه :

« إنه القى الرعب في قلوب الناس كز ميله غير انه أتم مهنته وهو قائم باعمال منصب قضائي سام في عهد نابليون ».

ومن حسنات المجتمع المنظم العظيمة تقييده لمثل اصحاب تلك الاخلاق الخطرة الذين لا يردعهم سوى الزواجر الاجتماعية .

أعدم فوكيه تنفيل وهو لا يعلم علة عقابه الذي لا يوجد ما يبرره من الوجهة الثورية وهل فعل سوى تنفيذ أوامر رؤسائه بنشاط ؟ انه لا يجوز تشبيهه باولئك النواب الذين ارسلوا الى الولايات ولم تكن مراقبتهم في الامكان فقد فحص مفوضو مجلس العهد جميع أعماله واستصوبوها حتى اليوم الاخير ولو لم يشجعه رؤساؤه على

قسوته وعلى طريقته السريعة في الحكم على السجناء لما استمرت سلطته، ومجلس العهد بقضائه على فوكيه تنفيل قضى على دوره الرهيب، حقاً ان المجلس المذكور ادرك ذلك فاعدم فوكيه تنفيل واعدم معه كثيراً من رجال الهول الذين لم يكن فوكيه تنفيل غير موظف منفذ لاوامرهم .

ونذكر بجانب فوكيه تنفيل (دوما) الذي اظهر مثله قسوة عظيمة صادرة عن خوف شديد، كان هذا لا يخرج الا مسلحاً و يمتنع عن مواجهة الناس ولا يكلم الزائرين الا من كوة وما اكثر سوء ظنه بالناس ومنهم زوجته التي دفعه سوء ظنه بها الى سجنها ثم الى اعدامها .

ونعد من بين الذين اظهروا دور العهد واشتهروا بهمجيتهم (بيوفارين) الذي هو مثال تام للوحشية الحيوانية .

كان يظل في ساعات الغضب والضيق هادئاً قائماً بعمله الهائل ويحضر - بصورة رسمية - مذابح سجن (الأبيي) وينهي الحزازين ويعدهم برواتب ثم يدخل بيته كأنه راجع من النزهة . وكان وهو رئيس المنتدى اليعقوبي ورئيس مجلس العهد وعضو في لجنة السلامة العامة يجر الجيرونديين الى المقصلة وكذلك الملكة وسيده السابق دانطون الذي قال عنه « إنه ذو مدية تحت لسانه » وقد استصوب ضرب مدينة ليون بالمدافع وإغراق مدينة نانت وهو الذي رتب لجنة (اورانج) العديمة الرحمة وحرض فوكيه تنفيل ، وكثيراً ما جاء اسمه على رأس مراسيم

الاعدام التي كان يوقع عليها قبل زملائه غير راحم او متأثر او هائج سائرا على طريقه عندما يدهش هؤلاء او يترددون او يتمهلون متفوهاً بكلمات ضخمة هازا ذؤابته كالاسد . ولما احدق الخطر بروبسبيير وسان جوست وقوطون تركهم وانضم الى الحزب المعارض ليضرب رقابهم ولكن لماذا ؟ إن المرء ليحار في الجواب إذ انه لم يطمع بشيء ولم يبتغ مالاً ولا سلطاناً

اظن ان الجواب ليس صعباً فالعطش الى القتل المنتشر كثيراً بين بعض المجرمين كما بينا آنفا يوضح لنا سر سلوك بيوفارين ، يكثر الاشقياء من القتل للقتل ذاته وهم كالصيادين يصمون الطريدة قضاء لما في نفوسهم من شهوة الاتلاف الغريزية والخوف من الشرطي ومن المقصلة يردع المفطورين على تلك الغرائز السفاكة عن اقتراف الجرائم في الازمنة المعتادة ولكن متى يحين الوقت الذي يرخون فيه لانفسهم أعنتها فانهم لا يتأخرون لحظة عن الاجرام .هذه هي حال بيوفارين وآخرين مثله .

واما نفسية مارا فاكثر غموضا لا لأن فيه عدا ميله الى القتل عناصر اخرى كعزة نفسه المكلومة وطمعه وعقائده الخ بل لولعه بالمراتب السنية ولوعاً بلغ حد الجنون وتعصبه لبعض المبادى تعصباً جاوز حد الجمود .

كان ذا مزاعم علمية قبل الثورة الفرنساوية ولكن لم يعر أحد تراهاته أذنا صاغية وهو وان حلم في ذلك الوقت بالمناصب والمعالي

فانه لم ينل سوى وظيفة وضيعة عند امير اقطاعي كبير ، الا ان الثورة المذكورة فتحت له باب مستقبل غير منتظر ، و بما انه مفعم بالحقد على المجتمع السابق الذي جحد فضائله فانه اصبح بعد نشو بها على رأس اشد الطغاة وقد انشأ بعد ان مجد مذابح شهر ايلول جهراً جريدة وشى فيها بجميع الناس طالباً اعدامهم بالحاح .

وكان مارا يتكلم كثيراً عن منافع معبوده الشعب غير ان اكثر زملائه احتقروه ولو لم يقتله شارلوت قورداي بخنجرها لما تفلت من ساطور المقصلة حتما .

٥ — مصير رجال العهد الذين ظلوا احياء بعد انتهاء الثورة الفرنساوية

وجد بجانب رجال العهد الذين كانت لهم نفسية ذات صفات خاصة بها رجال آخرون — كباراس وفوشيه وطاليان وميرلان دوتيو نفيل — ليسوا من ذوي المعتقدات او المبادئ ولا يهمهم سوى الاثراء .

استطاع هؤلاء ان يستفيدوا من البؤس العام فجمعوا اموالا عظيمة ولو كانوا في الازمنة الاعتيادية ولم يظهروا ايام الثورة التي لا يفرق فيها بين الفضيلة والرذيلة لعدوا من الاشقياء المجرمين . نعم ظل القليل من اليعاقبة متعصبا لمذهبه واما اكثرهم فقد تركوه بعد

ان اغتنوا وتشرفوا بصيرورتهم من بطانة نابليون ، خذ مثالا (قانبا-سيرس) الذي كان ينادي لويس السادس عشر وهو في السجن (لويس قابي) تر أنه صار يطلب في عهد نابليون الى جلسائه ان يلقبوه بـ (صاحب السمو) امام الناس و بـ (سيدنا) بينهم ، وهذا ما يدلنا على مقدار الجسد المنطوي تحت ميول كثير من اليعاقبة الى المساواة .

قال المسيو مادلان :

« اغتنى اكثر اليعاقبة فصاروا مثل (شابو و بازير و ميرلان و باراس و بورصول وطاليان و باريز) اصحاب قصور واطيان ومن لم يثر منهم في البداية فقد أثرى في النهاية . فقد وجد في لجنة السنة الثالثة وحدها رجال اصبح احدهم في المستقبل أميراً و ١٣ منهم كونتات وخمس منهم بارونات وسبع منهم اعضاء في مجلس الشيوخ الامبراطوري وست منهم اعضاء في مجلس الشورى ونعد بجانبهم خمسين دموقراطيا كانوا اعضاء في مجلس العهد فصاروا في أقل من خمس عشرة سنة أرباب صكوك وخزائن وعجلات واوقاف واقطاعات وفنادق وقصور ومن هؤلاء الخمسين الدوك اورطان والكونت ريفيول وقد مات فوشيه تاركاً خمسة عشر مليوناً » .

هكذا اعيدت امتيازات العهد السابق التي انتهكت حرمتها حسب منفعة الطبقة الوسطى ولكن لم يتم الوصول الى هذه النتيجة الا بتخريب فرنسا واحراق ولايات . متها وتكثير العقوبات بالقتل

وإيقاع كثير من العائلات في الغم الشديد وإقلاق اوروبا وزهوق نفوس مئآت الالوف في ساحة الوغى .

نختم هذا الفصل الذي بحثنا فيه عن نفسية كثير من زعماء الثورة الفرنساوية بذكر ما قلناه من الاحكام في رجال الدور المذكور:

إذا كان علم الاخلاق يقضي على العالم به ان يكون شديداً نحو بعض الاشخاص لحكمه فيهم حسب القواعد التي يجب على المجتمعات ان تحترمها لتعيش فانه لا يوجد ما يجعل العالم النفسي شديداً مثل ذلك اذ ان غايته ادراك الاسباب وسرعان ما يزول النقد ازاء هذا الادراك .

ان الروح البشرية لآلة قصفة ولذلك قلما تستطيع اللعب التي تلعب على مسرح التاريخ ان تقاوم القوى القوية المحركة لها ولما كانت الوراثة والبيئة والظروف عوامل مهيمنة فانه لا يوجد من يستطيع ان يقول متيقنا ماذا يصبح سيره لو كان في مكان من يحاول ان يفسر اعمالهم من الرجال .

الباب الثالث

النزاع بين المؤثرات الموروثة والمبادىء الثورية

الفصل الاول

تقلص الفوضى — حكومة الدير كتوار

١ — نفسية دور الدير كتوار

بما ان جميع المجالس الثورية تتركب من افراد متماثلين بعض التماثل فانه يسبق الى الذهن ان نفسيتها متقاربة . يكون الامر طبق ذلك في الادوار الاعتيادية حيث ثبات البيئة يوجب ثبات الاخلاق ولكن متى تتبدل الظروف بسرعة وذلك كما وقع ايام الثورة الفرنساوية فانه لا بد للاخلاق من التبدل لتلتئم معها .

هكذا كان شأن حكومة الدير كتوار التي كانت ذات مجلسين اشتملا على كثير من النواب ومجلس ضيق النطاق مركب من خمسة مديرين ، ويشبه تلكما المجلسان النيابيان بضعفهما مجلس العهد لانهما وان لم يسيرا مع الفتن الشعبية التي قاومها المديرون بيد حديدية فقد كانا يذعنان لاوامر هؤلاء المديرين المطلقة اذعانا تاما .

لما أكل الاستبدادُ اليعقوبي جميع الناس تخيل المجلس الجديد ان يعمر ما عم فرنسا من التخريب وان يقيم حكومة دستورية غير مستبدة ، الا انه يمكن ان نقول بان الاقدار الثورية التي تضع سير الحوادث احياناً فوق عزيمة الرجال قد جعلت اولئك النواب رغم صدق نياتهم ان يفعلوا كسابقيهم خلاف ما يريدون. رجوا أن يكونوا معتدلين فظهروا بمظهر الاشداء ورغبوا ان يقضوا على نفوذ اليعاقبة فاقتدوا بهم وحلموا ان يصلحوا ما خرب فزادوا ضغثاً على إبالة وتمنوا ان يعم السلم الديني فاضطهدوا الكهنة واعملوا السيف في رقابهم باشد مما وقع ايام الهول الاكبر .

وأما نفسية المجلس الصغير المركب من خمسة مديرين فعكس نفسية مجلسي النواب لأن مواجهته للمصاعب اليومية كانت تدفعه الى حلها مع ان المجلسين النيابيين اقتصرا على إبداء الرغائب لبعدهما عن الحقائق .

ان عدم اكتراث المديرين بالمباديء دفعهم الى حب بقائهم سادة ولذلك لم يتأخروا لحظة عن الاتيان باقسى الاعمال واشدها مخالفة للقانون وما اكثر المرات التي ابطلوا فيها ما لم يرق في عيونهم من الانتخابات ، وعند ما شعروا بعجزهم عن تنظيم فرانسا تركوا الامور تجري كيفما تشاء وهم وان استطاعوا بظلمهم ان يتسلطوا على

البلاد فانهم لم يحسنوا سياستها وحسن السياسة هو اكثر ما كانت تحتاج اليه

اشتهرت حكومة العهد في التاريخ بشدتها وحكومة الدير كتوار بضعفها مع ان الواقع يثبت لنا ان الثانية اقوى من الاولى و يتضح ما بين حكومة الدير كتوار وحكومة المجالس السابقة من الفروق بما يأتي : ان من الممكن ان تكون الحماسة عظيمة في مجلس يضم ستمئة او سبعمئة عضو كما في ليلة ٤ اغسطس وان تدفعه شدة العزيمة الى اشهار الحرب على جميع الملوك ولكن هذه الاندفاعات لا تكون قوية لعدم استمرارها واما اللجنة المؤلفة من خمسة اعضاء والمتغلب عليها احد اعضائها فتكون ذات عزيمة مستمرة اي ثبات في سيرها. نعم ظهرت حكومة الدير كتوار بمظهر العاجز عن الحكم ولكن إرادتها كانت قوية فلم تبال بالقانون ولا بابناء الوطن ولا بالمصلحة العامة وقد اثقلت كاهل فرنسا باستبداد لم تأت بمثله أية حكومة منذ بداية الثورة الفرنساوية حتى ولا حكومة الهول الاكبر .

لم تستطع حكومة الدير كتوار كحكومة العهد ان تكون سيدة فرنسا رغم طرقها الاستبدادية المماثلة لطرق حكومة العهد ويثبت لنا هذا الامر الذي اشرنا اليه سابقا ما في الضغط المادي من العجز عن قهر القوى الادبية وهنا نكرر ما قلناه بان رائد الانسان الحقيقي هو

مزاجه الادبي الذي وطده الاجداد .

و يصعب ان يقال باننا عاطلون من مثل ذلك المزاج لاعتيادنا العيش في مجتمع منظم واستنادنا الى القوانين وتقاليد مبجلة، ولا نرى في الغالب من البيئة التي نعيش فيها سوى ما يحصر النفس غافلين عن ان المجتمع لا يقوم الا ببعض الروادع اي بالقوانين والعادات والتقاليد الوازعة لغرائز الانسان الهمجية التي لا تزول منه زوالاً تاماً.

فتاريخ حكومة العهد وحكومة الديركتوار يدلنا على ما يؤول اليه أمر أمة نزع منها مزاجها القديم واصبحت لا دليل لها سوى امور صنعية صادرة عن عقل ضيق .

٢ — حكومة الديركتوار المستبدة — احياء الهول الاكبر

عزم المديرون على إعادة حروب الفتح التي خرجت منها فرنسا ظافرة في دور العهد لتحويل الانظار وإلهاء الجيش ونهب الاموال من البلدان المجاورة فاستغرقت هذه الحروب جميع ايامهم ورجعت الجيوش ظافرة منها — ولاسيما من ايطاليا — ذات مغانم كثيرة .

وقد ظهر بعض سكان البلاد المفتوحة بمظهر الساذج البسيط فظنوا ان فرنسا ما قامت بهذه الفتوحات الا في سبيل مصلحتهم ولكنهم لم يلبثوا ان رأوا ان الفتح اعقبته ضرائب فادحة ونهب للكنائس وسلب لبيوت المال الخ . وهذه السياسة أدت الى تحالف

دولي جديد استمر حتى عام ١٨٠١ ضد فرنسا .

صرف المديرون الذين لم يبالوا بأمر البلاد ولم يكونوا اهلا لتنظيمها قلوبهم الى مكافحة المؤامرات حرصاً على بقاء السلطة في ايديهم وقد استوعب هذا الامر جميع اوقاتهم لمثابرة الاحزاب على سيرها فاشتدت الفوضى وصار الناس يتطلبون يداً قوية قادرة على تثبيت اركان النظام وهكذا احست الامة ومنها المديرون انفسهم ان النظام الجمهوري قد قرب اجله .

رأى بعض الناس إعادة الملكية و بعض آخر نظام الهول وآخرون تفويض الامر الى قائد ولم يخش تبديل النظام سوى مقتني الاموال الوطنية .

اخذ استياء الشعب من حكومة الدير كتوار يزداد كل يوم ولما جدد انتخاب ثلث المجلس النيابي في شهر مارس عام ١٧٩٧ كان اكثر المنتخبين من المعارضين لها ، واقلق ذلك المديرين فابطلوا انتخابات تسعة واربعين مديرية وطردوا من النواب الجدد بعد نقض انتخابهم ١٥٤ نائباً وحكموا على ٥٣ بالنفي و يوجد بين هؤلاء المنفيين اشهر رجال الثورة الفرنساوية كبور طاليس وكارنو وترونسون و كودراي الخ .

وقد حكمت بعض المجالس الحربية — من غير روية — على مئة

وستين رجلاً بالاعدام ونفت ٣٣٠ رجلا الى (الكويان) فمات نصفهم في وقت قصير ولم تلبث ان طردت المهاجرين والكهنة الذين عادوا الى فرنسا . ولم يكتف المديرون بهذا العمل الاستبدادي الذي دهش له المعتدلون بل، أتوا بعده بعمل آخر غير انهم لما رأوا ازدياد عدد نواب اليعاقبة بعد الانتخابات الجديدة فسخوا انتخاب ستين عضواً يعقوبياً .

يدلنا ما تقدم على مزاج اعضاء حكومة الدير كتوار الاستبدادي و يظهر هذا المزاج بأجلى من ذلك عند الاطلاع على تفاصيل تدابيرهم :

لم يكن هؤلاء السادة يحبهم لسفك الدماء أدنى من وحوش دور الهول الاكبر فهم وان لم ينصبوا المقصلة نصباً مستمراً فقد استبدلوا بها نفياً قل ان يبقى من يكون عرضة له على قيد الحياة اذ كان المنفيون يساقون الى روشفور في اقفاص من حديد معرضين الى تقلبات الجو ثم يكدسون على السفن .

ولما علم المديرون بالنهضة الكاثوليكية وتخيلوا ان الكهنة يأتمرون بهم نفوا في عام واحد ١٠٤٤٨ قسيساً واعدموا منهم عدداً كبيراً رمياً بالرصاص وهكذا أحيوا دور الهول الاكبر .

وقد اصاب ظلم حكومة الدير كتوار جميع فروع الادارة ولا

سيما المالية ، فلما احتاجت هذه الحكومة الى ستمئة مليون حملت النواب على التصويت لضريبة متزايدة لم ترجع عليها الا باثنى عشر مليونا ثم أعادت الكرة فأمرت بعقد قرض اجباري قدره مئة مليون فنشأ عنه اغلاق المصانع وتوقف الاشغال وتسريح الاجراء ، ولم تنل بعد ان مس الناس الضر سوى اربعين مليونا ، ثم جعلت المجلس يصوت لقانون الرهان كي يتم لها به قهر الولايات ، ويأمر هذا القانون بتنظيم قائمة من الرجال ليكونوا مسؤلين في كل كورة عن مايقع فيها من الاجرام .

ولا يخفى على اللبيب ما ينشأ عن مثل ذلك النظام من الغيظ والاحقاد ففي عام ١٧٩٩ رفعت ١٤ مديرية راية العصيان واستعدت ٤٦ مديرية للتمرد ولو طال عمر حكومة الدير كتوار لانفرط عقد المجتمع الفرنساوي انفراطاً تاماً .

تدرجت فرنسا وقتئذ في الانحلال فتداعت اركان الادارة والمالية وصبحت واردات بيت المال — القائمة على اوراق مالية اضاعت تسعة وتسعين جزءاً من قيمتها الاسمية — تافهة وصار الضباط والدائنون لا يصلون الى حقوقهم .

كان منظر فرنسا عند السائحين في ذلك الحين منظر بلاد خربتها الحرب وهجرها سكانها وكان الجولان فيها متعذراً لكثرة

ما انهار من جسورها وسدودها وابنيتها واصبح الاشقياء يعيثون في سبلها المقفرة فصار اجتياب بعض المديريات لا يخلو من خطر الا باشتراك تذاكر السلامة من رؤسائهم ، وقد عمّ الخراب الصناعة والتجارة ايضا فاغلقت في ليون وحدها ابواب ١٣٠٠٠٠ مصنع من ١٥٠٠٠٠ مصنع واضحت ليل والهافر و بوردو ومارسيليا مدناً ميتة ولم يخل مكان من البؤس والجوع .

ولم يكن الفساد الاخلاقي بأقل من ذلك فكان حب النفائس والترف والولائم والزينة والرياش سمة لهذا المجتمع الجديد المركب من الفلاحين ومتعهدي الجيش والماليين الذي اغتنوا من النهب والسلب وقد خدع مظهر الترف والفرح الظاهري في باريس كثيراً من المؤرخين الباحثين عن ذلك الدور الذي سار فيه البؤس والبذخ معاً .

توضح لنا قصة الديركتوار قلة ما في صحائف التاريخ من الصحة وها هي دار التمثيل تحيي ذكرى ذلك العهد الذي لا يزال الناس يقلدون أزياءه لاعتقادهم بان الحياة رجعت فيه الى كل شيء بعد ان انتزعت في دور الهول . والواقع ان نظام الديركتوار لم يكن اسمى من نظام الهول فكلاهما أديا الى سفك الدماء وقد كان عاقبة امره ان ألقى في القلوب غيظاً ساق المديرين الذين شعروا

باستحالة بقائهم الى البحث عن سيد مطلق قادر على الحلول مكانهم وعلى حمايتهم .

٣ ـ ارتقاء بونابارت

ظهر مما تقدم ان أمر الفوضى والانحلال في آخر عهد الديركتوار استفحل حتى صار جميع الناس ينتظرون ظهور رجل قادر على إعادة النظام . وقد فكر منذ عام ١٧٩٥ كثير من النواب في اعادة الملكية . الا ان تصريح لويس الثامن عشر الاخرق الذي قال فيه بانه سيعيد النظام القديم برمته وسيرد الاملاك الى اصحابها السابقين وسيجازي انصار الثورة الفرنساوية حوّل الانظار عنه .

وبعد ان تعذر ارجاع الملكية بحث الناس عن قائد فوجدوا بونابارت ، اشتهر بونابارت في معارك ايطاليا فبعد ان جاز جبال الألب دخل ميلان والبندقية ظافراً وجمع غنائم عظيمة ثم زحف على فينا ولما اصبح على خمسة وعشرين فرسخاً منها دعاه امبراطور النمسا الى الصلح .

لم يكتف هذا القائد الشاب بما نال من شهرة فطمع في زيادتها فاقنع حكومة الديركتوار بان الاستيلاء على مصر يثلم شوكة انكلترا ثم البحر في شهر مايس عام ١٧٩٨ من طولون . لم تطل اقامة بونابرت في مصر إذ رجع منها لما استدعاه اصدقاؤه وقد عم الابتهاج جميع

فرنسا عند ما علم الناس بعودته .

ساعدته فرنسا على المؤامرة التي دبرها (سيايس) ومديرين وبعض الوزراء لاسقاط المجلس النيابي وأنجزت من غير عناء وقد فرحت جميع الاحزاب فرحا شديداً لتخلصها من ربقة العصابات المشئومة التي قهرت البلاد منذ زمن بعيد ، نعم عانى ابناء فرنسا بعد ذلك نظاماً استبداديا ولكنه ليس كالسابق شديد الوطأة .

يؤيد تاريخ اسقاط المجلس النيابي المذكور ما قلناه عن صعوبة الاءتيان باحكام صحيحة في الحوادث المعلومة التي عاين وقوعها كثير من الشهود . كان الناس قبل ثلاثين سنة ينظرون الى ذلك الاسقاط كجناية أدى الى اقترافها طمع رجل معتضد بالجيش ، والواقع ان الزمرة التي طردت من عاند من النواب لم تكن من الجند بل من حرس المجلس وانما الحكومة المستعينة بفرنسا هي التي فعلته .

٤ - علل دوام الثورة الفرنساوية

لو اقتصر دوام الثورة الفرنساوية على الوقت اللازم لنيل ما سعت اليه من المبادئ كالمساواة أمام القانون والسلطة الشعبية ومراقبة النفقات لما تجاوز بضعة اشهر ، لان جميع ذلك نيل عام ١٧٨٩ ولم يضف اليه مبدأ آخر ، والحق ان تلك الثورة استمرت طويلاً فاذا اكتفينا بالمدة التي عينها المؤرخون الرسميون نرى انها دامت

حتى يوم ارتقاء بونابرت اي ما يقرب من عشر سنين .

ولماذا بقي دور الهرج والاضطهاد اكثر من الزمن الضروري لاقامة المبادىء الجديدة ؟ ينبغي ان لا يبحث عن ذلك في الحروب مع الدول الاجنبية لان هذه الحروب كانت تنتهي بسرعة لانقسام الحلفاء وانتصار فرنسا عليها كما انه ينبغي ألا يبحث عنها في محبة ابناء فرنسا للحكومة الثورية إذ لم يوجد نظام مقته الناس وأبغضوه مثل نظام المجالس ، وقد اعرب فريق كبير من الامة عن سخطه عليه بما قام به من العصيان وبما أتى به من التصويت المكرر ضده ،

اوضح المتأخرون من المؤرخين كراهة فرنسا للنظام الثوري بعد ان ظل امرها مجهولا زمناً طويلا ولخصت آراؤهم في العبارة الآتية التي نقتطفها من مؤلف جديد للموسيو مادلان بحث فيه عن الثورة الفرنساوية :

«قبض على زمام فرنسا والثورة والجمهورية فئة قليلة العدد فصارت ثلاثة ارباع البلاد تتمنى ان تنتهي الثورة او ان تتقذ من ايدي هذه الفئة المكروهة ، إلا أنها ظلت على رأس الامة التعيسة بما تذرعت به من ألوف الحيل والوسائل . ولما صار بقاؤها حاكمة لا يتم الا بالارهاب أخذت تقضي على من تظن انه مخالف لها ولو كان من اشد خدمة الثورة الفرنساوية اخلاصاً » .

ان اليعاقبة هم الذين قاموا بامور الحكم حتى آخر عهد حكومة الديرا كتوار وقد كانت غايتهم الوحيدة حينئذ ان يحافظوا — مع

السلطة — على ما جمعوه من المال بما فعلوه من النهب وسفك الدماء والذي جعلهم يفاوضون نابليون على اسقاط المجلس النيابي هو إقراره لهم على تلك المنية التي لم يعترف لهم بها لويس الثامن عشر .

ولكن كيف استطاعت حكومة شديدة الاستبداد ثقيلة الوطأة مثل تلك الحكومة ان تبقى اعواماً كثيرة ؟ لم يتم هذا البقاء بتأثير الديانة الثورية في النفوس والزام الناس بذلك الحكم ظلماً وعدوانا فقط بل — كما بينت سابقاً — لما في استمرار الحكم المذكور من انتفاع جزء غير يسير من الشعب . وهذا رأي اساسي اذ لو بقيت الثورة الفرنساوية ديانة نظرية لما دامت طويلاً على ما يحتمل ، لم تلبث هذه الديانة ان خرجت من طورها النظري المطلق فبعد أن جردت تلك الثورة الملك والاشراف والاكليروس عن سلطتهم منحت ابناء الطبقة الوسطى وكثيراً من الفلاحين ما كانت الطبقات الممتازة السابقة مستولية عليه من الوظائف والاموال وجعلتهم بذلك من اعظم انصارها . ولما نال جميع من حصلوا على اموال الاشراف والاكليروس اطياناً وقصوراً بابخس الاثمان صاروا يخشون انتزاعها منهم اذا اعيدت الملكية .

لهذه الاسباب استطاعت تلك الحكومة ان تبقى حتى ظهور قائد قادر على ارجاع النظام وعدها باقرار ما نشأ عن الثورة الفرنساوية

من المكاسب الادبية والمادية .

استقبل بونابرت الذي حقق هذه الاماني بحماسة وقد ادخل تلك المكاسب المادية والادبية في قوانين وانظيم ، ولذلك فان من الخطأ ان يقال بان الثورة الفرنساوية انتهت بارتقائه فهو لم يقض عليها بل ثبت امرها .

الفصل الثاني

اعادة النظام ـ الجمهورية القنصلية

١ ـ كيف ثبتت القنصلية أمر الثورة الفرنساوية

ان تاريخ القنصلية حافل بالوثائق النفسية إذ يثبت لنا اولاً كيف ان عمل الفرد القوي افضل من عمل الجموع . فقد احل بونابرت النظام على الفور مكان الفوضى الدامية التي سادت على الجمهورية منذ عشر سنين وأتم وحده في وقت قصير ما لم تستطع انجازه مجالس الثورة الفرنساوية الاربعة رغم ما أتت به من الاستبداد والاضطهاد .

لم يلبث بونابرت ان قضى بعزمه على جميع الهوشات الباريزية وعلى كل تدبير يرمي الى إعادة الملكية فأرجع الى فرنسا التي فرقتها الاحقاد والضغائن وحدتها الادبية ، أقام استبداداً فردياً منظماً مقام استبداد الجماعات المشوش فربح الكل من ذلك لان بغيه اخف وطأة من البغي السابق وما استوجبه من العطف في قلوب الناس دليل واضح على قلة شدته .

ولانجاري المؤرخين السابقين في القول بان بونابرت قوض اركان الجمهورية فقد ابقى منها ما يمكن حفظه وثبت في الانظمة والقوانين اهم المبادئ الثورية كالغاء الامتيازات والمساواة امام القانون الخ ، ثم ان الحكومة القنصلية كانت تسمي نفسها بالجمهورية .

ويحتمل انه لولا القنصلية لقامت مكان الديركتوار حكومة ملكية ومحت اكثر مبادئ الثورة الفرنساوية ، فلنفرض ان بونابرت لم يلعب دوراً تاريخياً فان مؤامرة ملكية تقلب حكومه الديركتوار التي يمقتها الناس لامحالة ويصعد على العرش لويس الثامن عشر ، نعم جلس هذا الملك عليه بعد ست عشرة سنة من هذا التاريخ ولكن نابليون قد منح في اثناء ذلك المبادىء الثورية — بادخالها في العوائد والقوانين — قوة عظيمة جعلت ذلك الملك العائد ان لايجرأ على مسها وعلى ارجاع اموال المهاجرين .

يكون الامر خلاف ذلك لو قبض لويس الثامن عشر على زمام الدولة بعد الدير كتوار حالا اذ كان يعيد معه استبداد العهد السابق ويجعل الناس يقومون بثورات جديدة للقضاء عليه، وما اسقاط شارل العاشر لسعيه في الرجوع الى النظام السابق بأمر مجهول .

ومن البساطة ان يغضب المرء على استبداد بونابارت فقد تحمل الناس أنواع الاستبداد في العهد السابق ووضعت الحكومة الجمهورية على رقابهم نيراً استبدادياً اشد واقسى، وليس الاستبداد وقتئذ سوى أمر اعتيادي لا يحتجون عليه الا اذا قام مع الفوضى اذ يحثون حينئذ عن سيد قادر على اخمادها وقد كان بونابارت ذلك السيد .

٢ ــ تنظيم فرنسا في العهد القنصلي

اخذ بونابارت على عاتقه عبئاً ثقيلاً بتقلده امور الدولة لأن كل شيء كان محتاجاً الى الاصلاح والتجديد، فبعد أن اسقط المجلس النيابي سنّ في شهر واحد دستوراً مخولا اياه سلطة كافية لينظم بها البلاد والوظائف . ظل هذا الدستور ــ المسمى بدستور السنة الثامنة ــ معمولا به حتى آخر ايام نابليون وقد نص على وجود سلطة تنفيذية يقوم بأمورها ثلاثة قناصل على ان يكون رأي اثنين منهم استشارياً ورأي القنصل الاول ــ اي بونابارت ــ نافذاً، سوّغ الدستور بونابارت حق نصب الوزراء واعضاء مجلس الشورى والسفراء والقضاة

والموظفين والبت في أمر الحرب والسلم وأناط به السلطة التشريعية لحصره في يده أمر اقتراح القوانين امام المجالس الثلاثة اي مجلس الشورى ومجلس (التريبونا) والمجلس التشريعي ولم يمنح مجلس الشيوخ سوى واجب المحافظة على الدستور .

كان بونابارت رغم استبداده يستشير قبل ان يجزم في الامر ولا يوقع على مرسوم قبل ان يباحث مجلس الشورى ـ الذي هو رئيسه ـ فيه وكان هذا المجلس المركب من العلماء يهيئ القوانين ثم يعرضها على المجلس التشريعي ليبدي رأيه فيها بحرية تامة ، وثق نابليون بهذا المجلس وثوقاً تاما لاشتماله على فقهاء افاضل لا ينطقون بشيء الا عن علم ، غير انه كان سيء الظن بالمجالس الشعبية الكبيرة التي ظهرت عيوبها المشئومة في جميع ايام الثورة الفرنساوية .

أراد بونابارت ان يحكم الامة من غير ان يستمد معونة منها ولذلك لم يجعل لها نصيباً في الحكم اللهم الا مرة واحدة عرض فيها الدستور الجديد ليستفتيها فيه وما رجع الى التصويت العام الا في ظروف نادرة ولم يكن اعضاء المجلس التشريعي نواباً عن الامة لانتخابهم انفسهم مباشرة .

وعند ما سن القنصل الاول الدستور الذي عزز فيه مركزه لم يتخيل انه سينفع في تجديد البلاد وكان اثناء وضعه كادحا من جهة

اخرى في تنظيم امور الادارة والمالية والقضاء فربط جميع سلطات الدولة بباريس ثم جعل على رأس كل ولاية واليا ومجلساً عاماً مساعداً لهذا الوالي وعلى رأس كل لواء متصرفاً ومجلساً اداريا مساعداً لهذا المتصرف وعلى رأس كل كورة رئيسا ومجلسا بلديا اداريا مساعداً لهذا الرئيس ، وجعل امر تعيين الجميع حقا من حقوق وزرائه لا من حقوق الشعب كما في الدور الجمهوري .

سارت جميع النظامات على هذا العمل المركزي الذي لا يزال باقيا حتى الآن لأن المركزية ـ رغم محاذيرها البينة ـ هي الطريقة الوحيدة التي يجتنب بها الاستبداد المحلي في بلاد منقسمة كفرنسا، وقد أوجب ذلك التنظيم الصادر عن اطلاع تام على النفسية الفرنساوية راحة وطمأنينة لم يكن للبلاد عهد بهما منذ زمن طويل .

الغيت احكام الاعدام وأعيدت الكنائس للمؤمنين تهدئة للخواطر ثم شرع بونابارت في وضع قانون مدني مستعارا اكثره من عادات العهد السابق ، فوفق فيه ـ كما قيل ـ بين الشرع الحديث والشرع القديم .

وما اتى به الفصل الاول من العمل الجليل في وقت تصير يدلنا على سرعته في بادئ الامر الى وضع دستور مخول اياه سلطانا مطلقا ، ولو عهد بانجاز ما اصلح به بونابارت فرنسا من الاعمال الى

مجالس مؤلفة من المحامين لما تخلصت من الفوضى .

لا شك في ان دستور السنة الثامنة حول الجمهورية الفرنساوية الى ملكية مطلقة ولكن بما ان الملكية وحدها هي الملائمة لمقتضيات ذلك الزمان فقد دلت على احتياج الناس اليها احتياجاً نفسيا .

٣ – في العوامل النفسية التي أوجبت نجاح القنصلية

لا تلبث العوامل الخارجية المؤثرة على الانسان كالعوامل الاقتصادية والتاريخية والجغرافية ان تتحول الى عوامل نفسية . ومن يرد أن يحكم فعليه ان يعلم بها وقد جهلتها جميع المجالس الثورية واطلع عليها بونابارت .

كانت المجالس – ولا سيما مجلس العهد – مركبة من احزاب متطاحنة فأدرك نابليون ان تغلبه عليها يتطلب ان لا ينتسب الى احد منها . ولما ايقن ان قيمة الامة بما في احزابها من ارباب العقول السامية سعى في الانتفاع بجميعها فعين الوزراء والولاة والقضاة من حزب الاحرار والحزب الملكي والحزب اليعقوبي ناظراً – بدون محاباة – الى كفائتهم وحدها .

ومع انه لم يرفض مساعدة رجال الدور السابق فانه كان يود ان يعزب عن ميله الى المحافظة على مبادئ الثورة الفرنساوية . وهذا لم يمنع الملكيين من الانضمام الى النظام الجديد .

ونعد من الجهة النفسية ان اعادة السلم الديني من اهم الاعمال القنصلية ، إذ كان انقسام فرنسا لاختلافها الديني اشد من انقسامها لاختلافها السياسي ، نعم قضي على انشقاق مقاطعة (فانده) بتخريب جزء منها ولكن ذلك لم يخمد ثوران النفوس ، ولما احس بونابارت بأن امر تهدئتها بيد البابا لم يتأخر ساعة عن مفاوضته ، حقاً ان المعاهدة التي عقدها معه لعمل نفسي عظيم لان القوى الادبية لا تقاتل بالعنف وتؤدي مكافحتها الى اخطار كبيرة وقد علم نابليون بمداراته الكهنة كيف يملكهم وهو بجعله امر تعيينهم وعزلهم من حقوقه بقي سيدهم .

للميثاق البابوي الذي جاء به نابليون مقصد خفي على يعاقبة الوقت الحاضر ، وقد اوجب إعماء التعصب بصائرهم عدم ادراكهم ان فصل الكنيسة عن الحكومة مؤدٍ الى تكوين دولة ضمن دولة وانهم سيرون انفسهم إزاء طائفة رهيبة يديرها قائد مقيم خارج فرنسا وعدولها حتما . ان منح الاعداء حرية لا عهد لهم بمثلها لأمر عظيم الخطر ولذلك لم يرض نابليون ولا ملوك الكاثوليك الذين ظهروا قبله بان يفصلوا الاكليروس عن الحكومة كما وقع في الايام الاخيرة .

وما لقيه بونابارت من المصاعب وهو قنصل اول أشد مما لقيه بعد تتويجه وقد ذللها بمعرفته الرجال معرفة تامة ، كان عليه ان يعمل

كثيراً قبل ان ينال التاج إذ بقي عدد غير يسير من المديريات مستمراً على الفتنة وظل الاشقياء مثابرين على قطع الطرق وخربت حرب العصابات البلاد الجنوبية وكان عليه ان يداري تاليران وفوشيه وقواداً آخرين يحسبون انفسهم من امثاله، سوى نابليون هذه العقبات قبل جلوسه على العرش فصار امبراطوراً ولم يرَ في البلاد احزاباً أمامه وان كانت كثيرة ايام قنصليته وكان عليه ان يوازن بينها .

قام بأعمال شاقة لم تأت بمثلها سوى حكومات قليلة منذ قرن ولا يتم النجاح بمثلها الا بكياسة وعزم وسياسة، فلما شعر بونابارت بأنه ليس ذا قدرة كافية سار على القاعدة القائلة بحكم الناس كما تريد الاكثرية ولكنه عندما صار امبراطوراً اخذ يحكمهم على هواه.

تقادم العهد الذي سخط فيه المؤرخون العمي والشعراء على اسقاط المجلس النيابي وقد بينا ان الحكومة لم تأتمر به وحدها بل ائتمرت به فرنسا التي حررها ذلك الاسقاط من الفوضى وهنا نتساءل لماذا أتى اذكياء العلماء باحكام غير صحيحة في دور تاريخي واضح مثل الدور المذكور؟ لا ريب في ان علة ذلك هو نظرهم الى الحوادث من خلال عقائدهم، وبما ان الحقيقة تتبدل في نفوس المعتقدين فان اكثر الامور وضوحاً تغيب عنهم ولا يكون تاريخ الحوادث عندهم سوى ما يمليه الخيال عليهم .

واذا اراد العالم النفسي ان يطلع على سر ذلك الدور الذي وصفناه بايجاز فانه لا نستطيع ذلك الا إذا طرح التخرب جانباً وتحرر من قيود العواطف الحزبية .هنالك لا يرمي بسهام اللوم ماضياً نشأ عن مقتضيات الزمن المهيمنة ، وهذا لا يمنعنا من القول بان نابليون كلف فرنسا ثمناً غالياً لانتهاء قصته بغارتين اغارهما الاجنبي عليها . ولغارة ثالثة اوجبها صعود وارث اسمه على العرش ولا نزال نقاسي شدتها.

ان لتلك الحوادث ارتباطا بمصادرها وهي تدل على ما ينشأ عن تبديل مثل الامة الاعلى من النتائج فالانسان لا يقدر عن الانسلاخ بغتة من ماضيه الا بتخريب مجرى تاريخه تخريباً تاما.

الفصل الثالث

فيما نشأ عن تصادم التقاليد والمبادي الثورية في عصر واحد من النتائج السياسية

١ - في الاسباب النفسية التي أدت الى استمرار الحركات الثورية في فرنسا

سنرى في البحث الآتي عن تطور المبادئ الثورية منذ عصرانها انتشرت بين طبقات الامة مقداراً فمقداراً في مدة خمسين سنة . رفضتها اكثرية الشعب والطبقة الوسطى طول هذه المدة ولم يقم

بامر اذاعتها غير عدد قليل من الدعاة . الا ان مالها من نفوذ وما فعلته الحكومات من الاغلاط كفى في إيقاد ثورات كثيرة سوف نلخصها بعد ان نبحث عن عللها النفسية .

يثبت تاريخ ما وقع منذ قرن من الانقلابات السياسية ان الناس محكومون بنفسيتهم اكثر من الانظمة التي يلزمون بها فالثورات الكثيرة التي حدثت في فرنسا هي نتيجة نزاع بين حزبي الامة ذوي النفسيتين المتباينتين اللتين احديهما دينية ملكية قائمة على تأثير إرثي والثانية ذات صبغة ثورية تابعة لهذا التأثير ايضا . ظهر النزاع منذ بداية الثورة الفرنساوية بين تلكما النفسيتين المتباينتين ظهوراً واضحاً واستمرت الفتن والمؤامرات حتى نهاية دور الدير كتوار رغم ما اتى به من الاضطهاد كما بينا سابقا فقامت ستون مديرية في وجه النظام الجديد ولم تخمد جذوتها الا بمذابح هائلة مكررة .

ان التوفيق بين النظام السابق والمبادئ الجديدة هو اشد ما عانى بونابارت حله من المشاكل إذ كان يبحث عن انظمة ملائمة للنفسيتين الفاصلتين لفرنسا ، وقد نجح بذلك لالتزامه جانب التوفيق ولتسميته اموراً قديمة باسماء جديدة .

و يعد دور نابليون من ادوارنا التاريخية النادرة التي كملت فيها وحدة فرنسا النفسية . ولكن هذه الوحدة لم تستمر بعد سقوطه إذ

الاحزاب السابقة لم تلبث ان ظهرت ثانيه ولا تزال باقية حتى اليوم وبعضها متمسك باهداب التقاليد والبعض الآخر رافض لها .

ولو وقع ذلك الصراع بين معتقدين واخلياً لما دام طويلاً لتسامح الاخلياء ولكن حدوثه بين معتقدات متباينة اوجب استمراره فالكنيسة الزمنية لم تلبث ان لبست ثوباً دينياً واصبح مذهبها العقلي نوعاً من الكهنوتية الضيقة وقد حققنا ان التوفيق بين المعتقدات الدينية المتباينة امر مستحيل فلم يظهر الكهنة يوم كان الحكم بيدهم بمظهر المتسامح مع الاحرار كما ان هؤلاء لم يبدوا اقل تساهل مع اولئك بعد ان قبضوا على زمام الامور .

ويضاف الى تلك التقسيمات القائمة على ما بين المعتقدات من الفروق تقسيمات اخرى قائمة على مبادئ سياسية مشتقة من المعتقدات المذكورة .

ظن كثير من ارباب النفوس البسيطة ان السنة الاولى للجمهورية هي مبدأ تاريخ فرنسا الحديثة غير ان هذا الفكر الصبياني اخذ يتضاءل في هذه الايام فاشد الثوريين تمسكاً يعدلون عنه [1] معترفين بان تأثير الماضي هو خلاف تأثير ذلك الدور البربري القائم الذي استحوذت عليه الاباطيل

---

(١) يمكن الاستدلال على تطور الافكار الجديد في هذه المسئلة من العبارة

وقد سهل تباغض المعتقدين في كل حزب قلب الحكومات والوزارات عندنا ، ولا تأبى احزابنا التي تبقى اقلية في المجلس النيابي ان تتحالف ضد الحزب الغالب ، فمن الامور المعلومة ان عدداً كبيراً من الاشتراكيين الثوريين في مجلس نوابنا الحاضر لم ينتخبوا الا بمعونة الملكيين الذين ليسوا بأوسع حيلة من الملكيين ايام الثورة الفرنساوية الكبرى .

ولم تكن اختلافاتنا الدينية والسياسية وحدها سبب ما هو واقع في فرنسا من الشقاق بل يوجد سبب آخر وهو اتصاف رجالها بنفسية خاصة سميناها بالنفسية الثورية في فصل سابق حيث بينا انه يظهر في كل دور رجال مستعدون للقيام في وجه اي نظام واقع ولو كان محققاً لآمالهم .

ويزيد ما عند احزاب فرنسا من عدم التسامح ومن الشوق الى القبض على زمام الحكم اعتقادها السائد بينها منذ الثورة الكبرى بان القوانين تحدد المجتمعات ، فالجموع تنظر مع زعمائها في الوقت الحاضر الى الحكومة — ايا كان رئيسها — ذات قدرة لاهوتية مثل

الآتية التي اقتطفناها من خطاب القاه المسيو جوريس في مجلس النواب : « ان عظمة الحاضر هي نتيجة مجهودات عصور الماضي وليست فرنسا الحديثة بنت يوم او دور بل بنت ايام وأدوار وغدو وعشي »

القدرة التي تقمصها الملوك في العهد السابق ، ولم يكن الشعب وحده واثقاً بما عند الحكومة من السلطان العظيم بل يوجد عند مشرعينا نظير تلك الثقة .

لم يفقه رجال السياسة عندنا بعد ان الانظمة معلولات لا علل وانه لا قوة في ذاتها فانهم لما كانوا وارثين لذلك الوهم الثوري الكبير لا يرون ان الانسان هو ابن ماض لا تقدر على تجديد قواعده ابداً .

لا ريب في ان الصراع الواقع بين المبادئ التي فرقت فرنسا منذ عصر سيستمر ولا يقدر احد على كشف ما قد يولده من الانقلابات ، نعم لو علم اهل أثينا قبل الميلاد بان افتراقهم سيؤدي الى استعباد بلاد اليونان لما أتوا به ولكن انى لهم كشف ذلك ؟ قال المسيو غيرو : J. Guiraud

« قلما يبالي جيل بما يعمل وهو وان كان يهيئ المستقبل بعمله فان المستقبل لا يكون في الغالب الا خلاف ما يريد » .

٢ — خلاصة الحركات الثورية التي وقعت في فرنسا منذ عصر

اوضحنا ما للحركات الثورية التي وقعت في فرنسا منذ عصر من العلل النفسية والآن نلخص تاريخ تلك الثورات :

لما قهر الملوك نابليون ارجعوا فرنسا الى حدودها السابقة واجلسوا لويس الثامن عشر على العرش فنشر هذا الملك الجديد مرسوماً قال فيه بانه يرضى ان يكون ملكاً دستورياً وان يكون نظام البلاد نيابياً، ثم اعترف بجميع ما ولدته الثورة الفرنساوية من قانون مدني ومساواة أمام القانون وحرية للعبادة وعدم استرداد للاموال الوطنية الخ الا انه حصر حق التصويت بمن يدفع ضريبة معينة.

ناهض الملكيون المتطرفون في المجلس هذا الدستور الحر فارادوا إعادة الاموال الوطنية والامتيازات السابقة. ولكن لما شعر لويس الثامن عشر بان تنفيذ هذا العمل الرجعي يشعل ثورة جديدة اكتفى بفض المجلس النيابي ثم أدت الانتخابات الجديدة الى تعيين نواب معتدلين فاستطاع الملك ان يثابر على الحكم بتلك المبادئ عالما ان ارجاع سكان فرنسا الى قواعد العهد السابق يدفعهم الى العصيان.

ومن دواعي الاسف ان تبوأ العرش بعد وفاته عام ١٨٢٤ شارل العاشر. ولما كان هذا الملك محدود العقل عاجزاً عن إدراك ما طرأ على العالم من التبدل مفتخراً بعدم تغيير افكاره منذ سنة ١٧٨٩ فانه أعد سلسلة من القوانين الرجعية كتعويض المهاجرين بمليار واعادة حق البكرية وامتياز الاكليروس الخ. عارضت اكثرية النواب ذلك فوضع الملك عام ١٨٣٠ مراسيم حل فيها مجلس النواب وألغى

حرية الصحافة وهي، أمر الرجوع الى نظام العهد السابق فأوجب هذا العمل الاستبدادي تحالف رؤساء جميع الاحزاب فاتفق الجمهوريون والبونابارتيون واحرار الملكيين على ايقاد نار الفتنة في باريس ولم تمض اربعة ايام على نشر تلك المراسيم حتى استولى العصاة على العاصمة وفرّ شارل العاشر نحو انكلترا، ثم دعى زعماء الفتنة - كتيار وقازيمير بيريه ولافايت - لويس فليب الذي لا عام للشعب بوجوده الى باريس ونادوا به ملكا للفرنساويين .

استند هذا الملك في توطيد دعائم ملكه الى الطبقة الوسطى فوضع قانونا خفض فيه عدد المنتخبين الى مئتي الف وهذا ما اوجب انتخاب نواب من تلك الطبقة موالين للحكومة الجديدة .

وُجد لويس فليب في موقف حرج إذ كان عليه ان يقاوم في آن واحد انصار هنرى الخامس حفيد شارل العاشر والبونابارتيين الذين اعترفوا بلويس نابليون رئيسا عليهم والجمهوريين، وقد احدث هؤلاء (من عام ١٨٣٠ حتى ١٨٤٠) بما لهم من الجمعيات الخفية المشابهة لأندية الثورة الفرنساوية فتنا كثيرة وان سهل قمع جميعها . ولم ينصرف انصار هنري الخامس والكهنة عن دسائسهم فحاولت امه ايقاد نار الثورة في مقاطعة (فانده) ولكنها لم تنجح بذلك وصارت مطالب الاكليروس من التشدد بحيث نشأ عنها عصيان خربت في

اثنائه اسقفية باريس .

لم يكن الجمهوريون بحزب شديد الخطر لاتفاق المجلس النيابي مع الملك على مناهضتهم وقد صرح الوزير (كيزو) بانه يوجد شيئان لازمان للحكم وهما « العقل والمدفع » ولا شك ان شيئاً من الوهم تطرق لهذا السياسي الخطير حيث نسب الى العقل ما للمدفع من التأثير .

ولم يكف الجمهوريون ولا سيما الاشتراكيون رغم وجود تلك « الحكومة القوية » — التي لم تكن في الواقع من القوة على شيء — عن المشاغبة فقد سعى (لويس بلان) احد النافذين منهم لالزام الحكومة بايجاد عمل لجميع ابناء الوطن وعلى أثر ذلك انضم الحزب الكاثوليكي وعلى رأسه لاكوردير وموتالامبير الى الاشتراكيين لمقاتلة الحكومة . وقد أدت حملة الاصلاح الانتخابي عام ١٨٤٨ الى نشوب فتنة جديدة اسقطت لويس فيليب بغتة .

والعلل التي يبرر بها اسقاط هذا الملك اقل من علل اسقاط شارل العاشر كثيراً . نعم كان لويس فيليب سيء الظن بالتصويت العام ولكن حكومات الثورة الفرنساوية ايضاً اساءت الظن به مرات عديدة . وبما ان حكومة لويس فيليب ليست مطلقة كحكومة الديراكتوار فانها لا تقدم على نقض ما لا يروق في عينها من الانتخابات

لو تم امر التصويت العام.

قامت في دائرة البلدية حكومة موقتة لتدبر دفة الأمور مكان الملك المخلوع فنادت بالجمهورية وقررت التصويت العام وامرت ان يباشر الشعب انتخاب جمعية وطنية مركبة من تسع مئة عضو. صارت هذه الحكومة منذ البداية هدفاً لدعاية الاشتراكية ولهوشات عديدة فوقعت امور نفسية مثل التي حدثت ايام الثورة الكبرى اي تأسست أندية يسوق زعماؤها الشعب من وقت الى آخر على الجمعية الوطنية لاسباب يرفضها العقل الرشيد كما كراه الحكومة على معاضدة عصيان اشتعل في بولونيا.

وانشأت الجمعية المذكورة إرضاء للاشتراكيين الذين كانوا يقترحون كل يوم مقترحاً جديداً مصانع وطنية ليقوم فيها العمال باعمال متنوعة. ضمت هذه المصانع مئة الف عامل كانت الحكومة تنفق عليهم كل يوم مليوناً الا ان طلبهم ان يعطوا رواتب من دون ان يأتوا بشغل جعل تلك الجمعية تقرر اغلاق ما اسسته من المصانع

نشأ عن هذا القرار عصيان هائل فرفع خمسون الف عامل راية العصيان وبما ان الفزع استولى على الجمعية الوطنية فانها عهدت بالسلطة التنفيذية الى الجنرال (كافينياك) وقد أدت المعركة التي وقعت بين الحكومة والعصاة الى قتل ثلاثة قواد، وقتل مطران

رديس ثم أمرت الجمعية المذكورة بابعاد ثلاثة آلاف سجين الى بلاد الجزائر .

ولم يلبث الفلاحون الذين ظنوا بان خطر الاشتراكية والطبقة الوسطى محدق بهم ان اقلبوا على النظام الجمهوري ولكن لما وعدهم لويس نابليون باعادة النظام استقبلوه بحماسة وعند ما رشح نفسه لرآسة الجمهورية انتخب بخمسة ملايين ونصف مليون صوت .

وسرعان ما وقع الخلاف بين الجمعية الوطنية وبين الامير المذكور فاسقطها هذا الاخير وقبض على ثلاثين الف رجل ونفى عشرة آلاف رجل وطرد من البلاد مئة نائب . رضيت الامة بذلك الاسقاط إذ لما استفتيت فيه استحسنه سبعة ملايين ونصف مليون مصوت من بين ثمانية ملايين نسمة ثم صار امبراطوراً بأكثرية اكبر من تلك في ٢ كانون الاول عام ١٨٥٢ والسبب في اعادة النظام الامبراطوري هو مقت الناس في فرنسا للمشاغبين والاشتراكيين .

كان نظام الامبراطورية استبدادياً في العقد الاول فاصبح دستورياً في العقد الثاني وقد اسقطت ثورة ٤ ايلول سنة ١٨٧٠ ذلك الامبراطور على اثر تسليمه مدينة (سيدان) بعد ان حكم ثمانية عشر عاماً .

وندر بعد هذا التاريخ وقوع فتن ثورية ونعد أهم فتنة اشتعلت

منذ ذلك الحين فتنة شهر مارس سنة ١٨٧١ التي نشأ عنها حرق قسم من مباني باريس الفخمة وقتل عشرين الف شخص .

ولم يعلم المنتخبون بعد ما نال البلاد من المصائب الكثيرة في حرب ١٨٧٠ شطر من بولون وجهتهم فارساوا الى المجلس التأسيسي نوابا اكثرهم من البوربونيين والاورليانيين . ولما لم يتفق هؤلاء النواب على ارجاع النظام الملكي انتخبوا (تيار) رئيسا للجمهورية ثم اقاموا مكانه المرشال (مكماهون) وقد جددت الانتخابات عام ١٨٧٦ فاز الجمهوريون الاكثرية كما حازوها في جميع الانتخابات المقبلة .

تجزأت مجالسنا النيابية بعد التاريخ المذكور الى احزاب كثيرة فأوجب ذلك سقوط وزارات عديدة . على ان ما وقع بين تلك الاحزاب من الموازنة متع البلاد بسكينة نسبية ولم ينشأ عن اسقاط اربعه رؤساء للجمهورية اشتعال ثورة اوهوشة ، نعم ان الفتنة الشعبية التي حدثت عام ١٨٨٨ اوشكت ان تقضي على النظام الجمهوري كي يقبض الجنرال (بولانجيه) على زمام الحكم ولكن مقاومة هذا النظام أدى الى تغلبه على جميع الاحزاب المخالفة .

يوجد لبقاء النظام الجمهوري الحاضر في فرنسا اسباب عديدة اولها : كون الاحزاب المتطاحنة ليست من القوة بحيث يستطيع واحد

منها ان يسحق الآخرين . ثانيها انه لما كان رئيس الدولة صورة لا سلطة بيدها فانه لا يمكن ان نعزو السيآت التي نقاسي نتائجها اليه وان ندعي بان الامور تتبدل باسقاطه . ثالثها انه لما توزعت السلطة بين الوف من الموظفين وتجزأت التبعة فان من الصعب كشف من يجب لومه . لربما يمكن اسقاط مستبد ولكن كيف يتسنى اسقاط الوف من المستبدين الخافين ؟

يمكن تلخيص ما اوجبته الفتن والثورات من التحولات في فرنسا بالكلمة الآتية وهي : انها اقامت مكان الاستبداد الفردي الذي يسهل القضاء عليه استبداداً جموعياً قوياً يصعب تقويضه .

ويظهر لنا ان الامم الطامعة بالمساواة والمعتادة ان تؤآخذ حكوماتها على جميع الحوادث لا تطيق الاستبداد الفردي وانما تحمل استبداد الجموع وان كان اشد واقسى .

وبما ان جميع ثوراتنا لم تؤد الا الى قيام استبداد جموعي وتقويته فانه يمكن اعتبار هذا الاستبداد مثل العرق اللاتيني الاعلى . حقاً انه نظام الامم اللاتينية الصحيح وهو الذي وقع عليه الاجماع وما الجمهورية والملكية والامبراطورية الا عناوين باطلة واشباح ماثلة .

الجـــزء الثـــالث

تطور المبادىء الثورية في الوقت الحاضر

الفصل الاول

تقدم العقائد الدموقراطية منذ الثورة الفرنساوية

١ - انتشار المبادىء الدموقراطية البطيء بعد الثورة الفرنساوية

تثابر المبادىء التي ساغتها النفوس على تأثيرها اجيالاً طويلة ، ولم تشذ المبادىء التي اعلنتها الثورة الفرنساوية عن هذا الناموس. كان دوام تلك الثورة كحكومة قصيراً جداً ولكن تأثير مبادئها طال كثيراً لان هذه المبادىء لما اصبحت معتقداً ذا صبغة دينية حولت وجهة مشاعر كثير من الاجيال وافكارهم تحويلا اساسيا .

استمرت الثورة المذكورة ولا تزال مستمرة برغم بضع فترات وقعت ، اذ لم يقتصر تأثير نابليون على قلب العالم وتغيير خارطة اوروبا وتجديد اعمال الاسكندر فحسب بل كان لحقوق الشعوب الجديدة التي كونتها ثورتنا الكبرى وثبتها نابليون في انا ظيم وقوانين تأثير عظيم في كل مكان ، ومع ان اعمال هذا الفاتح الحربية لم تلبث

ان اخفقت فان المبادىء الثورية التي أعان على انتشارها عاشت بعده .

وما وقع بعد الدور الامبراطوري من الحوادث التي ادت الى إقامة الملكية انسى الناس في بادىء الامر شيئاً من مبادىء الثورة الفرنساوية فقد رأينا ان انتشار هذه المبادىء كان بعد تلك الحوادث يقع على مهل حتى جاز لنا ان نقول بان الشعب اضاع ذكريها ولم تترك اثراً الا في نفوس عدد يسير من النظريين، وبما ان هؤلاء وارثون لنفسية اليعاقبة البسيطة معتقدون بان القوانين تجدد المجتمعات قانعون بان الامبراطورية قطعت عمل الثورة فانهم ارادوا استئناف هذا العمل .

اخذوا يذيعون مبادئهم بما يكتبونه حتى يتمكنوا من ذلك الاستئناف وقد نشأ عن تقليدهم رجال تلك الثورة عدم بحثهم عما اذا كانت خططهم الاصلاحية ملائمة لطبيعة البشر ام لا . وها هم اقاموا مثل اولئك الرجال مجتمعاً وهميا ظانين بان تطبيق احلامهم يجدد النوع الانساني .

والنظريون في كل جيل وان لم يقدروا على البناء فقد اثبتوا انهم على التخريب من القادرين . قال نابليون وهو في جزيرة القديسة هيلانة : .

(idéologues)

«لو وجدت ملكية من الصوان لاستطاع النظريون ان يحولوها الى غبار»

ونرى بين هؤلاء الخياليين — كسان سيمون وفورييه و بطرس ليرو ولويس بلان و كينيه — ان (اوغوست كونت)وحده هو الذي ادرك انه يجب ان يقع تطور الافكار والعادات قبل التنظيم السياسي .

لا تجد خطط النظريين الاصلاحية في الوقت الحاضر ذيوع المبادئ الدمواقراطية بل تعيق سيرها اذ ليس للشيوعية نتيجة سوى تخويف ارباب المال والطبقات العاملة ، وقد رأينا في الفصل السابق ان الخوف منها كان عاملاً اساسيا في إعادة النظام الامبراطوري .

ومع ان ما الفه كتاب النصف الاول من القرن التاسع عشر لا يستحق ان يجادل فيه فان من المفيد النظر اليه لاثباته ما للمبادئ الدينية والادبية المزدراة الآن من الشأن في ذلك الوقت ، فالمصلحون قد سعوا دائما في الاتيان بمعتقدات دينية ادبية لعلمهم ان المجتمع الجديد لا يقوم بدونها .

والى ماذا يستندون في تكوين تلك المعتقدات ؟ الى العقل ، إذ طالما يتم صنع الآلات المعقدة بالعقل فلم لا يستعينون به في ايجاد معتقدات دينية او اخلاقية ؟ لم يخطر على قلب احد منهم ان المعتقدات المذكورة لا تقوم على اساس عقلي ابداً حتى ان ذلك خفي على

(اوغوست كونت) ذاته . وقد اسس هذا الاخير ديناً وضعياً لم يعتنقه سوى بضعة اشخاص حتى الآن و يأمر هذا الدين بتعيين كهنة يديرهم حبر جديد غير الحبر الاعظم للمذهب الكاثوليكي .

لم ينشأ عن جميع هذه الافكار السياسية والدينية والاخلاقية غير تحويل وجهة الجموع عن المبادئ الدموقراطية. على ان المبادئ المذكورة آخذة في الانتشار السريع لا بتأثير النظريين بل بتأثير طرق الحياة الجديدة . فقد اوجبت مكتشفات العلم تقدم الصناعة وتأسيس مصانع عظيمة ولما تغلبت مقتضيات الاقتصاد على عزائم الحكومات والشعوب شيئاً فشيئاً فانها فسحت المجال لذيوع المذهب الاشتراكي ولاسيما المذهب النقابي اي اظهري الافكار الدموقراطية في الوقت الحاضر .

٢ - في ما لمبادىء الثورة الفرنساوية الثلاثة من النصيب المتفاوت

يمكن اجمال ميراث الثورة الفرنساوية بثلاثة الفاظ : الحرية والمساواة والاخاء وقد رأينا ان تأثير مبدأ المساواة كان عظيماً على خلاف تأثير المبدأين الآخرين .

ومع ان معنى هذه الالفاظ واضح فقد اختلف في فهمها حسب الظروف والاشخاص. ومن الامور المعلومة انه نشأ عن تفسير الناس

ذوي صلاحية مختلفة للالفاظ الواحد تفسيراً متبايناً حروب تاريخية كثيرة.

كانت كلمة الحرية عند رجال العهد تدل على حقهم بالاستبداد المطلق وتدل الآن عند الشاب المتعلم على تحرير النفس من كل احترام لما يضغط عليها من تقاليد وقوانين وأفضليات الخ. وتدل عند اليعاقبة في الوقت الحاضر على حقهم باضطهاد خصومهم.

يذكر الخطباء السياسيون كلمة الحرية من وقت الى آخر في خطبهم ولكنهم عدلوا عن ذكر كلمة الاخاء على الاطلاق إذ يدعون اليوم الى تطاحن الطبقات لا الى التوفيق بينها وما وجد حقد يفرق بين طبقات الامة واحزابها السياسية مثل الحقد الذي ينفثون سمومه وبينما يترعزع مبدأ الحرية ويتقلص ظل مبدأ الاخاء فانا نرى مبدأ المساواة ينمو وقد بقي هذا المبدأ رغم ما وقع في فرنسا من الانقلابات السياسية منذ قرن وبلغ من الاتساع مبلغاً صار به اساساً لحياتنا السياسية والاجتماعية وقوانينا وعاداتنا وتقاليدنا ولو من الجهة النظرية على القليل.

ان المبدأ المذكور لميراث الثورة الفرنساوية الصحيح وما الحاجة الى المساواة امام القانون وفي المناصب والأموال إلا مدار الاشتراكية اي طور الدموقراطية الاخير. وكلما تعمم هذه الحاجة يعظم

سلطانها وان خالفت سنن الحياة والاقتصاد، وهي صورة جديدة لما بين العقل والمشاعر من الصراع الذي قلما يخرج العقل منه ظافراً

٣ - دموقراطية الكتاب والدموقراطية الشعبية

يمكن رد جميع المبادئ التي قلبت العالم الى ناموسين: التطور البطيء والتكيف حسب اختلاف النفوس.

ويشبه المذهب ذوات الحياة فلا يعيش الا اذا تطور وبما ان الكتب لا تذكر هذه التطورات فان ما تقرره هو طور الماضي اي صورة الموت هي التي ترسم فيها لا صورة الحياة. ولا يدل ما تقصه احد المذاهب في الغالب إلا على ما هو مهمل.

لقد اثبت في كتاب آخر كيف تتحول النظامات واللغات والفنون عند ما تنتقل من أمة الى أخرى وبينت درجة اختلاف سنن هذه التحولات عن ما يرد في الكتب والذي يجعلني الآن اشير الى ذلك هو انني اريد أن اوضح علة عدم مبالاتي في البحث عن الدموقراطية بما يجيء في مذاهبها من النصوص وكوني اقتصر على التنقيب عن عناصرها النفسية وعن صداها عند طبقات الناس الذين يتمذهبون بها

يتطور المبدأ الاول بسرعة عند اولي النفسيات المختلفة ولا يلبث ان يصبح عنواناً لامور كثيرة التباين، وينطبق هذا الرأي على المعتقدات الدينية والسياسية فمتى يبحث عن الدموقراطية مثلا ينبغي

ان يحقق ما تدل عليه هذه الكلمة عند الامم المختلفة وان يفتش عما اذا كان يوجد في الامة الواحدة فرق بين دموقراطية الكتاب والدموقراطية الشعبية .

يسهل علينا عند وضعنا الملاحظة المذكورة محل الاعتبار ان نحقق ان ما يرد في الكتب والجرائد من الافكار الدموقراطية هو عبارة عن نظريات خالصة يضعها الكتاب ولا يعلم الشعب من امرها شيئاً ولا يفيده تطبيقها ، فاذا حاز العامل نظرياً حق اختراق الحواجز التي تفصله عن الطبقات القائدة بالمسابقات والفحوص فان امل وصوله الى ذلك عملياً ضعيف جداً .

وليس لدموقراطية الكتاب غاية سوى ايجاد صفوة من الناس تتكون منها طبقة الامة القائدة ، وليس عندي ما اقوله اذا صح تكوين هذه الصفوة إذ يصدق حينئذ عليها ما قاله نابليون من :

« ان سير الحكومة القويم يكون باستخدامها الارستوقراطية على شكل دموقراطي »

غير اننا نأسف لتأدية هذه الدموقراطية الى إقامة حقوق الهية مطلقة خاصة بجماعة مستبدة قصيرة النظر مكان ما للملوك من الحقوق الالهية فالحرية لا تكون بإحلال استبداد محل استبداد .

واما الدموقراطية الشعبية فلا ترمي كالسابقة الى صنع فريق

من القادة ولما تغلبت عليها روح المساواة وحب تحسين احوال العمال فانها ترفض مبدأ الاخاء ولا تبالي بالحرية وهي لا تخيل شكلاً آخر للحكومات غير الشكل الاستبدادي ويبدو لنا ذلك من هتافها لجميع الحكومات المستبدة التي ظهرت منذ نشوب الثورة الفرنساوية ومن الطريقة القهرية التي تسير عليها نقابات العمال .

و يظهر للعمال هذا الفرق العميق بين دمقراطيتهم ودموقراطية رجال الادب اكثر مما يظهر لهؤلاء ولا يوجد ما هو متماثل بين نفسية الطرفين ولذلك لا يتكلمان بلغة واحدة فيصرح المنتسبون الى النقابات بان الاتفاق لا يمكن ان يسود بينهم و بين الساسة وارباب المال .

حقاً ان الاتفاق بينهما لا يكون وهذا هو السبب في عدم ظهور مفكرين عظام يدافعون عن الدموقراطية الشعبية منذ زمان افلاطون حتى الآن . وقد وقع ذلك في نفس (إميل فاكيه) فقال:

« لم يكن المفكرون في القرن التاسع عشر دموقراطيين وقد اقتطي ذلك عندما وضعت كتابي المسمى بالساسة وعلماء الاخلاق في العصر التاسع عشر إذ كنت احب العثور على من هو دموقراطي لاستعين بما ألفه على البحث عن المذهب الدموقراطي » .

لا شك في ان هذا الكاتب العلامة كان يجد بين المشتغلين

بالسياسة كثيراً من الدموقراطيين لو اراد ذلك ولكن قلما يعد هؤلاء من المفكرين .

٤ — التفاوت الطبيعي والتسوية الدموقراطية

ان مشكلة التوفيق بين التسوية الدموقراطية والتفاوت الطبيعي لمن اشد مشاكل الوقت الحاضر صعوبة وليست امانى الدموقراطية بمجهولة لدينا فلنبحث عن جواب الطبيعة على هذه الاماني :

اصطدمت المبادئ الدموقراطية التي زعزعت العالم منذ عصور البطولة اليونانية حتى الآن بما نشأ عن الطبيعة من التفاوت والمؤلفون الذين قالوا مع (هلفيسيوس) بان التفاوت بين الناس صادر عن التربية قليلو العدد . لا تعرف الطبيعة المساواة وقد وزعت امور الدهاء والحسن والصحة والقوة والذكاء وكل صفة يفضل صاحبها على امثاله توزيعاً مختلفاً . وبما ان النظريات لا تقدر على تبديل هذا الاختلاف فان المذاهب الدموقراطية ستظل محصورة في مجال الالفاظ حتى اليوم الذي ترضى فيه نواميس الوراثة بتوحيد قابليات الناس .

وهل يجوز ان نفرض ان المجتمعات قد تستطيع بصفة صنعية ان تأتي بالتسوية التي رفضتها الطبيعة ؟ استمر بعض النظريين طويلاً على القول بأن التربية قادرة على احداث تسوية عامة ولكن

التجارب التي وقعت في اعوام عديدة اثبتت ضعف زعمهم

على انه يستحيل على الاشتراكية المنتصرة ان تقيم دعائم المساواة بان تقضي على جميع الفاضل الناس ولا يصعب استطلاع مصير امة اهلكت صفوتها في زمان تتقدم فيه الامم المجاورة لها بما عندها من خيرة الرجال .

وليس امر الطبيعة مقتصراً على عدم اقرارها بالمساواة بل انها اوجبت تقدم العالم بما أدت اليه من التفاوت المتزايد وهذا التفاوت هو الذي اوجد من خلايا الادوار الجيولوجية اناساً غيرت مكتشفاتهم وجه الارض .

ويشاهد مثل ذلك الحادث في المجتمعات فالاطوار الدموقراطية التي تصطفي الراقين من الطبقات الشعبية تؤدي في نهاية الامر الى ايجاد اريستوقراطية ذهنية مخالفة لما يحلم به النظريون القائلون بخفض جميع عناصر المجتمع الراقية الى مستوى عناصره الدنيا .

ويوجد بجانب السنن الطبيعية المعادية لنظريات المساواة طرق التقدم في الوقت الحاضر . فلما كان تقدم العلم والصناعة فيه يتطلب مجهودات ذهنية عظيمة فانه لا ينشأ عن ذلك غير ازدياد التفاوت النفسي واختلاف احوال المعايش .

والناس يشاهدون الآن الامر الآتي المؤثر وهو : كلما ودت

القوانين والنظامات ان تساوي بين الافراد فان تقدم الحضارة يؤول الى تفاوتهم على نسبة ذلك . كان الفرق الذهني بين الامير الاقطاعي والفلاح ضئيلاً في العهد السابق ولكنه اصبح عظيما بين العامل والمهندس في هذه الايام وهو آخذ في الازدياد .

صارت الكفاءة عاملا اساسياً للرقي فاربابها من كل طبقة يصعدون والعاطلون منها يقفون او ينزلون . وماذا تفعل القوانين بمقتضيات الزمن التي لا مفر منها ؟

ومن العبث ان يدعي فاقد والكفاءة بانهم اصحاب القوة لكثرة عددهم إذ لما حرم العمال من أدمغة عالية تفيدهم بما تجود به من الابحاث فان القضاء على اصحابها يوقعهم في الفاقة والفوضى .

ان ما لخيرة الناس من الشأن العظيم في المدنيات الحديثة واضح لا يحتاج الى اثبات ، فيوجد عند الامم المتمدنة والامم المتبربرة طبقة وسطى متماثلة وانما الذي يجعل تلك أعلى من هذه هو ما عند الاولى من صفوة لا يوجد نظيرها عند الثانية . وقد ادركت الولايات المتحدة ذلك فاغلقت ابوابها في وجوه عمال الصين الذين يتصفون بكفاءة مثل التي عند عمال اميركا ويزاحمونهم باشتغالهم بأجور بخسة .

يزداد النفور بين العامة وبين الخاصة كل يوم ومع انه لم تشتد الحاجة الى الخاصة في وقت اشتدادها في زماننا فان احتمالها لم يصعب

في دور مثل ما هو في الدور الحاضر .

ونعد الحقد الشديد على الصفوة من امتن اركان الاشتراكية وينسى انصارها ان مبتكرات العلم والفن والصناعة هي سر قوة البلاد وسعادة من فيها من ملايين العمال وانهم مدينون لاصحاب العقول السامية الذين أتوا بتلك المبتكرات . فلو ان معجزة جعلت الناس يعتنقون الاشتراكية قبل عصر وقضت على صفات المخاطرة والامعان والاستنباط وكل باعث للعمل لأدى ذلك الى التوقف وفقر العامل، والباعث الى القول بالمساواة في البؤس هو ما يغلي في صدور بعض سخفاء العقول من الشهوة والحسد ولن يعدل البشر عن تقدم الحضارة إرضاء لمثل تلك الاهواء الدنيئة .

الفصل الثاني

نتائج التطور الدموقراطي

١ — تأثير المبادئ التي لا قيمة عقلية لها في التطور الاجتماعي

بينا في الفصل السابق ان السنن الطبيعية لا تلتئم مع الاماني الدموقراطية ومن الامور المعلومة ان لا تأثير لهذه الحقيقة في المبادئ،

الراسخة في النفوس فالانسان لا يبالي بما في المعتقد المسير اياه من القيمة الحقيقية والفيلسوف الذي يبحث عن هذا المعتقد وان وجب عليه ان يجادل في قيمته العقلية فانه ينبغي ان ينقب ايضاً عن تأثيره في النفوس .

وتبدو أهمية هذا التقسيم للعيان عند تطبيقه على تفسير جميع المعتقدات التي ورد ذكرها في التاريخ فمع ان المشتري ومولوخ وفيشنو وغيرهم من الآلهة عبارة عن خيالات من الجهة العقلية فان شأنهم عظيم في حياة الامم . يطبق التقسيم المذكور على المعتقدات التي سادت في القرون الوسطى واحنت ظهور آلاف من الناس امام الهيا كل . ان هذه المعتقدات وهمية ايضاً ولكن كان لها تأثير عظيم كتأثير الحقائق . ومن هو في شك من ذلك فليقايس بين تغلب الدولة الرومانية و بين تغلب الكنيسة : كان تغلب الرومان ملموساً واقعاً لا ريب فيه وكان تغلب الكنيسة قائماً على اسس وهمية الا انه اكتسب ما للاول من السلطان القوي فبه نالت الامم المتبربرة في تلك القرون المظلمة مالا تقوم حضارة على غيره من الروادع الاجتماعية والروح القومية ويثبت ما نالته الكنيسة من السلطان قدرة بعض الأوهام على ايجاد مشاعر مخالفة لمنافع الفرد والمجتمعات كالرهبانية والحروب الصليبية وحروب الدين الخ .

واذا طبقنا الملحوظات السابقة على المبادئ الدموقراطية

والاشتراكية يظهر لنا انه لا يهم في نجاح هذه المبادئ عدم قيامها على اساس متين وانها يكفيها ان تبسط سلطانها على القلوب ، نعم قد تكون ذات نتائج مشئومة ولكن لا عمل لنا في ذلك .

ومن الخطأ ان يكلف دعاة المذاهب الجديدة انفسهم عناء البحث عن اساس عقلي يفسرون به امانيهم إذ يكون اقناعهم انجع إذا اقتصروا على الاتيان بضروب التوكيد وبث الآمال ، وما مقام قوتهم الا في النفسية الدينية الملازمة لقلب الانسان والتي لم تغير سوى المواضيع على تعاقب الاجيال . ولذلك فاننا لا نبحث من الوجهة الفلسفية عن غير نتائج التطور الدموقراطي الذي نشاهد سرعة سيره . قلنا عند ما تكلمنا عن الكنيسة في القرون الوسطى انها قدرت على التأثير في نفوس الناس ومتى تحقق شيئاً من نتائج المذاهب الدموقراطية فاننا نرى ان سلطانها ليس اقل من سلطان الكنيسة في تلك الأحايين .

٢ — الروح اليعقوبية والنفسية التي كونتها المعتقدات الديموقراطية

لم يقتصر ميراث الاجيال الحديثة على المبادئ الثورية بل اشتمل على النفسية التي اوجبت انتصار هذه المبادئ .

لقد وصفنا هذه النفسية — عند البحث عن الروح اليعقوبية —

فاثبتنا انها تميل الى إلزام الناس قهراً باوهامها التي عدتها حقائق ولم تلبث الروح اليعقوبية ان عمت فرنسا وجميع البلدان اللاتينية فاستحوذت فيها على جميع الاحزاب السياسية ومنها الحزب المحافظ ولا فرق في ذلك بين ابناء الطبقة الوسطى و بين افراد الشعب.

ان نتيجة انتشار تلك الروح هي الزام الناس قسراً بالمبادئ السياسية والاناظيم والقوانين وهذا هو سر كون المذهب النقابي - الذي هو سلمي منظم في البلاد الاخرى - لم يلبث ان نهج عندنا نهجاً متشدداً فوضوياً متجلياً في شكل اضطرابات وحرائق وتخريبات.

واذا استولى الخوف على الحكومات ولم تكبح جماح الروح اليعقوبية فان هذه الروح تفسد اصحاب العقول الصغيرة. فاما صوت ثلث المندوبين في مؤتمر المعدنين الاخير لسياسة التخريب خطب احد كتاب المؤتمر فقال:

«اهدي الى كل من يطبق من العمال سياسة التخريب سلامي الاخوي واعجابي القلبي».

وتوجب هذه الذهنية العامة ازدياد الفوضى في البلاد واذا لم تكن فرنسا الآن في ثورة مستمرة فذلك - كما بينت آنفاً - لما هو واقع بين احزابها من التوازن، نعم ان كل حزب من الاحزاب

المذكورة مفعم بحقد مهلك على الآخرين ولكن لم يملك واحد منهم قوة كافية لاخضاع الباقين.

ولقد سرى عدم التسامح اليعقوبي سراية جعل حكامنا انفسهم يتذرعون بأشد الوسائل الثورية نحو خصومهم فاضطهدوهم وجردوهم من اموالهم من دون ان تحتج الاحزاب، وما اشبه سير حكامنا في الوقت الحاضر بسير الفاتحين في العصور القديمة حيث لا امل للمغلوب

إذاً ليس عدم التسامح خاصاً بالعوام بل يشاهد ايضاً عند اولي الامر والنهي، وقد لاحظ (ميشليه) منذ زمن طويل ان مايأتي به المتعلمون من الاضطهاد يكون اشد من اضطهاد العامة في بعض الاحيان، لاريب في انهم لا يكسرون المصابيح ولكن سرعان ما يسهل عليهم ضرب الرقاب، فالمتعلمون والاساتذة والمحامون الذين ظن بان ما نالوه من التهذيب المدرسي قد لين طباعهم هم الذين افترفوا اشد المظالم ايام الثورة الفرنساوية ولم يلطف التعليم طباع الناشئة في الوقت الحاضر اكثر من ذي قبل وهذا يظهر من تصفح الجرائد والكتب التي يحررها اساتذة الجامعات، هنالك يتساءل المطالع كيف اشتعل الحقد في قلوب هؤلاء الذين حالفهم الطالع الحسن.

يصعب تصديقهم لو يدعون بأن محبة الغير آخذة من نفوسهم مأخذها، الا ان الاميركيين غير ذلك إذا قيل ان روحهم الدينية

الضيقة وشوقهم الى الشهرة والمكانة عند الناس هما سببا مايحررونه من رسائل الدعاية ، وقد استشهدت في احدمؤلفاتي السابقة بعبارات وردت في كتاب وضعه احداساتذة مدرسة فرنسا (قوليج دوفرانس) محرضاً فيها الشعب على قبض اموال الطبقة الوسطى التي يلعنها فاستنتجت انه اذا اضطرمت ثورة جديدة فانه يسهل عليها ان تجد بين مؤلفي تلك الرسائل اعواناً مثل مارا وروبسبيير وكاريه .

وللديانة اليعقوبية ـ ولاسيما بعد مظهرها الاشتراكي ـ ما للالهة السابقة من السلطان على ارباب العقول المحدودة ، ولما اعمى الايمان بصائر هؤلاء فانهم يظنون ان رائدهم العقل مع ان شهواتهم وأوهامهم هي المسيرة اياهم ، وعليه فقد نشأ عن تطور المبادئ الدموقراطية ـ عدا ما اشرنا اليه من الاعمال السياسية ـ نتائج عظيمة مؤثرة في نفوس ابناء هذا الزمن .

وإذا نفد ما في حقيبة المذاهب الدينية السابقة فلا تزال حقيبة المبادئ الدموقراطية ملئى ونرى انه يخرج منها كل يوم شيء جديد ونعد الحقد على الافضليات من اهم ما خرج منها ، وقد عم الحقد على كل من يجتاز المستوى الوسط بموقعه الاجتماعي اوبثروته او بذكائه جميع الطبقات من عوام وخواص فكان من نتائجه شيوع الحسد والغيبة والميل الى الهجو والسخرية والجفاء وارتكاب الدنايا

وإنكار الصدق والنزاهة والذكاء ، ومن يدقق في احاديث المتعلمين والشعب يرَ انها صبت في قالب الحاجة الى انتقاص الرجال والحط من قدرهم وما نجى اعاظم الموتى من ذلك فلم تؤلف كتب اكثر من التي استصغرت فيها قيمة المشاهير الذين عدوا في الماضي اثمن ميراث حوته البلاد .

يظهر ان الحسد والحقد قد لازما مبادىء الدموقراطية في كل زمان ولكن لم يكثر شيوعهما في وقت كثرته اليوم وما خفى ذلك على المدققين قال الموسيو بوردو :

« توجد غريزة سافلة ثورية عاطلة من الادب لا غاية لها سوى خفض البشرية الى الدرك الاسفل وتعد كل أفضلية - ولو علمية - شتيمة للمجتمع وهذا الميل اللئيم الى المساواة هو الذي كان مشتعلاً في قلوب اليعاقبة السفاكين عند ما قطعوا اعناق أمثال لافوازيه وشينيه » .

وليس الحقد على الافضليات الذي يعد أهم العوامل في انتشار الاشتراكيه الآن هو كل ما تتصف به الروح الجديدة الناتجة عن المبادىء الدموقراطية بل يوجد نتائج مهمة كالاولى وان لم تصدر مثلها مباشرة ونعد منها : تقدم المذهب الحكومي وتناقص ما عند الطبقة الوسطى من النفوذ والقوة وازدياد تأثير الملايين وتنازع الطبقات واضمحلال الروادع الاجتماعية القديمة وانحطاط الآداب ،

وما هو واقع من التمرد والفوضى يبرز جميع هذه النتائج للعيان فالأبن يعصى أباه والموظف يعصى مستصنعه والجندي ضابطه وهكذا ساد السخط والحقد والحسد في الوقت الحاضر على كل مكان .

مثل الحركة الاجتماعية في ازدياد سرعتها كمثل الحركة الميكانيكية ولذلك سنرى تفاقم امرها من يوم الى آخر ويتجلى هذا التفاقم بما يقع كل يوم من الحوادث كاعتصاب المعدنين وموظفي البريد وانفجار المدرعات الخ . قال الموسيو (دولانيسان) احد وزراء بحريتنا السابقين بمناسبة انحطام مدرعة (الليبرته) التي قيمتها خمسون مليوناً وهلك به في دقيقة واحدة مئتا رجل :

« ان المرض الذي يقرض اسطولنا هو كالذي يقوض جيشنا وادارتنا ودواوينا ونظامنا النيابي ونظامنا الحكومي ومجتمعنا برمته . وهذا المرض هو الفوضى اي ارتباك النفوس وجميع الامور ارتباكاً تجز به الاعمال بما يخالف العقل ويسير به كل امرىء خلافاً لمقتضى الواجب والادب » .

وقال الموسيو (فليكس روسيل) رئيس المجلس البلدي الباريسي في خطاب ألقاه بمناسبة نكبة مدرعة (الليبرته) التي عقبت نكبة مدرعة (رينا) ايضاً : « ليست بحريتنا علة دائنا بل ان هذه العلة اعم وتلخص بثلاث كلمات : عدم التبعة وقلة النظام والفوضى » .

وتدل هذه الشواهد المذكور فيها امور لا يجهلها احد على ان

اشد مدافعي النظام الجمهوري يعترفون بتدرجنا في الانحلال الاجتماعي شاعرين بعجزهم عن تلافيه ، وعلة هذا العجز صدور ذلك الانحلال عن مؤثرات نفسية أقوى من عزائمنا .

٣ – التصويت العام ومنتخبوه

ان التصويت العام هو احد المبادئ الدموقراطية الجوهرية الفتانة فبه يتجلى مبدأ المساواة بتساوي الغني والفقير والعالم والجاهل والوزير وأحقر اجرائه امام صندوق الانتخاب ساعة من الزمن .

خافت جميع الحكومات – ومنها حكومات الثورة الفرنساوية – امر التصويت العام، ومن ينعم النظر فيه يرَ لأول وهلة امكان الاعتراض عليه ، فمبدأ يقول بقدرة العوام على انتخاب رجال صالحين للحكم اي بقدرة اناس قليلي المعرفة والتهذيب محدودي النظر على نيلهم بكثرة العدد أهلية يحسنون بها التمييز بين المرشحين مما لا يرتاح اليه النفوس .

ويمكن تبرير التصويت العام من الوجهة العقلية بان نقول مع پاسقال :

« ان الطريقة المثلى هي الرجوع الى الاكثرية لان الاكثرية امر منظور قادر على الزام الناس بطاعته ولكن هذا ليس رأي الجهابذة » .

وبما انه يتعذر ان يحل في الوقت الحاضر اي نظام مكان التصويت

العام وجب الرضى به والسعي للالتآم معه ، ولا يفيد الاحتجاج عليه والقول مع الملكة (ماري كارولين) ايام محاربتها نابليون : « بانه لا يوجد ما هو امقت من حكم الناس في هذا العصر المتمدن حيث ينقب كل سكاف عن عورات الحكومة ويسخر منها ! »

والحق ان كل اعتراض وجه الى التصويت العام ليس له من القوة كما يبدو لاول نظرة ، فلما ثبتت عندنا صحة نواميس روح الجماعات فاننا نشك ان تطبيق التصويت المحدود يؤدي الى انتخاب رجال افضل من الذين يتم انتخابهم بالتصويت العام . تدلنا تلك النواميس على ان التصويت الموصوف بالعام ليس إلا وهماً إذ لما كان رأي الجماعة هو رأي زعمائها ـ اللهم الا في الظروف النادرة ـ فان التصويت المذكور هو في الواقع اضيق تصويت . وهنا كل الخطر ، فالزعماء القابضون على زمام هذا التصويت هم صنائع لجن محلية صغيرة مشابهة لاندية الثورة الفرنساوية الكبرى وهم الذين ينتخبون النائب ومتى يكمل انتخاب هذا الاخير فانه يصبح واسطة محلية مطلقة على ان ينظر الى مصالح تلك اللجن ، وذلك ما ينسيه منفعة البلاد العامة .

تحتاج اللجن الى عباد مطيعين ولذلك لا تنتخب لمنصب النيابة رجالاً ذوي ذكاء سام وأدب عال بل تصوت لاناس ذوي اخلاق

هينة لا موقع اجتماعياً لهم ، و يخضع النائب لتلك اللجن التي لولاها لما اشتهر امره خضوعاً تاماً فيقول ما تقول و يصوت لما تشير اليه ، و يمكن تلخيص ما يدعو اليه خياله السياسي بكلمة « طع تدم » على انه قد يقع ـ ولكن نادراً ـ ان يستأثر نواب بما لهم من الشهرة او المنزلة او الثروة باصوات الشعب من غير ان تتدخل اللجن المحلية الوقيحة بذلك .

إذاً فحكم التصويت العام في بلاد دموقراطية مثل فرنسا أمر ظاهري وهذا هو السر في وضع كثير من القوانين التي لا منفعة للامة فيها كالقانون القائل بابتياع خطوط الغرب الحديدية والقوانين التي شنت ضد اليسوعيين ولا تعبر هذه الامور من غير ما املته اللجن المحلية المتعصبة على النواب من المطاليب .

و يبدو تأثير اللجن المذكورة للعيان عند الاطلاع على اضطرار اكثر النواب اعتدالاً الى الدفاع عن الفوضويين الذين يخربون دور الصناعة وعلى اتفاقهم مع القائلين بعدم التجنيد وعلى رضائهم بانحس المطالو بات طمعاً في تجديد انتخابهم . فهكذا تتأصل في نفوس النواب عواطف وطبائع وعادات دموقراطية دنيئة .

٤ - الحاجة الى الاصلاح

ان الميل الى الاصلاحات بوضع المراسيم لمن أشد ما تتصف

به الروح اليونانية شؤماً ومن اعظم ما ورثناه عن الثورة الفرنساوية خطراً وهو احد العوامل الاساسية التي ادت الى ما وقع في فرنسا من الانقلابات منذ عصر .

والصعوبة التي يلاقيها الناس في تعيين عمل الامراض التي نقاسيها سبب نفسي من اسباب التعطش الى الاصلاحات ، وما في الانسان من الحاجة الى الايضاح يخيل له عالا وهمية تسهل مداواتها .

لقد اتينا منذ اربعين سنة باصلاحات جدير ان يدعى كل واحد منها ثورة صغيرة ولكننا بالرغم منها لا نزال اقل الامم تطوراً في اوروبا ، وقد تكون تلك الاصلاحات سبب هذا التطور البطيء .

يتجلى هذا البطء عند مقايسة ما عند الامم من عناصر الحياة الاجتماعية اي ما عندها من تجارة وصناعة الخ . إذ يظهر لنا ان تقدم كثير من الامم ولا سيما الامة الالمانية عظيم مع اننا نمشي الهوينا ، شاخ نظامنا الاداري والصناعي والتجاري كثيراً واصبح غير ملائم لمقتضيات الوقت الحديث ، فصناعتنا صارت قليلة اليمن وبحريتنا التجارية مشرفة على السقوط وها نحن لا نقدر على مزاحمة المصنوعات الاجنبية في مستعمراتنا رغم معونة الحكومة المالية وقد بين المسيو (كردني) وزير التجارة السابق هذا السقوط المحزن في كتاب وضعه حديثاً فاتبع فيه رأي الناس المغلوط القائل بان النظامات قادرة

على معالجة السقوط المذكور ، يشاطر جميع المشتغلين بالسياسة هذا الرأي ولذلك قل تقدمنا فكل حزب مقتنع بان الاصلاحات تداوي الامراض وتسوق هذه القناعة الاحزاب الى القيام بمنازعات تجعل فرنسا اكثر بلاد العالم انقساماً وطعمة للفوضى .

لا يزال الناس غافلين عندنا عن الحقيقة الدالة على ان قيمة الامة بافرادها ومناهجهم لا بانظمتها فليست الاصلاحات الشافية هي الاصلاحات الثورية بل التي تتراكم مع الزمن وتتم الانقلابات الاجتماعية الكبيرة مثل الانقلابات الجيولوجية بما يجمع كل يوم من العوامل الصغيرة ، وقد اثبت لنا تاريخ المانيا الاقتصادي منذ اربعين سنة صحة هذا الناموس .

وما اكثر الحوادث العظيمة الشأن - كالوقائع الحربية - التابعة لناموس تجمع العوامل الصغيرة رغم وقوعها في الظاهر فجأة نعم قد تنتهي المعركة الفاصلة احياناً في يوم واحد ولكن النجاح فيها لا يتم الا بما يؤتى به سابقاً من المجهودات الدقيقة المتراكمة ببطء وقد جربنا ذلك عام ١٨٧٠ وجربه الروس اخيراً ، فمع ان امير البحر (طوغو) أباد الاسطول الروسي في واقعة (طسوشيما) التي توقف عليها مصير اليابان فان الوفاً من المؤثرات الصغيرة البعيدة اوجبت هذا الظفر ، وليست المؤثرات التي نشأ عنها انكسار الروس

اقل من ذلك ونعد منها : نظامهم القرطاسي المعقد المؤدي الى عدم التبعة مثل نظامنا وعددهم الحربية التي يرثى لها رغم ابتياعها بذهب يعادل وزنها ونظام الجوائز لجميع الموظفين وقلة المبالاة بمنافع البلاد

ومما يحزن القلوب ان الجزئيات التي تتكون عظمة الامة من مجموعها هي من الخفاء بحيث لا تؤثر في الجمهور ولا تصلح لترويج منافع السياسيين الانتخابية ، وهذا ما يجعل هؤلاء لا يأبهون لها تاركين البلاد التي القت اليهم مقاليد امورها تتدرج في الانحلال المؤدي الى الانقراض .

٥ — الفروق الاجتماعية بين البلاد الدموقراطية والمبادىء الدموقراطية في البلدان المختلفة

عدَّ الناس ايام كان البشر منقسماً الى قبائل ومتفاوتاً بالانساب ان الفروق الاجتماعية صادرة عن سنة طبيعية لا مفر منها ، ولكن عند ما قضى على التقسيمات الاجتماعية القديمة ظهر ان الفرق بين الطبقات امر صنعي لا يطاق ، وبما ان الحاجة الى المساواة شيء نظري فان الامم الدموقراطية لم تلبث ان اوجدت مراتب صنعية يستطيع نائلها ان ينتحل بها لنفسه افضلية على غيره ، وما فشا الطمع في الالقاب والاوسمة في زمان مثل ما هو اليوم .

ولا تأثير للالقاب والاوسمة في البلدان الدموقراطية الحقة

كالولايات المتحدة وانما يتفاوت الناس فيها بالمال ، وقد يقع - ولكن على القلة - ان فتيات مثريات يقترن فيها بذوي الالقاب الارسطوقراطية الاوروبية وهكذا يفعلن بغرائزهن ما يجعل امة فتاة كالولايات المتحدة تنال ماضياً ضرورياً لثبات مزاجها الادبي .

واذا نظرنا الى الاريسطوقراطية التي نشاهد تولدها في اميركا من حيث العموم نرى انها لم تقم على الالقاب والاوسمة بل على المال ولهذا لا تلقى في القلوب حسداً كبيراً فكل امرىء يطمع ان ينال منه قسطاً كافياً في يوم من الايام .

كان توكفيل يجهل عند ما ذكر رغبة الاميركيين في المساواة في كتابه الباحث عن الدموقراطية انه سينشأ عن هذه المساواة المنتظرة تقسيم الناس الى طبقات حسب ما يملكونه من الدولارات ولا بد من حدوث ذلك في اوروبا يوماً ما .

ولا يوجد في الوقت الحاضر ما يسمح لنا ان نعد فرنسا بلاداً دموقراطية اللهم الا اذا استثنينا ما تلوكه الافواه من الكلمات وهنا نرى انفسنا حيال ضرورة البحث عن ما ينطوي تحت كلمة الدموقراطية من الافكار التي تختلف باختلاف البلدان .

وعندنا انه لا يوجد بلاد دموقراطية بكل معنى الكلمة غير انكلترا واميركا ، والدموقراطية وان تجلت في هذين البلدين بشكلين

مختلفين فانه يشاهد فيها مبادئ واحدة ولا سيما مبدأ التسامح المطلق مع جميع الآراء والافكار ، ولا عهد لهما بالاضطهادات الدينية ؛ و بما انه جاز لكل امرئ ان يتخذ فيها المهنة التي تروق في عينه مهما كان عمره من غير ان يقوم اي حاجز في وجهه فان افضليات الناس تبرز فيهما باجلى مظهر .

يعتقد الناس في مثل البلدين المذكورين انهم متساوون لعلمهم بانه لا يوجد ما يمنعهم من الوصول الى ذرى متكافئة ، فالعامل فيهما يعلم بانه يستطيع ان يكون عريفاً فمهندساً ولما وجب على المهندس ان يبدأ بالصعود من اسفل الدرجات — لا ان يصعد كما يقع في فرنسا الى اعلاها دفعة واحدة — فانه لا يعتبر نفسه من جوهر غير جوهر بقية الناس ، وهذا هو السر في كون الحقد الشديد الشيوع عندنا — لم ينتشر في انكلترا واميركا الا قليلاً .

لا محل للدموقراطية الفرنساوية الا في الخطب وما في فرنسا من انظمة المسابقات والفحوص التي يضطر المرء وهو شاب الى معاناتها يسد في وجهه ابواب المهن ويكوّن في صميم الامة طبقات متعادية متباينة .

إذاً فالدموقراطيات اللاتينية نظرية وقد حل الاستبداد الحكومي عندنا مكان الاستبداد الملكي ولم يكن أقل قسوة منه وقامت

الاريسطوقراطية المالية مكان اريسطوقراطية النسب وليست امتيازاتها اخف وطأة من الثانية .

ان الفرق بين الملكية والدموقراطية اشد في الشكل منه في الاصل والفرق الحقيقي بين نتائجهما تابع لما عند الناس من النفسية المتحولة ولا فائدة فيما يؤتى به من المجادلات في قيمة الانظيم المختلفة إذ لا فضيلة في ذاتها وانما قيمتها بقيمة المرؤوسين ، وتكون الامة على شيء عظيم من الرقي إذا علمت بان منزلتها بمجموع ما يأتي به افرادها من الجهود لا بما تأتي به حكوماتها .

الفصل الثالث

فيما للمعتقدات الدموقراطية من المظاهر الجديدة

١ - النزاع بين رأس المال والعمل .

بينما يخبط مشروعنا في الاصلاح والتشريع خبط عشواء يسير تطور العالم الطبيعي في مجراه رويداً رويداً فتتولد منافع جديدة ويعظم ما بين الامم من المزاحمات الاقتصادية ويأتي العمال بضروب الفتن وتتكون من جميع الوجوه مشاكل مخيفة لا تحلها خطب رجال السياسة .

وأشد هذه المشاكل الجديدة تعقداً ما هو واقع بين العمل ورأس المال من النزاع. ولا يخلو بلد من ذلك حتى البلاد ذات التقاليد كانكلترا، فقد عدل العمال عن احترام العقود واخذوا يعتصبون لاسباب تافهة و بلغت البطالة والعوز مبلغاً يقلق البال وسرت عدوى الاعتصاب الى اميركا فاعاقت جميع صناعاتها ولكن استفحال الداء فيها أدى الى ايجاد الدواء. فنظم رؤساء الصناعات بينهم مواثقات كبيرة اصبحت من القوة بحيث تقدر على إلزام العمال بطرقها التحكيمية.

ومما يزيد مشكلة العمال تعقداً في فرنسا اضطرارها الى ادخال عدد كبير من عمال الاجانب لتناقص عدد مواليدها[1] وينتج عن هذا التناقص ايضاً صعوبة الاقتتال مع الامم المزاحمة التي سوف تلجؤها عدم كفاية مزارعها لاطعام سكانها الى الاستيلاء على البلدان

---

(١) سكان الدول المعظمة:

	عام ١٧٨٩	عام ١٩٠٦
روسيا	٢٨ مليوناً	١٢٩ مليوناً
المانيا	٢٨ »	٥٧ »
النمسا	١٨ »	٤٤ »
انكلترا	١٢ »	٤٠ »
فرنسا	٢٦ »	٣٩ »

القليلة السكان سائرة على اقدم ناموس تاريخي .

وسيشتد الاقتتال بين العمال والمستصنعين اكثر من ذي قبل، عند ما يتفاقم النزاع الاقتصادي بين الآسيويين ذوي الحاجات الضعيفة والقادرين على الانتاج بابخس الاثمان وبين الاوروبيين اولي الحوائج العظيمة ، وقد اشرت الى اهمية هذا الامر قبل خمس وعشرين سنة. جاء في كتاب للجنرال (هاملتون) الملحق الحربي في الجيش الياباني - الذي اخبر بانتصار اليابان قبل وقوع الحرب الروسية اليابانية — واعاد طبعته الجنرال (لانغلوا) ما يأتي :

« ان الصيني كما بدا لي في (مانشوريا) قادر على إبادة العامل الابيض في الحاضر واجلائه عن وجه الارض . ولا يفكر الاشتراكيون الذين يبشرون بالمساواة فيما ستؤدي اليه نظرياتهم من النتائج . فهل النوع الابيض صائر الى الانقراض ؟ اني على ما في من العجز والتقصير ارى ان مصيره يتوقف على عدم اصغائنا الى الخطب القائلة بان الحرب والتأهب اليها امر مضر لا فائدة فيه ».

« واني انصح العمال ان ينظروا بعين البصيرة الى شؤون العالم في هذا الوقت فيبذروا في قلوب اولادهم حب الحرب ويرضوا بما ينشأ عن الروح العسكرية من المحن والاعباء وان لا يفشلوا في محاربة العمال الجدد المزاحمين . ولا يمنع الآسيويين عن الهجرة وخفض الاجور بما يأتونه من انواع المزاحمة عن الاقامة بين ظهرانينا غير الحسام . فاذا لم ينتبه الاميركيون والاوروبيون الى ان بقاء منزلتهم الممتازة متوقف على ما عندهم من قوة السلاح فان آسيا لا تلبث ان تنتقم منهم ».

ومن الامور المعلومة ان هجرة الصينيين واليابانيين الى اميركا

اصبحت بما اوجبته من المزاحمه للعمال البيض كارثة وطنية ، وقد اخذ اولئك يهاجرون الى اوروبا ايضاً ولكن هذه الهجرة لم يتسع نطاقها بعد ، على انه يوجد لمهاجري الصين مستعمرات مهمة في بعض المدن الاوروبية كلندن وكارديف وليفربول الخ . وقد أوجب وجودهم فيها حدوث قلاقل كثيرة لانه نشأ عن اشتغالهم باثمان بخسة خفض الاجور .

تخص تلك المشاكل المستقبل وما في الساعة الحاضرة من المشاكل المقلقة يجعل الاهتمام بغيرها عديم الفائدة الآن .

٢ - تطور طبقة العمال والحركة النقابية

ربما كان تطور العمال الحديث الناشيء عن الحركة النقابية اكبر المشاكل الدموقراطية الحاضرة شأناً . وقد انتشر المذهب النقابي المتكون من تجمع المنافع المتماثلة في جميع البلدان حتى اصبح كونياً ، ومن النقابات مالها ميزانيات معادلة لميزانيات الحكومات الصغيرة ونورد على سبيل المثال ان نقابات المانية بلغ دخلها واحد وثمانين مليونا ، ويدل شيوع الحركة النقابية في جميع البلدان على انها ليست كالاشتراكية بدعة خيالية بل نتيجة لمقتضيات الاقتصاد ، ولا قرابة بين المذهب النقابي والاشتراكية من حيث الغاية ووسائل العمل والمناحي ، وبما انني اوضحت ذلك في كتابي المسمى بروح

السياسة فانني اكتفي بتلخيص الفرق بينهما في بضعة سطور:

ترمي الاشتراكية الى الاستيلاء على جميع الصناعات وايداع ادارتها الى الحكومة على ان توزع الحكومة منتجاتها بين ابناء الوطن على السواء واما النقابية فانها بالعكس تسعى في ابطال تدخل الحكومة وتود تقسيم المجتمع الى طوائف مهنية مستقلة .

ومع ان النقابيين يسخرون من الاشتراكيين ويصارعونهم فان هؤلاء لم يألوا جهداً في كتم هذا الصراع ولكنه اصبح من الظهور بحيث يتعذر اخفاؤه وسوف يخسرون قريباً مالهم من النفوذ السياسي ، والسبب في توسع النقابية على حساب الاشتراكية هو تأليفها بين الحاجات المتولدة عن الاختصاص الصناعي في الوقت الحاضر

حقاً اننا نرى ظهور المذهب النقابي في بيآت مختلفة ولم ينل هذا المذهب نجاحاً في فرنسا كما في البلدان الاخرى لان لبسه ثوباً ثورياً فيها أدى الى سقوطه موقتاً بين ايدي فوضويين لا يبالون بأي نظام ولا يفعلون غير اتخاذ المذهب المذكور آلة لتقويض دعائم المجتمع الحاضر ، وهكذا فان الاشتراكيين والنقابيين والفوضويين يتعاونون عندنا — رغم اختلاف مبادئهم — على محق الطبقات المسيرة للامة ونهب اموالها .

لا تتفرع المباديء النقابية عن مباديء الثورة الفرنساوية ابداً

و كثيراً ما تناقضها من بعض الوجوه مناقضة تامة فالمذهب النقابي يأمر بالرجوع الى انظمة إلبيَّة قريبة من أنظمة الطوائف المهنية التي قضت عليها الثورة المذكورة وهو من نوع المواثقات التي حرّمت تلك الثورة تأسيسها و يرفض النظام المركزي الذي أقامته.

ولا يهم المذهب النقابي أمر واحد من المباديء الدموقراطية الثلاثة اي الحرية والمساواة والاخاء، بل تطالب النقابات اعضاءها بالطاعة المطلقة المبطلة لكل حرية.

ليس عند النقابات من القوة ما يكفي لبغي بعضها على بعض ولذلك فانها تتقابل كالاخوة ولكن لا بد من تطاحن منافعها المتباينة كما حدث ايام العهد النقابي في الجمهوريات الايطالية - كجمهورية فلورنسا وجمهورية سيان - عند ما تنال ما تصبو اليه من القوة فتنسى وقتئذ ما تبديه اليوم من الاخاء و يحل مكان المساواة استبداد نقابي.

يظهر ان ذلك الوقت قريب إذ السلطة النقابية تعظم بسرعة ولا ترى أمامها سوى حكومات عزلاء لا تدافع عن نفسها بل تخضع لجميع مطاليب النقابات، وهذا أمر فاسد لانه وان لاءم الساعة الحاضرة فانه يثقل كاهل المستقبل كثيراً.

استعاذت الحكومة الانكليزية اخيراً بهذه الطريقة في نزاعها مع نقابة المعدنين التي انذرت انكلترا بايقاف حياتها الصناعية اذا لم

تحدد اصغر اجرة يعطاها المنتسبون اليها من دون ان يحدد اصغر عمل يقومون به ، ومع انه لا يوجد ما يبرر قبول هذا الطلب فان الحكومة رضيت بان تقترح على البرلمان ان يضع قانوناً مستحسنا اياه ، وما القاه المستر بلفور في هذا الموضوع من الكلام الرزين امام مجلس العوام جدير بامعان النظر واليك اياه :

« لم تر بلادنا ذات التاريخ الطويل الحافل بجلائل الحوادث نفسها ازاء خطر داهم مثل الخطر الحاضر . ومصدر هذا المنظر الغريب المشئوم هو تلك النقابة التي تهدد صناعة مجتمعنا وتجارته بالفلج وان كانت حياة هذا المجتمع قائمة على مافيه من مصانع ومتاجر ».

لا حد لسلطة المعدنين تحت ظل القانون الحاضر ، فهل كان لنا عهد بمثل ذلك ؟ وهل ظهر في بلادنا امير اقطاعي اشد بغياً من هؤلاء ؟ وهل وجدت موثقة امير كية سخرت من المصلحة العامة مستعينة بما خولها القانون اياه من الحقوق نظير اولئك ؟ ان ما في قوانيننا ونظامنا الاجتماعي وفي الصلاة المتبادلة بين صناعاتنا ومهننا من الكمال يلقينا — اكثر من كل جيل سابق — الى الخطر العظيم المحدق بالمجتمع في هذا الزمن ، اننا نشاهد الآن المظهر الاول لقوة العناصر التي سوف تغمر جميع المجتمع اذا لم يحذر منها ، ويدل بعض الدلالة الطور الذي تذعن به الحكومات لمطلوبات المعدنين على انتصار اولئك الذين يقومون في وجه المجتمع .

٣ — لماذا تحول بعض الحكومات الدموقراطية الحديثة بالتدريج الى طوائف ادارية

يسوق ما نشأ عن المبادئ الدموقراطية من الفوضى والمنازعات الاجتماعية بعض الحكومات الى تطور مفاجيء سينتهي بجعل سلطتها رسمية فقط ويقع هذا التطور الذي سنلخص نتائجه بتأثير ضرورات مهيمنة ناظمة لسير الامور .

ان حكومة البلاد الدموقراطية تتكون من نواب تم انتخابهم على طريقة التصويت العام فهم الذين يسنون القوانين ويعينون الوزراء من بينهم ويسقطونهم ولا يمضي وقت قصير على استلام الوزراء زمام الامور حتى يبدلوا إذ ان اكثرية النواب المطلقة تكفي للحكم بذلك . ولما كان من يحل مكانهم من الوزراء ينتسبون الى حزب آخر فانهم يحكمون بمبادئ مخالفة لمبادئ سلفهم .

والذي يظهر لاول وهلة ان القرار والديمومة لا يكونان في بلاد تتجاذبها مؤثرات متباينة كثيرة ولكننا نرى رغم هذا التذبذب ان أمر حكومة دموقراطية مثل الحكومة الفرنساوية مستقيم على قدر الامكان فكيف تفسر هذه الحادثة ؟ ان تفسيرها لشيء بسيط نجمله بقولنا ان الوزراء وان ظهر انهم يحكمون فانه ليس بيدهم من الحكم سوى شيء يسير ويحصر سلطانهم فيما يلقونه من الخطب التي قل

من يصغي اليها وفي بضعة تدابير فاسدة، غير انه يوجد خلف سلطة الوزراء السطحية العاطلة من القوة والديمومة والتي هي العوبة بيد المشتغلين بالسياسة سلطة خفية آخذة في النمو وهي سلطة الادارات ولهذه السلطة ذات التقاليد والمراتب والمتصفة بالديمومة قوة اعترف الوزراء بعجزهم عن مناهضتها [١] وقد بلغ تجزأ التبعة في الادارات مبلغاً جعل الوزراء لا يرون امامهم من هو ذو شخصية كبيرة ويقوم امام عزائمهم الموقتة ما يعترض به عليهم من الانظمة والعادات والاحكام فيوجب سوء علمهم بهذه الامور عدم اقدامهم على خرقها .

لا محالة من تناقص ما للحكومات الدموقراطية من السلطة ومن نواميس التاريخ الثابتة انه متى تعظم شوكة احدى الطبقات ـ كطبقة الاشراف والاكليروس او الجيش او الشعب ـ فانها لا تلبث ان تستعبد الاخرى وعلى هذه الصورة صارت الجيوش الرومانية تعين الامبراطرة وتسقطهم . ولقي الملوك مصاعب شديدة في مكافحة الاكليروس ، وابتلع المجلس النيابي السلطة ايام الثورة الفرنساوية ثم حل مكان الملك .

ونرى ان طائفة الموظفين ستكون دليلاً جديداً على صحة

(١) اشار الوزير (كروبي) في كتاب نشره حديثاً الى هذا العجز اشارة كافية فبين ان الدواوين تشل عزائم اولي العزم من الوزراء فيعدلون عن مناهضتها .

هذا الناموس فها هي اخذت بعد ان عظم امرها ترفع صوتها وتهدد وتعتصب ، مثال ذلك اعتصاب موظفي البريد وموظفي سكك الحكومة . وهكذا فانه يتكون من السلطة الادارية دولة صغيرة في وسط الدولة الكبيرة ولا بد من استئثارها بالسلطة الحقيقية اذا استمرت على تطورها الحاضر، فتكون نتيجة جميع ماقمنا به من الثورات انتقال السلطة من الملوك الى طائفة من الموظفين خفية مستبدة غير مسئولة.

❀❀❀

يستحيل اكتشاف عاقبة المعارك التي تنذرنا بالافول ، وينبغي ان لا نتفاءل او نتطير بل ان نقول بان الضرورة لا تلبث ان توازن بين الامور فالعالم يجدّ في سيره من غير ان يبالي بما نلقيه من الخطب ولا شك في توصلنا الى الالتئام مع تقلبات البيئة المحيطة بنا عاجلا كان ذلك ام آجلا ، وانما الصعوبة كلها في الانتهاء الى هذا الالتئام من دون ان يحدث اصطدام كبير ثم مقاومة اوهام الخياليين الذين خربوا العالم مرات عديدة لما عجزوا عن تجديده .

ذهبت آثينا وروما وفلورنسا وغيرها من المدن التي اضاءت التاريخ ضحية هؤلاء النظريين المهلكين الذين كانت نتائج تأثيرهم واحدة : فوضى فحكم مطلق فانقراض .

ولا تنفع هذه الدروس المتآخرين الكثيري العدد في الوقت

الحاضر إذ لا يزالون عمياً عن العلم بان الفتن التي أثارتها اطماعهم تنذرهم بالوأد ، بذر اولئك في نفوس الجماعات آمالاً يتعذر تحقيقها وحركوا شهواتها وقوضوا الروادع التي اقيمت في عصور طويلة لزجر امثالهم .

ان مقاتلة الجموع العمياء لصفوة الرجال من الامور التي جرت سنة التاريخ عليها وما اكثر المدنيات التي قضى عليها انتصار الحكومات الشعبية. فالخواص يبنون والعامة تهدم ومتى يضعف اولئك يظهر تأثير هذه المفسد

لم تتقدم الحضارات العظيمة الا بالتغلب على السوقة ولم ينشأ عن الاستبداد الدموقراطي فوضى وحكم مطلق فغارات اجنبية ثم فقد استقلال في بلاد اليونان وحدها بل ان الاستبداد الفردي قد عقب استبداد الجماعات في كل زمان فهو الذي زعزع عظمة روما وأدى الى قضاء البرابرة عليها .

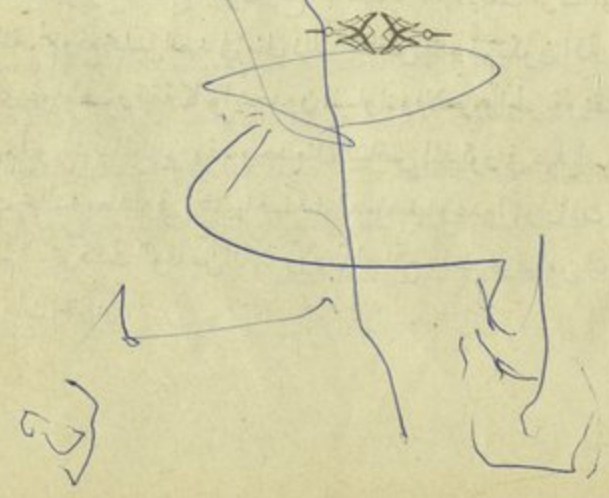

الخلاصة

بحثنا في هذا المؤلف عن الثورات الرئيسية التي زلزلت بنيان التاريخ ولكننا فصلنا خاصة أمر الثورة الفرنساوية التي هي اهم من الجميع لقلبها اوروبا مدة عشرين سنة رأساً على عقب ولأن صداها لا يزال يدوي في الآذان.

ان هذه الثورة مصدر وثائق نفسية لا ينضب معينه ولا يوجد دور تاريخي جمع تجارب كثيرة في وقت قصير مثل دورها.

وقد وجدنا في كل صحيفة من صحائف هذه الفاجعة مجالاً لتطبيق ما بيناه في تصانيفنا المختلفة من المبادىء الدالة على ما عند الجموع من الروح الموقتة وعند الشعوب من الروح الثابتة وعلى تأثير المعتقدات وشأن المؤثرات الدينية والعاطفية والجموعية واصطدام انواع المنطق المختلفة.

ينبؤنا ما عليه المجالس الثورية من الاحوال بصحة نواميس روح الجماعات. فالمسير لهذه المجالس في حالتي الاندفاع والخوف عدد صغير من الزعماء وكثيراً ما تأتي بأعمال مخالفة لعزائم كل عضو من اعضائها وهو منفرد. فمع ان المجلس التأسيسي ملكي فقد قضى على الملكية ومع ان الجمعية التشريعية مشبعة بروح الانسانية فانها سمحت بوقوع مذابح ايلول ومع انها سلمية فانها دفعت فرنسا الى القيام بحرب هائلة. ثم وقع مجلس العهد في مثل ذلك التناقض إذ رغم تكون اكثريته من فلاسفة ذوي عواطف رقيقة كانوا يمجدون المساواة والاخاء والحرية ويمقتون الاضطهاد فانهم أتوا بأشد المظالم. وقد وجد مثل التناقض المذكور في عهد الديركتوار ايضاً كانت مجالسه معتدله في رغائبها فسفكت الدماء بغياً وعدواناً وارادت توطيد دعائم السلم الديني فنفت الوفا من الكهنة وودت اصلاح ما عم فرنسا من التخريب فقامت بتخريبات اخرى.

إذاً يوجد اختلاف تام بين عزائم رجال الثورة الفرنساوية وهم منفردون وبين عزائمهم وهم مجتمعون في المجالس . وعلة ذلك اطاعتهم قوى خفية لا سلطان لهم عليها فهم وان اعتقدوا بانهم خاضعون لسلطان العقل المطلق فانهم كانوا يعانون ما لم يدركوا أمره من المؤثرات الدينية والعاطفية والجموعية .

تقدم الذكاء بتعاقب الاجيال ففتح للانسان آفاقاً عجيبة . واما الخلق الذي هو اساس روحه والمحرك الحقيقي لاعماله فلم يتبدل منه شيء واذا تنكر لحظة فانه لا يلبث ان يظهر كما كان . ولذلك وجب النظر الى الطبيعة البشرية كأمر واقع لا يتغير .

لم يرض القائمون بالثورة الفرنساوية بذلك فجربوا لاول مرة تحويل الناس والمجتمعات باسم العقل . ولم يتيسر لاي مشروع كما تيسر لمشروعهم من وسائل النجاح . لان قوتهم كانت اعظم من قوة جميع الجبابرة وقتما ارادوا انجازه . ولكن رغم تلك القوة ورغم انتصار الجيوش ورغم ما سنوه من القوانين الصارمة ورغم استئثارهم بالسلطة فان الثورة الفرنساوية لم تؤد الى غير التخريب واقامة الحكم المطلق

ليست هذه التجربة عديمة الفائدة اذ التجارب ضرورية لتثقيف الامم . فلولا الثورة المذكورة لصعب اثبات كون العقل المطلق لا يغير الرجال وان المجتمع لا يتجدد كما يريد المشرعون مهما كان سلطانهم عظيما .

لم تلبث الثورة الفرنساوية التي اشعلت نارها منافع الطبقة الثانية ان اصبحت شعبية فخاربت الغريزة المعقول وانتهكت حرمات الزواجر التي اخرجت الانسان من طور الهمجية الى طور الحضارة . وقد حاول المصلحون ان ينشروا مذاهبهم باستنادهم الى مبدأ السلطة الشعبية وصار الشعب الذي يقوده الزعماء يتدخل في مذاكرات المجالس النيابية بدون انقطاع ويقترف اشد المظالم .

ان تاريخ الجماعات في ذلك الدور حافل بالفوائد . فهو يثبت خطل المشتغلين

بالسياسة الذين يعزون الى الروح الشعبية جميع الفضائل .

وتدلنا حوادث الثورة الفرنساوية ان الشعب يرجع مسرعاً الى همجية القرون الخالية اذا تفلت من الزواجر الاجتماعية التي هي اساس كل مدنية وترك يسير حسب ما توحي اليه غرائزه . ففي كل انتصار يتم للثورة الشعبية عود الى التوحش ولو استمرت ثورة (الكومون) التي وقعت عام ١٨٧١ لأحيت دور الهول الاكبر . ولما لم يكن عندها من القوة ما يكفي لاهلاك كثير من الناس اقتصرت على حرق أهم مباني باريس .

ليست تلك الثورة سوى اصطدام قوى نفسية تخلصت من القيود الزاجرة لها وقد نشأ عن اقتتال الغرائز الشعبية والمعتقدات اليعقوبية والمؤثرات الارثية والشهوات والمطامع التي لا حد لها تضريج فرنسا بالدماء واشرافها على الدمار .

يلوح للناظر من بعيد ان الثورة المذكورة تتكون من مجموع هذه العناصر مع انه لا يوجد ما هو متجانس فيها . وينبغي تحليلها للوقوف على حقيقة تلك النازلة واستجلاء سر المحرضات التي حركت نفوس ابطالها . وتتوازن انواع المنطق المختلفة — اي المنطق العقلي والمنطق العاطفي والمنطق الديني ومنطق الجماعات — في الازمنة الاعتيادية تقريباً واما في ايام الفتن فانها تتصادم وينتقل الانسان من حال الى حال .

لم ننكر في هذا الكتاب ما جادت به الثورة الفرنساوية على حقوق الامم ولكننا قلنا مع كثير من المؤرخين بان ما ربحناه تلقاء كثير من اعمال التخريب لا بد من نيله مع سير الحضارة بلا عناء . وما اعظم ما اصابنا من خسارة مادية وانحلال ادبي لاكتساب زمن قصير ! ولا يتم اصلاح هذه الامور الطارئة على سلسلة التاريخ الا رويداً رويداً ولم يتحقق هذا الاصلاح حتى الآن .

يظهر ان الشبيبة الحديثة تفضل العمل عن الفكر . وهي تستخف بمجادلات الفلاسفة العقيمة ولا ترى فائدة في الاراء الفارغة التي تدور حول امور لا يزال

جوهرها مجهولاً . حقاً ان العمل امر محمود اذ هو سبب كل تقدم ولكنه لا يفيد الا اذا وضع في محله ، فمع ان زعماء الثورة الفرنساوية من الرجال العاملين فانهم نكبوا بالاوهام التي تسلطت عليهم .

ان العمل مضر اذا احتقر الحقائق وسعى في تحويل مجرى الامور بعنف إذ لا شبه بين تجربة يكون موضوعها المجتمع و بين تجربة موضوعها ما في احد المختبرات من الآلات . وما اتينا به من الانقلابات يدلنا على شدة ما ينشأ عن الاغلاط الاجتماعية من المصائب .

يود كثير من المتهوسين الذين استحوذت عليهم الاوهام ان يعيدوا دور الثورة الفرنساوية مع اتيان هذه الثورة بتجربة حاسمة وسترجع الاشتراكية التي هي خلاصة هذا الامل بالناس الى الوراء لا بطالها اهم عوامل السير فيهم . وهي باقامتها تبعة الجماعات وقوة استنباطها مقام تبعة الفرد وقوة استنباطه تسقطهم الى أدنى الدرجات .

وليست الساعة الحاضرة ملائمة لمثل هذه التجارب . اذ نرى ان الامم تمعن في التسلح كل يوم اكثر من ذي قبل رغم خوض الخياليين في بحار الاوهام وتهييجهم شهوات الجموع ومطامعها . والكل شاعر بانه لا مكان للامم الضعيفة في مزاحمة العالم .

تنمو في اوروبا الوسطى دولة حربية مخيفة طامعة في سيادة العالم لتنال اسواقاً تنفق فيها سلعها ومهاجر تسكن فيها من لا تقدر على اطعامه من ابنائها المتزايدي العدد . فاذا داومنا على خرق اتحادنا بما يقع عندنا من النزاع الداخلي ومن تنافس الاحزاب ومن الاضطهاد الديني ومن وضع قوانين مقيدة لتقدم الصناعة فان شأننا في العالم ينتهي و نفسح المجال الى امم ملتحمة الاجزاء عالمة كيف تلتئم مع مقتضيات الطبيعه من دون ان تحاول تذليلها . نعم ان الحال يعيد الماضي وان التاريخ حافل بتفرعات وقعت بغتة ولكن الحوادث في مجموعها مسيرة بنواميس ازلية .

فهرست

صفحة

٦ مقدمة الطبعة الاخيرة للمؤلف

١٢ مقدمة المؤلف

الجزء الاول – العناصر النفسية للحركات الثورية

الباب الأول

صفات الثورات

٢٣ الفصل الاول – الثورات العلمية والثورات السياسية

٣٥ الفصل الثاني – الثورات الدينية

٥٠ الفصل الثالث – شأن الحكومات في الثورات

٦١ الفصل الرابع – شأن الامة في الثورات

الباب الثاني

مظاهر النفسية السائدة ايام الثورات

٧٨ الفصل الاول – تقلبات الخلق ايام الثورات

٨٧ الفصل الثاني – النفسية الدينية والنفسية اليعقوبية

٩٩ الفصل الثالث – النفسية الثورية والنفسية المجرمة

١٠٤ الفصل الرابع – روح الجموع الثورية

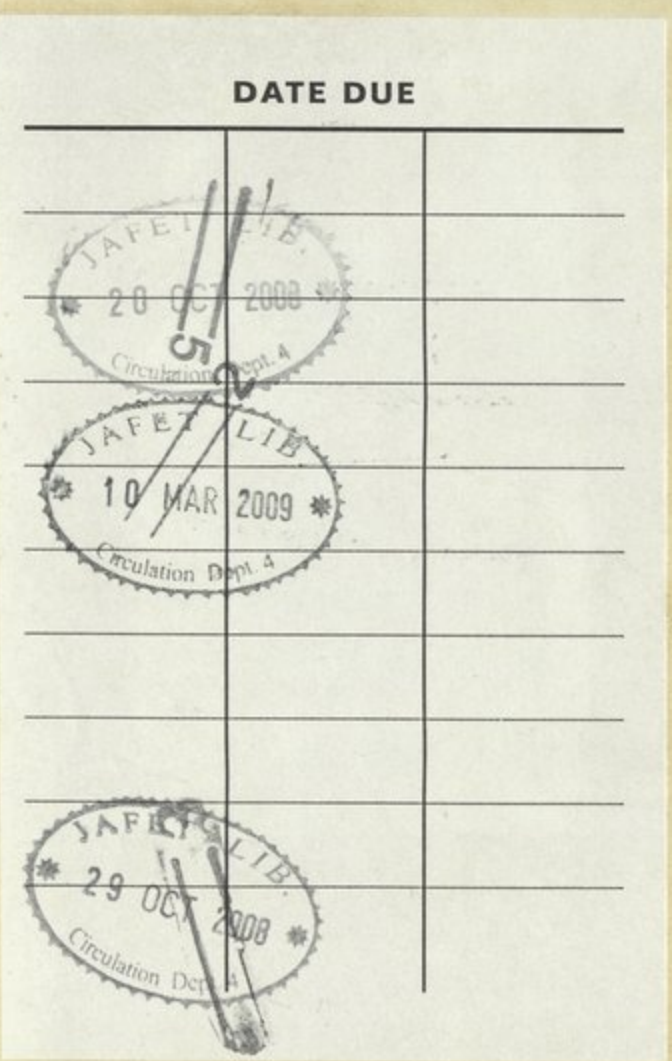

DATE DUE

JAFET LIB.
20 OCT 2008
Circulation Dept. 4

JAFET LIB.
10 MAR 2009
Circulation Dept. 4

JAFET LIB.
29 OCT 2008
Circulation Dept. 4

323.2:L44rA
لوبون، غوستاف
روح الثورات والثورة الفرنسية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01014896

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT